المهدي المنجرة

الإهانة

في عهد الميغا إمبريالية



المهدي المنجرة

الإهانة

في عهد الميغا إمبريالية

الكتـاب

الإهانة
في عهد الميغا إمبريالية

المؤلـف

المهدي المنجرة

عدد الصفحات 272

القياس: 21x14

الطبعة الاولى2004
الطبعة الثانية 2004
الطبعة الثالثة 2004

الإيداع القانوني 666 / 2004

ردمك 7 - 1 -8401 - 9954

الغلاف: أحمد بن سيف

توزيع المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء
42 الشارع الملكي (الاحباس)
ص.ب . 4006(سيدنا)
هاتف: 2303339
فاكس:2305726
E-mail
markaz@ wanadoo. net.ma
Bassam5@ wanadoo. net.ma

صدر للمؤلف

بالعربيــة :

ـ "من المهد إلى اللحد"، ط1 . القاهرة، 1981، ط3 . النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

ـ "الحرب الحضارية الأولى"، منشورات عيـون، الرباط، 1991، ط. 7، النجاح الجديدة 2002.

ـ "القدس العربي، رمز وذاكرة"، ط1 . مطبعة وليلي، مـراكـش 1996، ط. 3 النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002.

ـ "حوار التواصل"، منشورات شراع، طنجة، 1996، ط. 10 النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004.

ـ "مسار فكر"، حوارات مع حسن نجمي ومحمد بهجاجي، منشورات وليلي، مراكش، 1997، ط4. النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

ـ "عولمة العولمة"، منشورات الزمان، الرباط، 1999.

ـ "انتفاضات في عهد الذلقراطية"، منشورات البوكيلي، القنيطرة، 2002.

باللغات الأجنبية :

- *The United Nations System : An Analysis,* Faber & Faber, London (1973), Archon Books, Hamden, Connecticut, USA (1973).

- *No Limits to Learning, Report to the Club of Rome* (co-authors, Jim Botkin & Mircea Malitza), Pergamon Press, London (1979) traduit en douze langues y compris le Français sous le titre On Ne Finit Pas d'Apprendre , Pergamon Press, Paris (1979).

- *Maghreb et Francophonie, le Premier Sommet Francophone : Instrument des Relations Internationales,* Economica, Paris (1988).
- *Première Guerre Civilisationnelle,* édition arabe, Ouyoun, Rabat (1991), 7e impression, Ennajah Al Jadida, Casablanca (2002) ; Edition française, Toubkal, Casablanca (1992) ; Edition japonaise, Ochanomizou-Shobo, Tokyo, (2001) ; édition anglaise sur l'internet **http://www.elmandjra.org.**
- *Rétrospective des Futurs,* Editions Walili, Marrakech & Futuribles, Paris (1992).
- *Nord-Sud : Prélude à l'Ere Postcoloniale,* Toubkal, Casablanca, (1993).
- *La Décolonisation Culturelle, Défi Majeur du 21e Siècle,* Editions Walili Marrakech (1996), 3e impression, Editions Ennajah El Jadida, Casablanca (2001) ; édition japonaise, Ochanomizou-Shibo, Tokyo, (2001) ; édition française sur l'internet **http://www.elmandjra.org.**
- *Guerre d'Afghanistan, Deuxième Guerre Civilisationnelle et fin de l'Empire qui l'a déclenchée,* (japonais) Ochanomizu Shibo Publishers, Tokyo (2001).
- *Humiliation à l'Ere du Méga-Impérialisme,* Ennajah Al Jadida, Casablanca (2003).

إلى روح امحمد المنجرة

وربيعة المريني

اللذين علماني قيمة الكرامة

توطئة

ينصب الاهتمام الأساس لهذه المجموعة من الكتابات على ما يمكن تلخيصه بـ"الذل"[1]. إنه شر قديم يعود بقوة ليبسط هيمنته على العالم. فقد غدت المهانة شكلا للحكم ونمطا لتدبير المجتمعات وطنيا وعالميا. والذل كما يٌعرفه معجم روبير: "فعل الإذلال الواقع على الغير أو على النفس".

إن القوى العالمية الكبرى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، تمارس الإذلال على بلدان العالم الثالث، التي تنصاع لذلك من غير كثير اعتراضات، قبل أن تمارس الإذلال بدورها على جماهيرها ذاتها. ولهذا فإن هذه الأخيرة تعاني من ذل مزدوج ينضاف إليه ذل ثالث هو الذل الذاتي ويتمثل في الامتناع عن الفعل. ومن حقنا الحديث عن "الذلقراطية"[2]، أي النظام السياسي والثقافي الذي يستغل التفاوت في علاقات القوة الداخلية والخارجية معا.

تنبع الإهانة من إرادة واعية في التعدي على كرامة الآخرين، وليس فقط من الهيمنة. إنها أحد الأمور الأكثر انتشارا اليوم عالميا بفضل مستخدميها ومن يحافظون عليها. وهو الأمر الذي يثير الأقل فالأقل من السخط من جانب الحكومات والشعوب المُهَانة نفسها أو من طرف الرأي العالمي والدولي.

منذ أكثر من خمسين سنة، وكنا وقتها في إحدى ثانويات الدار البيضاء، أعطانا أستاذ اللغة الفرنسية موضوعا للإنشاء يقول : "احكوا كيف أحسستم

---

(1) غزير هو الأدب المتعلق بالمهانة، بحيث نجد في الأنترنيت ما يربو على 807 آلاف مرجعا. انظر محرك غوغل.

(2) استعمل هذا المصطلح لأول مرة بالعربية في : المهدي المنجرة، "انتفاضات في عهد الذلقراطية"، منشورات البوكيلي، القنيطرة، 2001.

لأول مرة بالسخط أمام مشهد للظلم". ولا زلت أحتفظ إلى اليوم بورقة درس الإنشاء هذا التي تتطرق لحدث معيش. كان أحد ماسحي الأحذية يعرض خدماته على أحد الزبائن على سطيحة إحدى المقاهي، غير أن الزبون رفضها لمرتين قبل أن يقوم بركله. تقدم الماسح إلى شرطي كان شاهدا على الحدث، شاكيا له ما تعرض له. طلب منه الشرطي الذهاب إلى حال سبيله لأنه هو المخطئ باعتبار أنه كان يتحرش بالزبون!

إنها قصة طبعت حياتي ولا زالت ماثلة أمام عيني حتى اليوم من خلال الظلم الذي يتعرض له ملايين الأشخاص عبر العالم. وقد توسع هذا الشطط بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وبزوغ عصر " الميغا إمبريالية " أي الإمبريالية العظمى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتحالفاتها ذات الهندسة المتنوعة. وهذه السلطة الجديدة ترتكز أساسا على الأسلحة وعلى الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث. إنها شكل جديد من أشكال الفاشية لا تترك حيزا كبيرا للتسامح واحترام الآخر، بل ولا للعدالة أيضا، وتعتبر سلاحا " للدمار الشامل " موجها ضد الكرامة. فإرهاب الدولة يمثل الأداة الجديدة " للدول الفتّاكة " التي ظهرت في الغاب الذي أصبحه النظام العالمي. أين هي الديمقراطية حين نلاحظ مثلا فجوة كبرى بين الإرادة الشعبية كما قاستها استطلاعات الرأي والمظاهرات ضد الحرب في العراق من جهة، والسياسات المتبعة من طرف الحكومات التي تسمح لنفسها بتجاوز تلك الإرادة ؟ إن إحدى قواعد الذلقراطية تتمثل في أننا كلما تمادينا في خرق مبادئ الديمقراطية كلما سمحنا لأنفسنا بتقديم دروس في السلوك الحسن للآخرين، ومن لم يستح فليفعل ما يشاء.

إن تاريخ العالم الثالث في الخمسين سنة الأخيرة عبارة عن سلسلة لا متناهية من المهانات والمذلة. فالمستوى السياسي ظل تحت وطأة النزاعات الجهوية وغياب المؤسسات الديمقراطية. وفي المستوى الاقتصادي نلاحظ انهيارا شاملا لنماذج التنمية التي فرضتها المحافل الدولية، وهذا الانهيار هو المستديم وليس التنمية. ونحن نقرأ في آخر تقرير لبرنامج الأمم لمتحدة للتنمية المتعلق

بالتنمية البشرية أن 45 بلدا أصبحت أفقر اليوم من سنة 1991، وأن معدل العمر قد تراجع في 34 بلدا في الوقت الذي تزايدت فيه المجاعة في 12 بلدا ! ويأتي بعد ذلك الاستلاب الثقافي الذي يمكن اعتباره الذل الأكثر خطرا على المستوى البعيد، لأن الأمر يتعلق بعدوان على أنظمة القيم.

وفي إطار العالم الثالث قد يكون العالم العربي والإسلامي أي مليار و600 مليون شخص[3]، هو الذي تعرض لأكبر عدد من المهانات الخارجية والداخلية، التي قضت على ما يناهز العشرة ملايين شخص في العشر سنوات الأخيرة من القرن العشرين[4]. ومن بين ساحات المعارك يمكننا أن نذكر البلدان التالية : أفغانستان، الجزائر، البوسنة، كرواتيا، مصر، إرثيريا، الهند، إيران، الأردن، أندونيسيا، العراق، إيران، الكشمير، لبنان، نيجيريا، باكستان، فلسطين، الفلبين، سين كيانغ، الصومال، السودان، سوريا، الشيشان، اليمن...إلخ.

المَشاهد في التلفزيون، الخاصة بفلسطين أو العراق، عبارة عن إهانة يومية، كما أن تعاليق وسائل الإعلام العربية مذلّة أقسى بالنسبة للذين يتعلق بهم الأمر. أما "خارطة الطريق" الأمريكية فإنها تقود لامحالة إلى فقدان السلام.

يعتبر الخوف من الإسلام إحدى أكبر حالات الهوس التي يعيشها الغرب والعالم الأوروبي. وأنا أكتب عن ذلك منذ أكثر من عشرين سنة. ويكمن السبب في هذا الرُّهاب في الجهل وغياب التواصل الثقافي، تنضاف إليهما العجرفة التي تقود مباشرة إلى إذلال الآخر وتغذي حربا حضارية انطلقت سنة 1991 حاملة معها رهانات اقتصادية كبرى، ولن تكف عن السريان أمام أعيننا لسنوات طويلة مقبلة .

وهذا الخوف لا يقتصر على الغرب، ذلك أن جانبا لا يستهان به من حكام العالم الإسلامي لا يتمتعون بمساندة جماهيرهم ويمكثون في السلطة فقط

(3) يشكل العالم العربي أقل من 20 بالمائة من هذا المجموع.

(4) بلغ عدد ضحايا النزاعات المسلحة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية 65 مليون نسمة.

بفضل السند الخارجي الذي يملي عليهم سلوكهم السياسي. إن الأمر يتعلق بذل آخر يسلطه الحكام على بلدانهم.

فالإهانة لا تعرف حدودا ويتوجه الآن إلى المعرفة والإبداع والتراث الثقافي كما جرى ذلك مؤخرا بالعراق تحت أنظار المجموعة العالمية ومنظمة اليونسكو التي ظلت بلا حراك. كما جرى نهب لا نظير له وأعمال تدمير للمجموعات الفنية للمتاحف الوطنية الأكثر ثراء وللعديد من الجامعات التي تعرضت للإحراق الكامل [5] في مدينة عرفت أول جامعة في التاريخ. وبما أني كنت على رأس قطاع الثقافة باليونسكو لعدة سنوات، فإنني أجد نفسي موضوع صدمة ومهانة أمام هذا الهدوء واللامبالاة التي تتعامل بها هذه المؤسسة مع ما سماه الرئيس جاك شيراك "جريمة في حق الإنسانية".

إن درجة الإهانة التي تعيشها جهة ما أو بلد معين تساير مباشرة تساهل حكامها ودرجة فتور وخنوع جماهيرهم. ففي مجال الذل يكمن جانب كبير من قوة المُذل في كونه لا يلقي العقاب وأيضا في درجة استسلام وضعف الخاضعين للذل.

إننا نعيش أزمة أخلاقية حقيقية تضاعف من الآثار السيئة لكل أنواع الذل، وهي ناجمة عن الفقر والأمية والمرض وغياب العدالة الاجتماعية الكاملة وخرق حقوق الإنسان. وحين تبلغ هذه العوامل جميعها الحد الخطر فإن مظاهرها تتجلى للعيان ويختل الاشتغال الاجتماعي وتكثر الانفجارات والعصيان المدني والحنق الجماهيري التي تؤدي إلى انفجار النظام. وآنذاك يتعلق الأمر بشرخ في الكرامة، وهذا ما أسميه " انتفاضة ".

فالانتفاضات حتمية في العالم العربي الإسلامي. وما يؤشر لها هو التساؤل المستمر وهمهمات شكوى أسيَّة : أين هم حكامنا ؟ أين هـم مثقفونا ومبدعونا ؟ ما الذي حدث لمناضلينا المدافعين عن "القضايا الكبرى" ؟ أين هم

(5) Cf : "Des pillards et des livres", le Monde, 6 Août 2003

المتحدثون باسم المجتمع المدني ؟ إلى أي أحد سيبلغ الارتزاق بنخبتنا وأين ستصل بها الوشاية وتجارة المخابرات ؟ كيف نفسر سكونيتنا الخاصة والقبول بمذلة وطنية ودولية كهذه ؟

لم يعد أحد يقوم برد فعل إزاء إهانة المقدسات وتدنيس المعتقدات. فقد قامت القوات الأمريكية بنزع عبارة الله أكبر من العلم العراقي(*)، تلك العبارة يسمعها المسلمون ثلاثين مرة (في كل أذان ست مرات) وينطقون بها سبع عشرة مرة كل يوم وهم يؤدون صلواتهم. من هو البلد الإسلامي الذي ندد بالأمر؟ هل تم القيام بذلك باسم العلمانية والديمقراطية البوشية، في الوقت الذي يتم فيه تعليق شعار "نحن مؤمنون بالله"[6] إلزاما في كل المدارس، بل نجده في بعض الدول في كل النقود المسكوكة.

هل يمكننا أن نتصور إنجلترا من دون نشيدها الوطني "ليحفظ الله الملكة"، الذي يعود إلى القرن 18 ؟ إن المستهدف ليس العراق ولا رئيسه السابق، وإنما هو الإسلام. ومن سخرية الأقدار أن هذا المس بالمشاعر الروحية لمئات الملايين من المؤمنين صادر عن حكومة مسيرة إيديولوجيا من طرف المتطرفين والأصوليين الذي لا يخفى تعصبهم الديني على أحد. وهذا ضرب من الخداع يعتبره فولتير "فرحة إهانة الآخر وإذلاله". إنه جانب مَرضي من الذل لا يمكننا التغاضي عنه.

لقد تعرض النظام الدولي فيما بين الحكومات إلى إهانات خطيرة خلال السنوات الأخيرة، غير أن العدوان الأخير على العراق وقبله على أفغانستان قد كشف عن حدوده وبرهن على أن الأمم المتحدة لم يعد لها من مصداقية إزاء الرأي العام الدولي. والأمر نفسه ينسحب على كل البنيات الجهوية كجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومؤتمر

(*)عند طبع هذه الطبعة كان قد تم التراجع عن هذا القرار الذي اتخذته الحكومة العراقية المعينة، بعد أن رفض العراقيون هذه المذلّة

(6) نجد حوالي مليون ونصف مليون وثيقة بشبكة الإنترنيت حول هذه العبارة (www.google.com).

دول عدم الانحياز. فعصر الإمبريالية العظمى لا يمكنه إلا أن ينتج مهانات لا تحصى تمس كل جوانب الحياة بلا استثناء.

فالذل الأكبر في نهاية المطاف حين لا نعود عارفين لمعنى الذل.

ينتهي هذا الكتاب بنص كتبته احتفاء برجل علمني أن الكرامة سلوك ونظام قيم قبل أن تكون خطابا. إنه المرحوم المهدي بنعبود، الذي ظل وفيا لنضاله ضد الذل والمهانة ومدافعا عنيدا عن الكرامة. كان، رحمه الله، يردد مرارا قولة عمر بن الخطاب : "فمهما نطلب العزة بغير ما أعزّنا الله، أذلّنا الله"، وأذلنا بتقديس الأشخاص وتأليههم. فالكرامة والصراع ضد الإهانة يتمان من خلال نزع الطابع التقديسي عن كل ما أصبح يقدّس بشكل مفتعل.

ظهرت غالبية محتويات هذا الكتاب، ومعها هذه التوطئة، في كتاب بالفرنسية بعنوان: "الإهانة في عصر الميغا إمبريالية" (2003)، الذي صدرت منه خمس طبعات في غضون ستة أشهر فقط. كما عمدنا إلى إغناء الطبعة الخامسة بنصوص أخرى ذات صلة بالموضوع نفسه.

المهدي المنجرة

الرباط، أبريل 2004.

1
نهاية الامبراطورية الأمريكية[*]

لا يتردد المهدي المنجرة في النظر ألى الساحة الدولية الحالية باعتبارها مشهدا سياسيا تتقاسمه قوة مهيمنة هي الولايات المتحدة الأمريكية وقطيع تابع لها يتمثل في باقي بلدان العالم، مسكون بالخوف، وأقل ما يقال عنه إنه خاضع كلية لها. كما أنه يعتقد أن العلاقات قوية بين العسكرة الإعلامية الموجهة ضد الإسلاميين بالمغرب، والسياسة الأمريكية المتعطشة للهيمنة التي زادت من حدتها أحداث 11 شتنبر. وفي مسار الحديث أيضا يكشف المهدي المنجرة عن أشياء ليست بأقل إقلاقا.

□ الصحيفة : سنة بعد أحداث 11 شتنبر أيلول، يبدو أن العالم يسير على إيقاع الحذر الأمني الذي تمليه الولايات المتحدة...

■ م.م. : سأفتتح حديثي بملاحظة تبدو لي دالة على عقلية وفكر الجمهور العريض. تسمون ما حدث في الولايات المتحدة بأحداث 11 شتنبر. لماذا هذه الضجة الإعلامية ؟ هل سيغدو هذا اليوم عقيدة أو ديانة كما يرغبون هم في فرضه على التاريخ ؟ لقد رمى الأمريكيون بالتهمة على يوم 11 شتنبر في أذهان الناس. لماذا لا نتحدث بنفس الإيقاع الإعلامي وبنفس الحساسية الإنسانية عما وقع في الفيتنام وأفغانستان وغيرهما من بقاع العالم التي عرفت أحداثا أكثر مأساوية وبشاعة ؟

إنه نوع من التقديس المفروض. صحيح أن الحدث خلف ضحايا أبرياء ولا يمكننا إلا إدانة ما تعرض له المدنيون ضحايا تلك الأحداث. فنحن ضد العنف، مهما كانت طبيعته، غير أن هذا التسلل إلى طريقة التفكير بل أيضا إلى

(*) أسبوعية الصحيفة، العدد 78، الدار البيضاء 12-18 شتنبر 2002 (أجرى الحوار مصطفى حيران).

تطويع الأذهان بحيث يدور العالم كله حول 11 شتنبر 2001، هذا لا يمكنه إلا أن يكون شكلا من الإمبريالية الإعلامية الجديدة ...

□ **الصحيفة** : يتعلق الأمر، في السياق نفسه، بعسكرة أمريكية للعالم.

■ **م. م.** : إن ذلك يدخل في خطة معدة سلفا قصد التحكم وإحكام القبضة على العالم. وحتى لو لم تقع أحداث 11 شتنبر منذ سنة، فقد كانت الخطة جاهزة. لم يعد من الممكن استعمال الترسانة العسكرية، لكن ثمة استراتيجية جديدة لغزو العقول، تتمثل في نوع من الإمبريالية الثقافية الجديدة. والأدهى من ذلك أن ثمة سلاحا يُستخدم هنا وهو أخطر من القنابل النووية: إنه سلاح الخوف. لقد دخلنا في عصر أسميته في حوار صحفي سابق بـ: "الرُّهابُقراطية"، أي السيادة وممارسة الحكم بواسطة الخوف والتخويف. إن وسواس انعدام الأمن لدى الحاكمين غدا طريقة في الحكم، وسبيلا إلى التحكم كما طاب لهم في مصائر الشعوب.

ففي البلدان المعتبرة في خانة "العالم الثالث"، يسيرّ "الحكام" بلدانهم تبعا لمزاجيات الخوف، والرهبة من هذا الإسلامي أو ذاك الإرهابي أو من شر مرتقب، خاصة وأنهم لا يرون وسيلة أخرى ملائمة في نظرهم لمواجهة ذلك، كالعدالة والديموقراطية والنماء الاقتصادي والثقافي والتقدم الحضاري.

لقد أصبح الخوف وسيلة للتدبير السياسي على المستوى الوطني كما على المستوى الدولي. والولايات المتحدة تقدم لنا في هذا المضمار نموذجا للفعل السياسي الدولي بالغ الحساسية ومن ثم ذا خطورة معينة، بحيث إننا دخلنا، خلال الحرب الحضارية الأولى أي بعد الاستقلال والصدمة الثانية، مرحلة أعتى وأسوأ، أي مرحلة ما بعد الفاشية. وهذا يعني أن قوة كبرى كالولايات المتحدة الأمريكية تستخدم وسائل فاشية بحيث إن الحق والقانون والعدالة لم يعد لها مكان في هذه الممارسة. والمثال البليغ يأتينا مؤخرا من جوهانسبورغ، خلال القمة الأخيرة عن البيئة، حين فرضت دولة واحدة على بقية دول العالم ما تريده وقبلت ما تشاء...

إن ذلك أمر بديهي لأن كل شيء كان مخططا مسبقا. فمنذ حرب الخليج، وأكرر ذلك من جديد، تم ترويض الأمم المتحدة بحيث أصبحت أداة في خدمة البانتاغون والبيت الأبيض. لقد جعلا من الأمم المتحدة كيانا مريضا. ثم حلّ على رأسها بطرس غالي الذي جعل منها كيانا في حالة احتضار. وها هو اليوم كوفي أنان يقوم بدفنها نهائيا، ويكفينا بهذا الصدد تحليل تصريحاته لندرك أنه يشبه الناطق الرسمي الذي ينتظر الأوامر وفي الوقت المناسب.

□ **الصحيفة** : هل علينا أن نفهم انطلاقا من ذلك أن ما حدث في 11 شتنبر 2001 كان مصطنعا بحيث يتيح لأمريكا السيطرة التامة على العالم في ظروف استثنائية ؟

■ م. م. : لا أستطيع الجزم في هذا الأمر. فأنا باحث ليس بمستطاعه أن يقول الكلمة الأخيرة إلا إذا توفرت لديه المعلومات الكافية. ولحد الآن لا زلت لم أستوعب ما حدث في 11 شتنبر 2001. فلدينا القليل من المعلومات، من قبيل أن 91 شخصا كان بحوزتهم جوازات سفر سعودية من بينهم شخصان تابع أحدهما تكوينا في الطيران في ألمانيا والآخر في كندا. وهذه المعطيات ليس من شأنها أن تشكل أرضية للوصول إلى تحليل واقعي للأحداث. لهذا أذهب إلى القول بأننا أمام خطة سيطرة وتحكم في العالم من جانب الولايات المتحدة، وذلك منذ الخمسينيات من القرن الماضي، أي منذ أن توفر النظام الأمريكي على فرق بحث علمي واستراتيجي متعددة الجنسيات.

وبهذا الصدد، فإن ما وقع في نيويورك سواء حدث أم لم يحدث، فهذا لا يغير شيئا من أهداف الولايات المتحدة ومراميها. تكفي شرارة واحدة، لأن كل الشروط كانت متوفرة. فثمة شكوك حتى في الطريقة لتي تم بها فوز بوش في الانتخابات الرئاسية. فللمرة الأولى في التاريخ يتم الحديث عن شكوك تخص مشروعية انتخاب الرئيس الأمريكي في هذه الظروف الخاصة.

ثم إن مؤشرات الانهيار الاقتصادي كانت معروفة وترزح تحت ثقلها الولايات المتحدة قبل أن يقع ما وقع في 11 شتنبر.

□ **الصحيفة** : استطاعت الولايات المتحدة أن تبني صرح قوتها بفضل انفتاحها الاقتصادي والاجتماعي على الشعوب الأخرى. ألا يشكل هذا الانكفاء على الذات، الذي يجد مبرره في الهواجس الأمنية، خطرا على الإقلاع الأمريكي؟

■ **م. م.** : إن ما نسميه انفتاحا كان دائما بمبررات مصلحية. وبهذا الصدد علينا أن نشير إلى أن الأمريكيين لم يشرفوا على تكوين أكثر من ثلثي الأطباء العاملين بالمستشفيات الأمريكية. والباقي، أي ما يقارب 40 بالمائة نزحوا إليها بعد أن تكوّنوا في بلدانهم الأصلية. لكن ما يحدث حاليا ويشكل خطورة كبرى بغض النظر عن الاعتبارات التي تشير إليها، هو أن المواطن الأمريكي قد تم الزج به في دوامة الخوف، وهي وضعية تستغلها الإدارة الأمريكية، خاصة وأنها تعتبر أن الظرفية العالمية الحالية ملائمة لذلك... إن الإحساس باللاأمان الذي عهدناه في بلدان العالم الثالث ينزل بثقله الآن على الولايات المتحدة، مع الانعكاسات التي يفترضها ذلك.

□ **الصحيفة** : ما ستكون عليه في المستقبل نتائج تعميم الخوف والتوجس من اللاأمان في العالم ؟

■ **م. م.** : لقد قلت سابقا بأن الحرب الحضارية الثانية بأفغانستان كانت مدخلا لانهيار الأمبراطورية التي لا تزال لحد الآن تسيطر على العالم.

□ **الصحيفة** : إذا عدنا إلى التاريخ، فإن العلامات الأولى لتفكك الإمبراطورية البريطانية، ومؤشرات ولادة قوة عالمية عظمى أخرى كانت جلية للعيان. تبعا لهذا التحليل، هل ثمة علامات تؤشر لظهور قوة عالمية عظمى جديدة ؟

■ **م. م.** : كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن الصينيين آتون ومعهم جنوب آسيا بأكمله. فالاقتصاد الأمريكي في تراجع مضطرد، بحيث إن الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون صرح للقناة الأمريكية "سي بي إس" في ديسمبر 1999 : "نحن على علم بأنه ليس من الممكن أن نظل القوة الاقتصادية العالمية الأولى في غضون العشر سنوات المقبلة. فالصين ستحقق تقدما ساحقا علينا.

وسنتراجع للمرتبة الثانية". إنه توقُّع يقوم على إشارات بداية الانحطاط. وما هو أخطر سواء تعلق الأمر بشخص أو شعوب أو دول، هو أن المرء حين يحس بالنهاية الوشيكة فإن الذاتية والجانب العاطفي يتحكمان في العقلانية أثناء اتخاذ القرارات مهما كانت خطورتها. وحتى نعود للحالة الأمريكية، فالأمر يتعلق هنا بمرحلة، إذ يتم تخويف الناس، وزرع الرعب في أذهانهم حتى يصبحوا مطواعين. إنها مرحلة من التاريخ دخلنا إليها، وهي مرحلة فريدة لأن وسائل الدمار لم تكن كما هي عليه اليوم.

□ **الصحيفة** : ألا ترون في الانهيار الأمريكي وضعية مشابهة في باقي بلدان العالم، بما أن لا دولة استطاعت عبر التاريخ أن تتبوأ مكانة الأوج المدعومة بالهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية ؟

■ م. م. : لا، فالانهيار سيكون بالأساس غربيا، أي أنه سيصيب ما يسمى ثقافة أو حضارة غربية. لقد اطلعت على مقالة، من أفضل ما قرأته في صحيفة "لوموند" بعدد 6 يوليوز 2002، من توقيع مشيل سيرّ، أحد كبار المفكرين الفرنسيين والأوروبيين، وفيه يحلل ما يسميه "النزعة الإنسانية العالمية الآتية". وهو يتوقع حدوث الأفضل بعد الانهيار، ويتساءل: "لماذا التباكي على مرحلة من القصَر بمكان ولا تتجاوز الألفي سنة، حين نعلم أن عمر الكون يناهز الست مليارات من السنين؟". إن هذا يعني أن تلك الرؤية العرقية المتمركزة على الذات التي تتميز بها الحضارة في الغرب سائرة لا محالة إلى الزوال.

وحتى نعود إلى ظرفية الانهيار، فنحن نعلم أن الولايات المتحدة قد بلغت وضعيتها الراهنة لا بفضل الخطاب وإنما بفضل التكنولوجيا والبحث العلمي. لكن للأسف تكشف الأرقام أن ثمانين بالمائة من الميزانية المخصصة للبحث العلمي تمنح لمجالات الدمار. علاوة على ذلك، ثمة أرضية وشعور لدى دول العالم الثالث التي لا تزال تهضم مرحلة ما بعد الاستقلال. وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى قمة جوهانسبورغ، فعدا ثلاثة أو أربعة بلدان، كان الكل يتقفى خطى الولايات المتحدة كالقطيع. فهم، خلال المفاوضات، اكتفوا بالسير في

نفس مسار المخطط، على إيقاع التعليمات الأمريكية.

الاعتراف بأن ثمة عاملا داخليا في الولايات المتحدة، أي ذلك الاهتمام البالغ والحيوي بالعلوم وتطبيقاتها، ففيها نجد أشهر الجامعات في هذا المضمار. ثم إن الأمريكيين يضعون رهن إشارتها الشروط المثلى لهذا الغرض، بحيث لا تستطيع دولة أخرى منافستها في أهدافها ومراميها. وهذا هو ما أدى الى وجود رفض الهيمنة الأمريكية في ميادين مختلفة. إن رفضا من هذا القبيل بدأ يرى النور وسيتنامى أكثر في السنوات المقبلة. والولايات المتحدة، ومعها باقي بلدان العالم، واعية بهذه الوضعية. فاليابان لها إشكاليتها الخاصة مع الولايات المتحدة. والأمر نفسه يسري على ألمانيا وفرنسا. أما بريطانيا فمن الأفضل عدم الحديث عن حكومة تنصاع لنزوات الأمريكين والأجدى الحديث عن الشعب الإنجليزي الذي أبان في مناسبات عديدة عن رفضه للسياسة الخارجية لحكومته. إننا نشهد بداية انشقاق، في بلدان يقال عنها بأنها ديمقراطية، بين الحكومات التي تؤازر الولايات المتحدة ومواقف الشعوب التي ترفض تدخّلها صباح مساء في بلدانهم، مما يسيء لسيادة دول معترف بها من قبَل المجتمع الدولي.

إذا كان عصر الحضارة الإعلامية قد بدأ من بلاد العم سام فإن الدولة نفسها هي التي تجد نفسها اليوم مسؤولة عن ثورة المعلومات التي تستغلها مخابراتها أبشع استغلال.

□ **الصحيفة** : هل هناك دوليا من رابط بين عسكرة الإعلام هذه الرامية إلى محاربة ما يسمى إرهابا عالميا، وتلك الحملة الإعلامية الوطنية ضد نماذج من التوجه الإسلامي؟

■ م. م. : أعتبر أن هذا الموضوع ليس مقصورا على المغرب. فنحن نرى ما يتم اليوم بالباكستان والأردن والسودان. إنه مسلسل تم إطلاقه من زمن. وكلمة "الإسلامي" المعينة لتوجه معين تم ابتكارها خارج العالم الإسلامي في بداية السبعينيات في إطار مخطط "حضاري" لمحاربة الإسلام. لقد دخلنا حربا

صليبية جديدة. ونرى غالبية "حكام" دول العالم الثالث يساهمون فيها أو يبحثون لها عن الذرائع بل يخلقونها تماما.

□ **الصحيفة :** هذا المناخ الأمني الذي تلا ما حدث يوم 11 شتنبر ومعها السياسة الأمريكية الماشطة لما تسميه مصادر الإرهاب، هل كان له أثر على السياسة الداخلية لدولة من دول العالم الثالث، أستحضر هنا مثال المغرب، وبالأخص الانتخابات التشريعية في 27 شتنبر 2002 ؟

■ **م. م. :** السياسة الأمنية الأمريكية لها انعكاساتها على المغرب، وهو أمر بديهي. وإذا كنا نعتقد بأمر آخر، فإننا سنكون من الغفلة. وهو ما أكدت عليه غير ما مرة وفي العديد من المناسبات. وعلينا البحث عن مصادر ذلك في السياق العام وفي انهيار الاتحاد السوفياتي في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات. من ثمة بدأت الحرب الحضارية الجديدة، فهي اندلعت مع العراق، وقد قلت وقتها بأن الأمر يتعلق بفصل جديد من مسلسل تتمثل أهدافه في الصراع ضد القيم الإسلامية والإنسانية. إنه أمر بديهي، فثمة علل تتعلق بالحركات الإسلامية وأخرى لا تتعلق بها. لكنني لا أومن بدعاية مصطلحية ما دام هناك إرادة شعبية. ثمة تذمر حقيقي للشعوب من حكوماتها. وكل حدث قابل لدفع الشعوب إلى فرض إرادتها. وهذا ما جعل الولايات المتحدة تذهب إلى إبراز ما تمتلكه من قدرات تكنولوجية متطورة لم تكن تمتلكها منذ عقد من الزمن، بحيث إن الأمن غدا تابعا لمنظمة واحدة، وكل المنظمات الأمريكية الأخرى بالخارج تعمل تحت تعليمات تلك المنظمة المركزية للمخابرات. وهذه المنظمة تتحمل المسؤولية الأولى بحيث أن العالم أصبح مربوطا بشبكة وحيدة من المخابرات. أما علاقة السياسة الأمريكية بالظرفية الانتخابية المغربية فإنه بالنسبة لي أمر ثانوي...

□ **الصحيفة :** هل هناك علاقة بينهما أم لا؟

■ **م. م. :** طبعا هنالك علاقة. فإذا خرجت إلى الشارع، فستجد أن كل شيء

مترابط. هناك حاليا خطة صادرة عنوة من الدوائر العليا الأمريكية وموزعة في كل البلدان وكل الدول، تبعا لخانتها ومرجعيتها ومصالح واهتمامات نخبها...

□ **الصحيفة** : لقد تغيرت الولايات المتحدة في ظرف سنة. فعوض القوة الكبرى الواثقة من سيطرتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، أصبحت دولة بالغة الحساسية لكل ما يتعلق بأمنها الداخلي. هل ذلك علامة على انهيار قوة عظمى؟ كيف تتصورون في هذه الحالة عالما من دون الولايات المتحدة ؟

■ م. م. : العدم غير موجود. وقد صرحت في حوار مع صحيفتكم بعد حرب أفغانستان بأن ثقة الأمريكيين قد تزعزعت. فالصورة التي كانت للمواطن الأمريكي عن بلده قد تزلزلت. لا يتعلق الأمر فقط بانهيار ناطحتي السحاب التوأمين وإنما بتلك الثقة التي اهتزت، وهذا شيء خطير. وإذا ما نحن عدنا إلى الوراء واستحضرنا الإنجازات التي حققها هذا البلد، فإننا سندرك بأن ذلك يعود إلى اعتقاد المواطن الأمريكي بأن بلاده هي أعظم أمة بالعالم، وأنه ليس ثمة من قوة تنافسها في العظمة. هذا الإيمان بالعظمة كقوة حضارية هو الذي تعرض للاهتزاز. وحين يتم فقدان الثقة في النفس، فما يبقى هو همٌّ بل هوْس الأمن. والأمر نفسه ينسحب على دكتاتوريات بلدان العالم الثالث التي يقوم فيها كل شيء لا على الديمقراطية وحقوق الإنسان وإنما على الهمّ الأمني قبل كل شيء. ومن الناحية السيكولوجية، فهذه الوضعية مشابهة لحالة شخص ينصبّ اهتمامه الوحيد على البقاء على قيد الحياة بحيث لا يهتم بأي شيء آخر غير ذلك.

لم يعد يوجد في أمريكا في هذه الوضعية غير الوسائل العسكرية القادرة على الفتك بالحياة في المجال الكوني الحيوي بما يفوق 30 مرة الأسلحة النووية. وأنا كنت من أيام في هيروشيما حيث شاركت في ندوة حول هذا الموضوع. لم يبق في الولايات المتحدة غير السوط باعتباره في نظرهم القنبلة النووية أو استعمال القنابل الجديدة التي تختزن كل واحدة منها ألف كيلوغرام من المتفجرات، أي تلك التي استعملت في أفغانستان، والتي قدمت لإسرائيل

وجربتها في غزة.

الخوف يفضي إلى نتيجة تتجسد في رد الفعل المتمثل في زرع الرعب لدى الآخر، وهو الأمر الحاصل اليوم والذي يشكل خطرا على مستقبل الإنسانية. فالخوف أصبح طريقة في الفعل وآلية سياسية جديدة. إنه عبارة عن مرحلة وفترة انتقالية ستستمر ما بين خمس وعشر سنوات في الحد الأقصى... وهذه الفترة ستفضي إلى تغير جذري وواقعي في العلاقات الدولية، وهو ما سيؤدي إلى ولادة تحولات حضارية مختلفة، بقيم مغايرة للقيم المسيحية واليهودية المهيمنة اليوم في جميع بقاع العالم. فمن المتوقع أن يحدث تغير منتظر في العالم في السنوات المقبلة، لا بالقنابل وإنما بواسطة نخبة جديدة. وهنا أيضا، ولنذكّر بذلك، لو لم يكن ثمة نخبة المرتزقة في العالم الثالث الذين يعملون ضد إرادات شعوبهم، لما كان للأمريكيين أن يتصرفوا بالطريقة التي يتصرفوا بها اليوم. كما أن بداية نهاية هذه النخب تسير جنبا إلى جنب مع بداية انهيار الولايات المتحدة، ذلك أن هناك علاقة عضوية بين النخب الحكومية في العالم الثالث والنظام الأمريكي الحالي، تقوم على تبادل المصالح بين الطرفين، بما أن علة وجود تلك النخب مرتبطة بوجود الولايات المتحدة.

□ **الصحيفة** : كيف يمكن التصريح بهذا التوقع، أي بنهاية الولايات المتحدة، في غضون عشر سنوات في الوقت الذي تتوفر فيه على أسلحة قادرة على الفتك بالأرض عشرات المرات ؟

■ **م. م.** : حين تكون متوفرا على مائة قنبلة ذرية ومنافسك على خمسين منها، تعود الكلمة الأخيرة لذلك الذي يتمكن من الضرب بها قبل الخصم. وحتى اليوم، ثمة خوف كبير من اللجوء إلى هذه القوة لأن كل طرف مقتنع بأن رد فعل الطرف الآخر سيكون مشابها ولا ريب فيه. لهذا يتم التفكير في استعمال قنابل قليلة التدمير كما كان الأمر في أفغانستان وكما سيحدث في العراق إذا ما شاء القدر ذلك. لكن إذا نحن عمقنا التحليل، فإن القوة العسكرية لها حدودها: فحين يكون اللاتوازن صارخا بين القوى العسكرية والمؤهلات

الاقتصادية والسياسية والثقافية، يشكل ذلك خطرا قد يصيب القطاعات الأخرى بالضعف والانهيار. فالقوة العسكرية كانت دائما نتاجا لمستوى التربية والبحث العلمي والثقافي والاقتصادي. من يمول هذه الأنشطة ؟ إنها الشركات المتعددة الجنسية التي تملك الوسائل الكافية للاستثمار في التسلح لأسباب محددة وتبعا لاعتبارات خاصة. وحين يصيب الانهيار مجالا ما، فإنه ينتشر بشكل متصاعد بما أن التفاعل بين القطاعات المختلفة للإنتاج مهما كانت طبيعتها يفرز النتيجة نفسها.

هذا هو ما يدفعنا إلى التفكير في نهوض الصين وبروزها كقوة عسكرية دولية، وفي أن تأخذها الولايات المتحدة جديا بعين الاعتبار لما لها من مؤهلات نامية، إضافة إلى عوامل القوة الاقتصادية كالبترول والطاقة. وذلك هو ما يفسر هذا الهرج والمرج الأمريكي في آسيا الوسطى، لأن الولايات المتحدة تقيس أهمية مراقبة الأسلحة بالمصادر الأساسية للبترول. وهنا نستنبط أسباب الضغط الذي يمارسه الأمريكان على اليابان... فالولايات المتحدة تعرف أن هذه الأمة تعتمد في تطوير اقتصادها على البترول الذي تستورده من الشرق الأوسط، ومن ثم فإن الجانب الأمريكي مقتنع بأن التحكم في المصادر الأصلية للبترول يمكنه من ضبط ومراقبة اقتصاد الدول الناهضة وغيرها من الدول الأخرى ومن ضمنها الدول الأوروبية. إن الأمر يتعلق بالعديد من العوامل المتقاطعة... ومن ثم لا سبيل للحديث عن العدم أو الفراغ السياسي.

الأمر يتعلق أيضا بأشياء قابلة للتحقق، وسيتحدث الناس آنذاك عن نهاية هيمنة دولة ما سنة بعد الانهيار المذكور. فالله وحده خالد. وأعتبر أن بداية هذه النهاية ذات نتائج طيبة في كل المناحي للإنسانية جمعاء، ذلك أن المؤهلات الإنسانية، سواء كانت علمية أو غيرها، الموجودة كبيرة جدا وينبغي على العالم أجمع أن يستفيد منها، فقط ينبغي أن تكون له الحرية التامة في التعبير والاستفادة من التقدم العلمي بطريقة مباشرة لا بواسطة أجهزة المخابرات.

r الصحيفة : كيف تفسرون هذه العزلة شبه الكاملة للولايات المتحدة في محاولتها

الهجوم على العراق، فعدا بريطانيا ترفض كل البلدان الأوروبية الحليفة أو تتحفظ بخصوص العدوان الأمريكي المرتقب على العراق ؟

■ م. م. : الأفضل أن تقول في سؤالك "باستثناء طوني بلير"، بدل "باستثناء بريطانيا"، بما أن آخر استطلاع للرأي في إنجلترا كشف أن الشعب البريطاني يرفض كل تدخل في العراق. ثمة إجماع في أوروبا وفي العالم أجمع، باستثناء الكويت التي اختارت هذه الظرفية الخاصة وبخاصة لتّعبر عن مساندتها للهجمة الإمريكية على العراق، بفتح أراضيها أمام المناورات العسكرية المشتركة استعدادا للعدوان المذكور. فأوروبا وباقي دول العالم واعية بالخطر الذي تمثله الهيمنة الأمريكية. إنها وضعية مشابهة لتلك التي عاشتها أوروبا في الثلاثينيات من القرن الماضي حين بدأت تظهر للعيان السياسات النازية لهتلر. لكن كان ثمة تنازل مكّن ألمانيا من اقتراف ما اقترفته. إننا نعيش مرحلة مشابهة في ظلها يطلب من العالم بأسره أن يستستلم لأمريكا وسياستها...

ضرب العراق ليس غاية في حد ذاته. ففي مقال نشرته "الوال ستريت جورنال" كتب محرره أن الأهم ليس العراق وإنما أيضا الانطلاق نحو إيران وآسيا الوسطى وليبيا وكل البلدان الإسلامية. باختصار فإن الأمور واضحة للعيان : فكما صرحت بذلك من عشر سنوات، يتعلق الأمر ببداية مخطط معقد غايته الوحيدة الهيمنة...

بيد أن الأوروبيين أدركوا أن العلاقة مع الولايات المتحدة بلغت مرحلة حصل فيها نوع من التوازن. كما أنهم أدركوا أيضا أن دور الولايات المتحدة كستار واق لأوروبا الغربية ضد مخاطر أحلاف الناتو لم تعد مشروعة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. كل هذا أصبح في عداد الماضي والأمور بدأت تتوضح. لنأمل أن يستخلص بعض "الحكام" وبعض الأنظمة من العالم الثالث الدروس مما يحدث، وأن يخرجوا منها بالأمور التي يمكنهم أن يجعلوها في صالحهم وصالح شعوبهم بدل أن ينجرّوا كالعميان وراء أمريكا قصد الحفاظ على أنفسهم على رأس بلدانهم. فتسيير بلد ما لا يمكن أن يكون أكيدا وصلبا إلا إذا

كان صادرا عن إجماع حقيقي ونابعا من الديمقراطية الحقيقية لا من التصور الحالي للديمقراطية... ومن المأسوف له حقا أن بعض الدول التي كنا نعتبرها ديمقراطية وحديثة قد دخلت بدورها في دائرة الخوف. وهذا الخوف بدأ يمس بعض التيارات أو ما نسميه عموما المجتمع المدني، الذي غدا بدوره مسكونا بهذا الخوف من "الخطر المحيق" تبعا للإيقاع الأمريكي نفسه. نحن لم نصل بعد إلى التفاعل والتناغم المطلوب بين شعوب العالم الثالث ونخبها، بسبب الأمية المتفشية واستمرار الاستعمار الثقافي. ونحن نعرف جيدا من يمول هذه الحركات الثقافية، كما هو الحال بالمغرب مثلا. لكن هنالك في كل الأحوال والحمد لله جيل جديد في هذه البلدان قد تحرر من هذه المفاهيم البالية.

ظللت دائما أكرر، وذلك في إطار نظرة مستقبلية، أن التشاؤم في المدى القريب يعتبر نقطة انطلاق لتفاؤل على المدى البعيد. وهنا أستشهد بما قاله غرامشي: "علينا أن نعتمد على عقلانية التشاؤم وتفاؤل الإرادة. فمن اللازم الإيمان دوما بالإمكانات الإنسانية".

r **الصحيفة** : تبعا لهذا المنطق نفسه، ألا يمكن حدوث نوع من اليقظة لدى النخبة المتنورة الولايات المتحدة، إذا ما نحن اعتبرنا أن الدولة الأمريكية ليست فقط إدارة بوش والمصالح التي تقف وراءها، وإنما أيضا النخب المتكونة من المفكرين والأدباء والعلماء الواعية باللحظة الحضارية والإنسانية، والتي تكون من ثم قادرة على ممارسة الضغوط لتحقيق التغيير في مجريات الأمور في المجالين الداخلي والخارجي ؟

■ م. م. : إن شخصا مثلي عاش لمدة عشر سنوات في الولايات المتحدة، وتابع فيها دراسته في الحقوق، ويدين لهذا البلد بما تعلمه (فقد كنت أول أجنبي ينتخب رئيسا للشبيبة الديمقراطية)، شخصا مثلي كان شديد القرب من المجتمع الأمريكي يعلم جيدا أنه من غير المقبول أن يظل الشعب الأمريكي، الذي بلغ شأوا كبيرا، في مجالات الثقافة والحضارة والعلم والمعرفة، سجين مخطط نخبة لها مصالح بترولية أو صناعية. أقول هذا لأني كنت شاهدا على مرحلة تاريخية

في مسار الشعب الأمريكي، حين كنت طالبا بالجامعة في مرحلة الماكارتية، وعندما كنا نخاف من كل ما كان شيوعيا خشية أن نتعرض للمحاكمة كما هو الحال اليوم مع يافطة الإرهاب. بيد أن الشعب الأمريكي انتفض وشطب الخوف من الشيوعية حين أدرك بأن كل شيء كان مفتعلا. ثم كان الانطلاق من جديد، بطريقة أقوى بحيث كان في صلب النموذج الجديد والنمط الجديد من الديمقراطية. كان ذلك كما يقول المثل "بعد العاصفة يصفو الجو". كان هناك خطر حين كان 80 بالمائة من الشعب الأمريكي مع سياسة التطهير الماكارتية، بحيث كنا نخال ذلك بداية الفاشية. ففي كل بلد حين يحصل إجماع يتجاوز 55 بالمائة حول فكرة، يكون ذلك مؤشراً للدكتاتورية.

والإجماع الراهن للشعب الأمريكي يبرره أثر الأحداث التي عرفتها نيويورك في 11 شتنبر 2001. إنه أثر عارض تتضاءل حدته تدريجيا. ونحن نرى أن شعبية جورج بوش تتراجع بشكل ملموس وهي الآن تحت الـ 60 بالمائة. ومع الوقت سيستمر التراجع، غير أن بوش يحاول استغلال الحدث بشكل مبالغ فيه، وفي ذلك شطط كما هو الحال اليوم، وهذا ما يفضي إلى نتائج معاكسة. وأنا أتمنى صادقا، كما عبرت عن ذلك في سؤالك، أن تحدث صحوة للنخبة المتنورة، لأن أمريكا تتضمن إمكانيات ثقافية وفكرية هائلة. وأقسى الانتقادات للسياسة الخارجية الأمريكية صدرت عن مثقفين كشومسكي وفالانتين وهو مؤلف نص جيد عما يقع حاليا... مع ذلك علينا أن نشدد على وجود نوع من التفاؤل والاعتقاد في الكائن الإنساني بصفة عامة سواء في الهند أو في أوروبا أو في مكان آخر، في مجموع المعمور وليس فقط في الولايات المتحدة، وكما رددت ذلك دوما، فالتعدد الثقافي أمر جوهري. وهذا التنوع يلزم أن يكون أرضية من أجل التواصل بين بني البشر والحوار بين الحضارات القائم على الثقة المتبادلة. وإذا كان الشك والحذر يتغلغل ويؤثر في القرارات، فذلك بداية انهيار كل شيء من الحضارة إلى الاقتصاد إلى المحبة... بيد أن ثمة إحساسا ينبئ ببداية الفهم المتبادل، والتفاهم المنتظر يبرره ظهور بريق الأمل من أجل مستقبل أفضل للبشرية.

2

القمع الخفي، ما بعد الاستعمار(*)

□ ك. ن. : أياما بعد أحداث 11 شتنبر كثر الحديث عن صدام الحضارات. أنتم تفضلون بالأحرى مصطلح الحرب الحضارية، هل لكم أن توضحوا لنا الاختلاف بين التسميتين ؟

■ م. م. : لا يتعلق الأمر بتفضيل، وإنما بتسلسل زمني. كان هانتنغتون هو الذي تبنى مفهوم "صدام الحضارات" في مقالة صدرت في أبريل 1993. وقبل ذلك، كنت قد استعملت تعبير "الحرب الحضارية" في حوار مع المجلة الألمانية "دير شبيغل" يوم 15 فبراير 1991 التي جعلت منه عنوانا على صدر غلافها المخصص لحرب الخليج.

وقد قلت حينها بالحرف : "هذه هي الحرب الحضارية الأولى". ليس لي إذن أن أقارن نفسي بهانتنغتون لأن أطروحاتنا ليست متماثلة. فأطروحتي "استشرافية" أما أطروحته فـ"توجيهية".

ومن خلال وظائفي الدولية خلال 20 سنة كنت خلالها مكلفا بالثقافة عبر العالم، أدركت أن المصدر الأساس للنزاعات يوجد على مستوى أنظمة القيم الثقافية. ويمكن تلخيص مقاربتي على الشكل التالي: "إذا أنت لم تنتبه للقيم الثقافية، فسيقودك ذلك نحو النزاع". أطروحتي تتغيأ استباق الأمور لتفادي النزاعات، على عكس هانتنغتون الذي يعتبر أن البذرة الوراثية للعنف توجد في الحضارات.

(*) وكالة الأنباء اليابانية كيودو نيوز طوكيو، 14 يوليوز 2002.

في نظري تشكل الثقافات أساس وعماد السلام والبذرة الوراثية للسلام. ليس ثمة من ثقافة تولد أصلا عدوانية أو لتصارع ثقافة أخرى. وقد علمنا التاريخ بأن ثقافة ما حين تأخذ مقاليد السلطة تسعى إلى فرض نظام قيمها على ما عداها. وهنا يكمن موطن النزاع. لكن إذا ما تم احترام القواعد الأساس للتواصل الثقافي والتنوع، فأنا أعتقد بأن أسباب النزاعات ستقل.

ك. ن. : ما الذي يمثله في نظركم ما يسميه الأمريكيون : الحرب ضد الإرهاب ؟

■ م. م. : ما معنى كلمة "إرهاب" ؟ لقد تم استعمال هذه الكلمة لأول مرة (بمعنى الرعب) سنة 1790 بعد الثورة الفرنسية، عند نهاية مرحلة روبسبيير. فقد عاشت فرنسا ما كان يسمى سنوات الرعب.

ولم يتم استعمالها مجددا بالمعنى الذي نعرفه اليوم إلا في العشرينات من القرن الماضي أثناء أحداث البلقان حيث تم استعمال "الرعب" والاغتيالات لأغراض سياسية. الإرهاب إذن مفهوم حديث العهد في العلوم السياسية.

من جهة أخرى، إذا استعملتُ عبارة الإرهاب وقبلتُ بلا نقاش ما يحشو به الأمريكيون هذه العبارة فإنني سأكون قد أرعبتك وأرهبتك دلاليا. وهذا يعني أن ثمة اليوم إرهاب دلالي، يتم استخدامه بقوة في وسائل الإعلام. ففي جيلي، كانت كلمة الإرهاب تستعمل من قبَل المستعمرين ضد أولئك الذين كانوا يدافعون عن الحرية، خاصة بالمغرب والجزائر. وحين كنت أنعت بـ"الإرهابي" كان ذلك مصدر فخر لي ذلك أنه كان يعني أنني كنت أدافع عن الحرية وأنني كنت أحارب الإمبريالية والظلم والتفاوتات الاجتماعية.

أكيد أنه من الضروري اليوم محاربة العنف، لكن علينا بالأخص محاربة جذوره وأصوله، وأنا أعني هنا الظروف التي يعيش فيها اللاجئون الفلسطينيون منذ 40 سنة كشعب من بين الشعوب الأخرى. فالإرهاب بالمعنى الشمولي غير موجود. ثمة العنف وأخطر منه يوجد "إرهاب الدولة". وإلى متى يعود إرهاب الدولة ؟

يعود ذلك إلى 1955 مع أحمد بن بلة وأعضاء من جبهة التحرير الجزائرية،

حين كانوا مدعوين من طرف محمد الخامس ملك المغرب سنة 1955، وتم تحويل طائرتهم في السماء ووضعهم في سجون فرنسا لمدة معينة. ويعتبر ما حدث للفيتنام، مثله مثل باقي الحروب ضد حركات التحرر الوطني، نموذجا جليا لـ "إرهاب الدولة". كما أن العدوان على العراق وفلسطين والبوسنة في السنين الأخيرة من الطبيعة نفسها.

وإذا كانت أشكال العنف التي تنتشر عبر العالم تدعو إلى الأسف، فإن هذا النوع من العنف له رغم ذلك جذور وأسباب وعلل. فحين نرى التفاوتات وأنواع الظلم، علينا أن ننتظر حدوث التوترات وأعمال العنف. وعلينا إذن أن نتجه إلى المصادر لننظر في أسباب التفاوت والظلم والمهانة.

□ ك. ن. : هذه الحرب التي اندلعت بسبب أحداث 11 شتنبر، متى ستنتهي ومن سيخرج منها منتصرا ؟

■ م. م. : ماذا نعني بما قبل وما بعد 11 شتنبر؟ الأمر يبدو كما لو أن جل تاريخ البشرية قد تغير وكما لو أننا نعيش ما قبل وما بعد ميلاد المسيح. خلفت الأحداث ألفي قتيل في نيويورك، لكن سقط في العالم الإسلامي عشرة ملايين قتيل في العقد الأخير، في السودان والجزائر والعراق والشيشان والصين وغيرها. وحسب دراسة لباحث ياباني، خلفت الحروب الصليبية الثمان مائة ألف قتيل.

في حال أحداث نيويورك، قيل إن عدد القتلى من 5 آلاف إلى 6 آلاف، ثم نزل الرقم إلى ألفي قتيل. وفي نظري، سواء تعلق الأمر بقتيل واحد أو بعشرة ملايين، فالأمر سيان، إذ يتعلق الأمر بالنفس الإنسانية. من الخاسر؟ رغم كل شيء فعدد القتلى المسلمين خلال عقد واحد من الزمن أكثر بـ 5000 مرة قتلى نيويورك. الخاسر هو الحضارة والثقافة والكرامة الإنسانية والتربية والقدرة على التحكم في المجتمع وتطوراته بمدها وجزرها والقدرة على التواصل. فكلما حدث نزاع، فإن ذلك يعني أن خيط التواصل انقطع، وكلما انقطع حبل

التواصل تكون العواقب وخيمة.

الغرب متغطرس ثقافيا لأن فضاءه الزمني في التاريخ محدود. حين تذهب إلى العراق أو إلى الصين أو إلى أمريكا الجنوبية، ثمة ثقافة متجذرة ومتطورة. في الولايات المتحدة تجد بالمقابل الأكلات السريعة (الفاست فود). إن التقدم العلمي لا يعني آليا امتلاك ثقافة التواصل مع الآخر.

أنا أعتقد أن العالم يعيش حالة انفجار، وهنا أعود لتعبير "الانتفاضة". فالانتفاضة انفجار يحدث حين يبلغ السيل الزبى. ثمة ظلم هائل في العالم، ومن اللازم إيجاد الحلول كي يكون كل الناس رابحين وكي لا يكون هناك خاسر.

□ ك. ن. : ما الذي حدث في أمريكا حتى يساند 07 بالمائة من الأمريكيين هذه الحرب؟

■ م. م. : إذا ما نحن أخذنا فترة ماكارثي، سنجد أن مقاربة البيت الأبيض والكونغرس في تلك الآونة تعيد إنتاج الشيء نفسه بخصوص موضوع استغلال الخوف. ثم أنه، كان هناك توازن عالمي ولم يقع أبدا ما حدث في شتنبر حيث انهارت لأول مرة القوة المعصومة للولايات المتحدة.

بين ليلة وضحاها عاشت كل هذه البنية القوية تحولا سيكولوجيا وسياسيا واقتصاديا وتحولت إلى نظام جديد للاتسامح والفاشية الجديدة. تحدثتم عن مساندة 70 بالمائة من الأمريكيين للحرب. في الواقع حين نتجاوز في بلد ما نسبة 55 في المائة يكون ذلك بداية للفاشية. فالديموقراطية هي أولا توازن بين الآراء المتباينة. وحين يتفجر هذا التوازن تماما ولا يبقى منه إلا القليل يعم الخوف.

هناك إذن هذا الخوف. لنذهب لمعاينة ما يقع لأغلبية الأجانب المقيمين في الولايات المتحدة، خاصة إذا كان من حظهم العاثر أن يكونوا مسلمين أو عربا أو الحظ الأكثر سوءا أن يكونوا الاثنين معا. وإذا ما كانوا سودا ومسلمين وعربا

فإن في ذلك نهاية أجلهم. أعتقد أن الولايات المتحدة تلعب ورقتها الأخيرة باعتبارها قوة عظمى. ففي دجنبر 1999، قبل أحداث نيويورك، قال الرئيس الأمريكي كلينتون: "ليس من الممكن أن نظل القوة الاقتصادية العالمية الأولى في غضون العشر سنوات أو العقود المقبلة . فالصين ستحقق تقدما ساحقا علينا وسيأتي دور الهند ثم اليابان...". أعتقد أن كلينتون كان يرغب في أن يقول للأمريكيين: "علينا أن نستعد من الآن لكي لا نكون ما نحن عليه اليوم". لكن ما يشكل مصدر قلق في نظري هو ما يمكننا نعته بالإرهاب العلمي في الولايات المتحدة، مع ملايير الدولارات التي منحت للجيش وللتسلح وللبحث العسكري. هذه العسكرة للبحث العلمي وللعقول ووسائل الإعلام هي ما يشكل مصدر توجسنا ومخاوفنا الكبرى.

□ ك. ن. : هل ستصبح الولايات المتحدة إذن قوة استعمارية كما كان حال إسبانيا والبرتغال ؟

■ م. م. : الولايات المتحدة قوة استعمارية من زمان وهي ظلت دائما كذلك. بيد أنها ستصبح بلدا متواضعا لها ماض استعماري مثلها مثل إسبانيا أو البرتغال....إنها في مرحلة انتقالية، وكما هو الأمر دائما في مرحلة التحولات، فالأمر يبدو عسيرا وشاقا. وأنا أعتقد أن ما يحدث اليوم هو أن الولايات المتحدة الأمريكية تتلقى بشكل مباشر أو غير مباشر درسا في التواضع.

وحين ستتخلى عن عجرفتها لن تقول ما قالته أولبرايت سنة 1999 : "نحن الأمة الضرورية للكل... فنحن في العلياء ونرى أبعد من الآخرين". مع ذلك، علينا أن نحافظ على روح نقادة ومتفائلة لأننا لا يمكننا العيش من دون أمل.

□ ك. ن. : أن يستطيع الأمريكيون شن حرب من غير أن يكون من بين جنودهم ضحايا، هل غيَّر ذلك من طبيعة الحرب ؟

■ م. م. : نعم، أولا لأن التكنولوجيا غيرت من طبيعتها. ودرس الفيتنام بليغ

في هذا المضمار، لأنه أبرز وزن وسائل الإعلام ودورها في تحديد مصير الحروب. ثمة تقدم تكنولوجي حاصل، لكن هناك أيضا تلك الحروب القرْبية التي يوضع فيها الآخرون في حرب يتم التحكم فيها عن بعد.

ما فحوى حرب أفغانستان ؟ إنهم الطالبان الذين تمولهم المخابرات الأمريكية كي يبنوا المغاور والأنفاق لمحاربة الاتحاد السوفياتي، والذين جاء هؤلاء الأمريكان أنفسهم للقضاء عليهم فيما بعد. الحروب القرْبية تتمثل في كون الآخرين يحاربون من أجل أفكارك ولكن بالتقاتل فيما بينهم. في الوقت نفسه، تغيرت الحروب، بحيث أصبحت حروب إعلام ومخابرات.

وأنا أعتقد أننا اليوم بصدد أزمة من ثلاثة أبعاد. فثمة أزمة الجميل والجمالي، وليس لياباني مثلك أن يُفسِّر معنى الجميل. والأزمة الثانية أزمة حلم لأن الحلم شيء جوهري في حياة الإنسان. فبدون الحلم ليس ثمة من خيال ولا من إبداع. فقد تحول هذا الحلم اليوم إلى كابوس. والبعد الثالث للأزمة ذو طابع حضاري. لا أستطيع أن أدلك على مصدر الحلول غير أني أظل متفائلا. فقد قال غرامشي بأن علينا أن نمتلك "تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة".

□ ك. ن. : ما يقع في فلسطين، أليس عنف القوى العظمى التي تنادي إلى العنف؟ هل يتعلق الأمر بنموذج أمريكي مصغّر ؟

■ م. م. : أفضّل بالأحرى صياغة الجزء الأخير من سؤالك على الجزء الأول، لأنك في الأولى تقول بأن العنف يولد العنف. لكن من كان البادئ؟ إن الخطأ والظلم الحاصل هو أن الكل في الغرب وفي الأمم المتحدة يضع في الواجهة ما يسمى عنف الدفاع والحجر والفتاة ذات الستة عشر ربيعا التي تضحي بنفسها، بجانب عنف طائرات ف 16 والمجنزرات... إنه استنساخ النموذج الأمريكي. وشارون والجيش الإسرائيلي يؤكد ذلك كل يوم.

نعم، العنف يولد العنف، غير أن العنف الأول هو عنف الظلم، عنف ذلك

الذي بدأ. وفي صبرا وشاتيلا ليس الفلسطينيون هم البادئون. ليس هناك من شعب عانى ما عاناه الشعب الفلسطيني. ولهذا السبب أعتقد بأن القضية الفلسطينية لا تهم الفلسطينيين وحدهم. فباعتباري مغربيا وعربيا ومسلما وإفريقيا، بل باعتباري فقط كائنا إنسانيا، لن أعتبر نفسي أبدا حرا ما دامت فلسطين محتلة، وما دام هؤلاء الناس لم يسترجعوا كرامتهم.

ففلسطين تمثل الظلم المتراكم للمرحلة ما بعد الاستعمارية، وظلم كل المهيمنين في الماضي. وحين يقف مسؤولو بلد مثل الولايات المتحدة ويصرحون : "عليكم إيقاف العنف"، فهم لا يقولون أي عنف يعنون. إنهم يمولون بأكثر من ثلاثة مليار دولار سنويا بلدا مدججا بالأسلحة يمارس إرهاب الدولة، ويطالبون بالمقابل من تلك الفتاة اليائسة عوض أن ترمي بنفسها من النافذة أن ترمي بنفسها على الأقل بالقيام بعمل تؤمن به.

يسمون ذلك إرهابا والعمل الآخر لا يسمونه، بل تتم ملاحظته أو تسميته بالدفاع الذاتي. إن هذا اللاتكافؤ يخلق تشوها يشجع بدوره على ما يسمى "تطرفا" و"عصبية". حين ندرس العالم العربي في القرن العشرين، بل حتى العالم الثالث، نقف على الطريقة التي استغلت بها القوى الاستعمارية الدين. وإذا ما أخذنا مثال المغرب في نهاية القرن 19 ،كانت هناك حركة تحديثية سلفية جاءت لتقول بأن الإسلام ديانة دينامية، أي أن ثمة أشياء لا تتغير، لكن ثمة أيضا مرونة كبرى تشجع على التأقلم مع متغيرات العالم.

هذه الحركة هي التي نشرت الرغبة في حقوق الإنسان، وسن الدساتير، وإقامة علاقات متكافئة بين السلطة والجماهير والصراع ضد الإمبريالية والاستعمار.فبدون الإسلام لم يكن من الممكن التحرر من ربقة الاستعمار. هذا الإسلام التحريري الذي كان سائدا في كل الحركات الوطنية لم يكن يترجم قضية ديانة وإنما قضية ثقافة للتحرير.

مع حلول فجر الاستقلال، بدأ الذين استولوا على الحكم في الخوف من

هذا الإسلام، ذلك أنهم أخذوا السلطة لا للتحرير وإنما كي يبقوا متربعين عليها. وهكذا أصبح الإسلام التحريري خطرا عليهم هم أنفسهم كما كان خطرا في المرحلة الاستعمارية. من ثم، بدأت تلك الأنظمة في إنشاء وتشجيع حركات وطوائف وتقاليد معينة، أي ذلك الإسلام المنغلق الذي لم يكن يوجد على أرض الواقع. ولكن غالبا ما ننسى أن الإسلام محرر وتحريري.

□ ك. ن. : بخصوص العراق، هل تعتقدون في احتمال تدخل أمريكي؟

■ م. م. : لن تكون بالتأكيد حربا من قبيل تلك التي شنت ضد أفغانستان. وأعتقد أنهم بالغوا في تصريحاتهم. وفي هذا السياق أذكر بأن أكبر حلفاء إسرائيل والإمبريالية هي الحكومات العربية، والأنظمة العربية ... وهذا أمر تعرفه الجماهير العربية.

□ ك. ن. : تعتبرون أن الحرب الحضارية الأولى هي تلك التي شنها بوش الأب في الكويت لحماية نمط العيش الأمريكي. هل تعتقدون أن هناك استمرارا لتلك السياسة مع حكم بوش الابن ؟

■ م. م. : أعتقد أن ثمة استمرارا. فقد صرح جورج بوش الأب في 15 غشت 1991 : "إن مناصب شغلنا وطريقة عيشنا وحريتنا ومعها حرية البلدان الصديقة عبر العالم ستعاني الأمرّين إذا ما سقط أكبر احتياطي للبترول في العالم في يد صدام حسين". والابن يقوم تقريبا بالشيء نفسه. فبوش الأب لا يتحدث فقط عن نمط العيش الأمريكي، إنه أيضا الناطق باسم حرية البلدان الصديقة عبر العالم. والبترول لا ينظر إليه باعتباره مادة خاما اقتصادية وإنما بالعلاقة مع أسلوب حياة معين. وحين نقول أسلوب حياة فإننا نعني القيم، أي أننا يمكن أن نمس كل شيء إلا القيم.

وما قلته بصدد العراق كررته بخصوص قضية الحرب بأفغانستان. ففي النهاية من اللازم للولايات المتحدة أن تخلق وتحافظ على وضعية النزاع التي

يتمكن من خلالها الكثير من الناس من الحكم والسيادة، سواء أولئك الذين يمتلكون الأموال الطائلة أو أولئك الذين يتاجرون في السلاح.

وهذه الحروب تقريبا مطلوبة من قبَل سوق معينة في وقت معين، لمواجهة أزمات معينة، باعتبار أنها تساهم في النماء الاقتصادي وتخفف من التردد في الاستثمار في الميزانيات العسكرية. فالمركب العسكري الصناعي يتحرك بكامله وتجار الأسلحة يربحون الصفقة تلو الأخرى. وعلينا ألا ننسى أن الولايات المتحدة تبيع ما يقارب 70 بالمائة من الأسلحة عبر العالم.

□ ك. ن. : والعولمة، هل تعتقدون أنها في أصل أحداث ١١ شتنبر؟ وإلا لماذا هوجم المركز التجاري العالمي باعتباره رمزا للقوة الاقتصادية الأمريكية ؟

■ م. م. : إذا ما قلت لي بدقة من هم فسأحاول أن أجيبك. ولا أستطيع الإجابة بغير ذلك. من ناحية أخرى لا أستطيع القول بأن ظواهر كهذه يمكن تفسيرها بسبب واحد. الحياة معقدة، والمجتمع مركب والسلوكات أكثر تركيبا وأعقد.

أعتقد أن العولمة بذاتها ليست سببا، فهي نتيجة لسياسة ما بعد استعمارية كاملة هي بنفسها ظاهرة صرفة للاستلاب الثقافي، باعتبار أنها كانت وراء العديد من مظاهر اللاتكافؤ والظلم. لقد أغنت العولمة الغني وأفقرت الفقير في كل بلدان العالم. وليس من المدهش أن أكثر ردود الفعل عنفا ضد العولمة صادرة عن جماهير البلدان الأكثر تطورا.

العولمة خلقت شكلا جديدا من العجرفة. فثمة الكثير من الأسباب والعلل المتصلة بالظلم الذي يمارسه أناس مستعدون للقيام بأي شيء سواء في الولايات المتحدة أو في غيرها من البلدان. العولمة نتيجة، وليست فقط سببا في المشاكل التي نعيشها على المستوى العالمي.

□ ك. ن. : ما الذي يمثله في نظركم أسامة بن لادن ؟

■ م. م. : أنا لا أعرفه. إنه مهم كظاهرة إعلامية، لكنه في نظري الشخص الذي ألحق الضرر بالتصور الواقعي والسني والسلفي للإسلام.

إنه ممثل للمذهب الوهابي، لكن الحركة السلفية في نهاية القرن 19 التي حدثتك عنها وباقي الحركات الإسلامية للتحرير الإسلامي كانت ضد الوهابية التي تطبق الإسلام بصرامة تمليها بيئة العربية السعودية.

وفي نهاية المطاف، لا يمكننا أن نحكم على الأحداث من خلال شخص واحد. أنا أظن أن لا وجود في تاريخ البشرية لشخص هو أهم من الشعوب التي يعتبر نتاجا لها. فالأفراد هم أعراض للتاريخ ويمكنهم أن يتركوا ميسمهم عليه بطريقة أو بأخرى.

□ ك. ن. : تعنون أن الصرامة العلمية، وخاصة في مجال الصحافة، تبدأ بمعرفة عمَّ يتحدث المرء ؟

■ م. م. : لنلاحظ أن كل الناس سعوا إلى البرهنة على تعاطفهم مع الولايات المتحدة من خلال الخوف. وأنا لا أتوقع أقل أسى في حق أولئك العشرة ملايين من المسلمين الذين لقوا حتفهم في عشر سنوات فقط. وما نسميه : "القوة المرنة" يتمثل في القدرة على تغيير الناس وتحويل سلوكاتهم من غير القيام بأي شيء، عدا وسائل الترفيه من خلال قناة "س.ن.ن" ووسائل الإعلام الأخرى وعبر التكرار اللانهائي للدعاية نفسها.

□ ك. ن. : يعتقد بعض المثقفين الأنجلوساكسونيين أن الاستعمار الجديد هو الحل لضمان استقرار العالم بعد 11 شتنبر. ما وجه الخطورة في وجهة النظر هذه ؟

■ م. م. : أعتبر صراحة أنه من الخطورة بمكان طرح القضية بهذه الطريقة، فهذا يعني ضمنيا أن الحل يكمن في ذلك. وفي الواقع، فبطرح قضية من ذلك القبيل، نمنحها بداية المصداقية. فقد كنت أول من استعمل مصطلحي "الحرب الحضارية" و"الحرب ما بعد الاستعمارية". وما بعد الاستعمار كما أحدده بسيط للغاية، إذ يتعلق الأمر بكل بساطة بالاستمرارية في ما كان يمارس قبلا لا في مستوى الأهداف فقط وإنما أيضا بوسائل مختلفة.

كان في المغرب فيما مضى 700 ألف جندي فرنسي، ومعهم مراقبون مدنيون، وجيوش ورجال أمن ونظام حكومة بكامله. وفي المغرب المستقل، لم تعد فرنسا بحاجة لجيوشها، فكل شيء تم كما لو أن أولئك الذي رحلوا عن المغرب تركوا أشخاصا للتحكم باسمهم في مجريات الأمور.

ولم يعد من اللازم إرسال الجنود، ولا إرسال عناصر المخابرات، ذلك أن مصالح المخابرات المحلية تقوم بالعمل نفسه، وحتى في مستوى المثقفين تم تكوين نخبة مستلبة. وأنا لا أفكر في الإجابة على هذا السؤال. والأمر الجلي في ما بعد الاستعمار هو أن الناس في بلدان العالم الثالث اكتشفوا أنه ليس ثمة من استقلال لبلدانهم. فلم يكن هناك من تحرر في العالم العربي، ولا بلد في العالم وفي العالم العربي أو في إفريقيا يتمتع باستقلاله.

□ ك. ن. : تحددون السلام باعتباره تواصلا ثقافياً، هل لكم أن تفسروا لنا ذلك؟

■ م. م. : في نظرية التواصل تنتقل الرسالة من نقطة معينة إلى نقطة معينة أخرى. وبين النقطتين تحدث تداخلات تتمثل في ما يسمى "بالمشوّشات" التي تضعف صفاء التواصل. ويمكن للتواصل الثقافي أن يحد من هذه التداخلات والتشويش في العلاقات بين المجتمعات وبين الشعوب.

ونحن على علم بهذه الظواهر في مستوى الحوار بين الأفراد، غير أن هذا التواصل الثقافي بين الأمم يتطلب أولا قدرا كافيا من المعرفة. فالغرب الذي يمتلك 70 إلى 80 بالمائة من الاقتصاد العالمي لا يحوز على المعرفة الملائمة للجماهير التي تمثل ثلثي العالم. فالتواصل الثقافي هو بدءا المجهود المبذول في السير نحو الآخر، علما بأن الكل في التواصل الثقافي يمكن أن يكون رابحا. ولتحقيق ذلك من اللازم القيام بتصحيح ارتجاعي.

وهذا التواصل الثقافي يلزمه أن يمر بدءا عبر محو الأمية الثقافية. وإذا ما أنت قرأت الصفحات الأولى للجرائد التي تتحدث عن الإسلام، وعن "الرعب الإسلامي" وعن "الإرهاب الإسلامي" و"التعصب الأخضر" فستكتشف درجة

التشويه التي يمارسها نوع من الصحافة. الأمر يتعلق في نهاية الأمر بمليار ونصف من البشر على وجه البسيطة وبالديانة الأولى في العالم. فالبوذية نفسها لا تصل المليار من الأتباع، وفي اليابان هناك الكثير من المسيحيين وفي غيره هناك أيضا الكثير من المسيحيين، وفهمهم قضية تتعلق بالتواصل الثقافي.

وأول شيء مطلوب هو التعليم، وهو الصورة التي عليها نظهر للآخرين. للأسف فمشكل التواصل الثقافي هو أنه يتطلب عملا وجهدا على المدى الطويل. والذين يحكموننا كما أولئك الذين يسيرون الأمم المتحدة لهم نظرة قصيرة المدى. التواصل الثقافي عمل استشرافي ومستقبلي طويل النفس.

□ ك. ن. : هل شاركتم في معركة استقلال المغرب؟

■ م. م. : في سنة 1948، وكنت وقتها ابن الخامسة عشرة، كانت لي مشادّة مع عميد للشرطة لأنه نعت أحد المغاربة بالعربي العفن. وحين أبديت رد فعلي اقتادوني إلى السجن وزجوني فيه لمدة شهر. ولهذا السبب أرسلني أبي إلى الولايات المتحدة، لأنني رُفضت في الكثير من المدارس، لا لأنني كنت كسولا ولكن لأني كنت أقف ضد الأساتذة حين كانوا يمارسون علينا الدعاية الاستعمارية.

بين 1951و1954، حين كنت طالبا بالولايات المتحدة، كنت أتعاون مع مكاتب حركات تحرير المغرب والجزائر وغينيا، وبين 1951 و52 اشتغلت مع المكتب المغربي. كان الأمر يتعلق في نظري بقضية واحدة وحيدة تتمثل في محاربة الاستعمار. وتلك كانت غاية آلاف الشباب عبر العالم. ومن ثم ينبع حس المرارة والحرمان الأكيد حين بدأ الأمر يتعلق بالتفاوض حول الاستقلالات المزعومة.

المناضلون الحقيقيون من أجل التحرر لم يبدأوا بعد، ربما كان منطلقهم فلسطين ليمتد إلى ما عداها. وسيكون ثمة حروب أخرى بسبب فلسطين.

3

الحرب الحضارية الثانية(*)

"ستكون هناك حرب أخرى، حرب حضارية ثانية"، هكذا صرحت في 17 شتنبر 2001 لإذاعة فرنسا الدولية. واليوم أقول "نعم، إن الحرب الحضارية الثانية قد بدأت". ما معنى الحرب الحضارية الثانية ؟ ومتى ستستوعب ظروف وملابسات وأبعاد هذه الحرب وكذا الميكانيزمات والآلية المرتكن إليها في شنها ؟

كثيرة هي أقوال الشعوب التي صنفها التاريخ ضمن خانة الحكمة، لقدرة هذه الأقوال التعبيرية والنافذة عبر العصور في مخزوننا الشعبي نجده مثلا يجمل الوضع القائم حاليا : "علمتو الخفة خرجني وشد الدفة". هذا هو التاريخ في جميع الحضارات التي يتجاوز فيها المتعلم المعلم، إذ يحس الأستاذ بالغبطة والسرور إذا تجاوزه طلبته في معدلات العلم والمعرفة.

لماذا أوردنا هذا المثل ؟ لأن "بن لادن" هو واحد من تلامذة المخابرات الأمريكية C.I.A، تمت تربيته، وتمويله أثناء المواجهة مع الروس في أفغانستان (الحرب الأفغانية / السوفياتية)، لكن وبعد انقضاء حاجتهم به، أضحى "أسامة بن لادن" يسلك مسالك : اللي جاب عصا كياكل بها".

قلت لقد بلغنا اليوم تأثير الحرب الحضارية الأولى، وأضحت أهداف نشوبها وآثارها بادية للعيان، والحرب الحضارية الثانية بدورها لن يستوعب مفهومها إلا بعد مضي عشر سنوات وأكثر. فالتحولات لا تلمس إلا بعد مرور

(*) الصحيفة، العدد 33، 28 شتنبر 2001.

فترة زمنية طويلة، وما شهده العالم خلال "الحرب الحضارية الأولى"[1] من احتكارية للقوة الأحادية وسيطرتها على العالم، سينتهي. وبعد ثلاث أو أربع سنوات سنعرف ميلاد عالم تعددي في ظل التحول من عصر المعلومات إلى عصر المخابرات وعصر التجسس بالوسائل التقليدية المعروفة بـ "البياعة" عندنا في المغرب.

لم يحدث في التاريخ أن كانت الإشاعة أساسا تبنى عليها الأمور، إذ لحد الساعة لم يقدم "جورج ولكر بوش" دليلا قاطعا[2] يبرهن من خلاله ضلوع "بن لادن" فيما حدث. والخطر الكامن الذي عرته هذه الأحداث، ليس هو كلمة إرهاب فحسب، بل هو الخوف الجاثم في أجواء المناخ الدولي الذي أصبحت تتخذ فيه القرارات بطريقة عشوائية وبدون أي معلومات أو معرفة. ويشترط عليك إما أن تكون "ضدي أو معي"، وهذا هو الخطر الحقيقي. فأثناء الحرب الحضارية الأولى كنا إزاء ديكتاتورية ما بعد استعمارية، أما ما نحياه في المرحلة الثانية (المرحلة الحالية)، فيمكن نعته بالفاشية الجديدة، فاشية تحالفية دولية، تستفيد منها حكومات وأنظمة دول العالم الثالث كوسيلة إضافية لبقائها في الحكم جاثمة على أنفاس شعوبها.

وهذا ما يفسر مواقف الدول العربية المتهافتة لتقديم الدعم لأمريكا، هذه الدول، التي لم تزدد الفجوة بينها وبين شعوبها إلا ترسخا واتساعا.

هنا نتوقف لنتساءل : أين ذاك المليون من البشر الذي جاب سنة 1991 شوارع الرباط الرئيسية احتجاجا وتنديدا بما وقع حينها من حرب ضد العراق ؟ أين نحن من غليان الشارع العربي ؟ أين ذهبت جمعيات المجتمع المدني ؟

إنه الخوف، لقد دخلنا فيما أسميته في كتابي الأخير (انتفاضات في زمن الذلقراطية)، بالخوفقراطية... لم تعد الخوفقراطية محصورة داخل بلدان

(1) المهدي المنجرة، عيون، الدار البيضاء، 1991.

(2) Lowell Bergman, Don Van Natta, New York Times, 25 September 2001.

الجنوب، بل أضحت عنصرا من عناصر العلاقات الدولية السائدة. ولا يمكن، في تصوري، تفسير أي شيء في العلاقات الدولية إلا في إطار "الخوف" الذي أضحى مرجع التغيير الأساسي.

في العمران الإسلامي نجد عبارة بليغة جدا... عبارة "لا غالب إلا الله". لعقود خلت ظنت الولايات المتحدة الأمريكية أنها محصنة ومحمية وفي منآى عن كل هزيمة، إلى أن ترسخ في مخيالها ذي الطابع الأسطوري أنه يستحيل زعزعة العملاق من أعلى عرشه. لكن ما حدث في بضع دقائق كبد أمريكا مئات الملايير من الدولارات، بالإضافة إلى تصدع تلك الصورة المتعجرفة والمتغطرسة لقوي ظن أنه لن يقهر أبدا.

وأعتقد جازما أن تمسك الولايات المتحدة الأمريكية، باتهام "بن لادن"، هي عملية بدائية من الناحية العسكرية والاستراتيجية، فهم واعون بأن أحد الآليات "لقولبة" الرأي العام إنما تكمن في تشخيص الأشياء. فإذا ما أشرت بأصبعك لإيديولوجيا أو سياسة ما، فإنك لن تجني حتما الثمار المرجوة من ذلك، وهو ما يصطلح عليه في علم النفس بـ "la fixation" ومفاده أن تسليط الضوء على شخص ما يخلق لدى الناس نوعا من النظر الموجه والمركز يلعب الإعلام بداخل ذلك دورا رهيبا وبالغ الخطورة.

وللأسف فالإعلام العربي تبنى السيناريو الأمريكي بكل حيثياته وخلفياته، فالصحافة ببلادنا مثلا سيما تلك التي تتميز بتوجهها الفرنكفوني، دخلت في لعبة "الحرب الجديدة"، من خلال مواقف مسبقة وأفكار جاهزة. وإذا ما قارنا بين صحيفتين واحدة عربية وأخرى فرنسية تنتميان لنفس الحزب، فسنجد تباينا يزج بنا مباشرة في التساؤل : هل تنتميان لنفس الحزب وهل تتبنيان نفس "القيم" ؟

إن هذا التباين مرده إلى ما أسميته بالاستعمار الحضاري وما بعد الاستعمار، وأضيف اليوم إلى هذه القائمة الاستعمارية تسمية "الفاشية الجديدة".

إن البعد الإعلامي في حدث من قبيل ما وقع بالولايات المتحدة في 11 شتنبر 2001 لخطير جدا، إذ نلاحظ أن قناة "C.N.N" مثلا، قامت بدور وزارة الخارجية، والبانتغون والناطق الرسمي باسم البيت الأبيض الأمريكي، ناهيك عن احتوائها للإعلام العالمي بمجمله وذلك من خلال ما روجته من معلومات وأخبار ومشاهد حبكتها لسيناريو الاختطاف الذي أطلقته ليتبناه الخطاب الإعلامي العالمي (بما فيه العربي) لخير مثال على ذلك.

إنه لحقاً إرهاب سمعي - بصري.

إن الانتقال السريع من شعار "America under attack" إلى "America, new war"، وإلى "War against Terror" والوقوع في خطأ مفهوم "عدالة بلا حدود"، ثم التراجع عنه، لأن العدل الحقيقي اللامتناهي هو عدل الله، ثم حشد العدة والعتاد، والانطلاق صوب أفغانستان، وحديث "بوش الابن" عن "حروب صليبية"، التي تمت محاولة تبييضها وغسلها فيما بعد، أضف إلى ذلك حديثه بنفس لغة "أبيه"، التي نذكر صياغتها "American style of life" والتي عبر عنها ابنه بـ "american way of life..."، إن عملية الجرد هذه، إنما مقصدها القول بأن الحروب عند المتقدمين هي القيم، وأن السياسة الخارجية الأمريكية محددها هو الصدام.

وعلى خلاف موقف صامويل هانتغتون، الذي اعترف ضمن مؤلفه "صدام الحضارات" بمرجعيتي وبأسبقيتي في طرح مفهوم "الحرب الحضارية الأولى"، فإن موقفي هو موقف "وقائي"، أي أننا إذا أردنا تفادي الصدام فلا بد من خلق حوار حضاري بين شمال العالم وجنوبه. أما عبارة "الحرب الصليبية" التي تبناها بوش الابن في خطابه وإن بصورة "عابرة"، فهي تبين ما ذهب إليه من قبله "ابن خلدون" حين قال بأن القوي يفرض على الضعيف المنهزم قيمه وعباراته ولغته. والأمر هذا ينطبق على دول الجنوب وينطبق أيضا على نظام الأمم المتحدة، الذي أثبت صراحة سيره هو الآخر صوب نهايته.

إنه لمن المفارقات الكبرى أن يتم الإجماع داخل مجلس الأمن (وبسرعة نذر مثيلها) على صلاحية استخدام المادة 51 من الميثاق الأممي، التي تسمح باستخدام القوة للدفاع الشرعي عن النفس. ومن المفارقات الكبرى أيضا أن يلجأ حلف الشمال الأطلسي ولأول مرة في تاريخه) إلى المادة 5 من ميثاقه، التي تدفع كذلك بمبدأ الدفاع عن النفس، وكأن الأمم المتحدة تستنسخ قراراتها عن قرارات الحلف الأطلسي.

إن "كوفي عنان" يقوم بعملية دفن حقيقية لمنظمة الأمم المتحدة في الوقت الذي تتراكم فيه الديون الأمريكية التي لم تسع الولايات المتحدة يوما إلى تأديتها للميزانية الأممية (1321 مليون نهاية 2000).

هناك إذن فقدان تدريجي لمصداقية الأمانة العامة للأمم المتحدة وللمنظومة العالمية بوجه عام.

وهو نفس الوضع الذي تعيشه البلدان العربية حيث فقدت كل الهيآت التمثيلية (حكومية كانت أو غير حكومية) مصداقيتها. وبالتالي فما تقدمه جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها إنما هو "كلام هراء"، وسياحة بالطائرات وإقامات بالفنادق الفاخرة.

إنني أستطيع أن أؤكد لمثل هؤلاء بأن الشعوب قد فهمت وأدركت فصول اللعبة، والآتي آت لا محالة، وما سيأتي لن يكون أقل قبحا لو بقيت الأشياء على ما هي عليه ولم يتم تداركها.

إن الروح، كل روح، عزيزة عند رب الكون، سواء تعلق الأمر بأبرياء الشعب الأمريكي أو بضحايا التصفية العرقية بالبوسنة والهرسك والشيشان أو بضحايا الحصار في العراق وفلسطين والصومال أو بتقتيل الأبرياء في الجزائر ومن قبلهم جميعا ضحايا حرب الفيتنام. كل الضحايا الأبرياء تحفظهم وستحفظهم ذاكرتنا بأسى وبمرارة، ولن تفعل الحرب المزمع خوضها هذه الأيام سوى

إضافة أرواح جديدة إلى قائمة السابقين أو الذين يموتون دونما اكتراث يذكر من "المجتمع الدولي".

إنه لمن المخجل حقا أن يتم كل هذا من أجل مصالح نفطية ضيقة أو تحت مسوغة خفية تتغيا درء توازن نووي يقدم على أساس كونه تهديدا لمصالح محددة.

وإنه لمن المخجل أيضا أن يتم ربط الإسلام بالإرهاب كما لو أن الـ 1500 مليون مسلم هم بالمحصلة النهائية إرهابيون.

إن الإسلام دين المستقبل، بل هو حضارة المستقبل، والمسلمون في تزايد ديموغرافي مستمر (إذ سيمثلون 40% من سكان العالم نهاية هذا القرن)، وبالتالي فاستعداء هذا الدين وهذه الحضارة هو ضرب من ضروب الغباء ونظرة أقل ما يقال عنها إنها ضيقة الأفق.

أنا تلميذ من تلامذة مدرسة "غاندي"، متمسك مثلهم بالتسامح ومتشبع بفلسفة عدم العنف في أخلاقه مثلهم، وداعية قديم من دعاة الحوار الثقافي والحضاري كما تدل على ذلك كتاباتي وأيضا جائزتي (جائزة التواصل الحضاري شمال ـ جنوب)، أقول إن ثلثي المسؤولية ـ على الأقل ـ على أكتافنا، وعدم الاهتمام بشعوبنا وضمان ظروف العيش الكريم لها من حرية وديمقراطية وحقوق إنسانية وأولها ما نسميه بالمجتمع المدني، والمجتمع الدولي والمنظمات الحكومية وغير الحكومية، لا حضور لها على الاطلاق أمام عجرفة القوة.

إن أبرز ما في علم المستقبليات، هوإذكاء روح الأمل على المدى المستقبلي بالرغم من نتائج الحاضر التشاؤمية، فالتغييرات ستعاين بعد خمسين أو ستين سنة وهذا العمر في الحضارة الإنسانية لا يساوي شيئا، والتطور لا يأتي بالقنابل ولا بالطيران ولا بالخيانة، بل بالشفافية وتكاثف الجهود.

إن النصر الآخر سيأتي من الإيمان ومن حسن المقاصد والعمل والجدية، أما "النسر النبيل" فهو بداية الضعف والتدهور. وحين يشعر القوي بالضعف، يحاول بشتى الوسائل التشبث بشيء ما كي يبقى قويا[3]، ونلمس هذا من خلال شروع "بوش"[4] وحكومته في اتخاذ قرار الحرب[5] وانسياق بعض الدول الأوربية خلف هذا القرار.

إننا ندخل مرحلة بداية النهاية، نهاية إمبراطورية... ولا يدوم إلا الله.

(3) I am struck bu the absence of the word God in the democratic party platform My party platform is different, we are proud to celebrate our country's judeo-christaian heritage, unrivaled in the world (Georges Bush, 22 August 1992, International Herald tribune, 24 August 1992).

(4) يقول الكاتب المسرحي الإيطالي داريو فو (جائزة نوبل في الآداب سنة 1997) في إحدى رسائله الالكترونية : ... إن كبار المضاربين في الاقتصاد يقتلون سنويا عشرات الملايين بالفقر... ما معنى مقتل 20 ألف بنيويورك قياسا إلى عنف هؤلاء الذين يبررون ثقافة العنف والإهانة والاستغلال اللاإنساني.

(5) في يوم 25 شتنبر 2001 ، صوت مجلس النواب الأمريكي على الميزانية العامة للدفاع وقدرها 343 مليار دولار، وقد بلغت نسبة الموافقين 96% (398 مع و17 ضد) منها 6 ملايير دولار لمحاربة الإرهاب.

4

الانتفاضات حتمية(*)

في كل مرة تتاح لي فرصة محاورة الدكتور المهدي المنجرة، أجدني وسط ركام من الأسئلة، فأبدأ في اختيار الأنسب، وحالما أجلس معه أنسى كل شيء فكرت فيه، وحتى الأسئلة التي هيئتها أضعها جانبا، ليبدأ الحوار تلقائيا، ومن غير مقدمات، وهل القارئ الكريم سيعرف أن هذا ثاني حوار تجريه جريدتنا مع الدكتور المنجرة. وكما خلق الحوار السابق ردود فعل ايجابية فإننا نرغب أن يخص هذا الحوار بنفس الدعم والاقبال. ولا أخفيكم سرا أن الجلوس إلى الدكتور المنجرة هو شيء ممتع وشيء يتجاوز حدود المكان والزمان، وأنا إذ أشكره على صبره الجميل وحسن اصغاءه، ودقة إجاباته أتمنى له طول العمر، حتى يفيد الأجيال اللاحقة فما أحوجنا إلى توجيهاته ونصائحه. وكم يحز في نفسي أن عمله ينتفع به الأجانب، ونحن محرومون منه ليس تعاليا منه، فهو أكبر من ذلك، ولكن لأن النظام يضع شروطا صعبة التحقق لكي يتواصل المهدي مع أبناء شعبه، وهذه دعوة صريحة لرفع الحصار عن كل ما هو جميل في هذا البلد.

□ م. ش. : لن أقيّمَ تجربة لا أعترف بها

■ م. م. :ليس لدي أي تقييم لأنه منذ الساعة الأولى لم أؤمن أن هناك تناوب أو تغيير، وأظن أنه في تصريح لجريدة العمل الديمقراطي نشر في شهر غشت، قلت إن الشيء الوحيد الذي تغير هو مفهوم التغيير، وما عدا ذلك فكل شيء بقي على حاله، ولا يمكن أن أقيّمَ شيئا لا أعترف به وبوجوده وأقولها بكل حدة، أنا لم أره ويمكن أن يوجد أشخاص آخرين أحسوا بهذا التغيير وعايشوه، وفي هذه الحال علي أن أزور طبيبا لأفحص عينيّ ، ربما فقدوا حاسة البصر.

(*) منبر الشباب، شهرية، العدد 57، يناير 2002 (استجواب محمد الوالي).

□ م. ش. : نحتاج إلى دستور تصنعه القاعدة ويتفق عليه الجميع

■ م. م. : في الطب حين تمرض الذات، تبدأ في التحلل، وعلى المستوى السياسي فأخطر ما نجده الآن هو انشقاق الأحزاب التاريخية، التي لها مجد وماض ومناضلين، وقَبِلَت فيما سبق حتى في الستينات أن تلعب وتشارك وأن تساهم وهي تدرك بعدم مصداقية تلك العمليات الانتخابية. قبلت ذلك وهي واعية بأن كل شيء مصنوع داخل وزارة الداخلية، تدخل اليوم نفس اللعبة وتساهم في تفتيت الأحزاب وخلق كيانات إدارية أو تقنوقراطية، بل أكثر من ذلك التلاعب بالمجتمع المدني وإنشاء مجموعات لكل واحدة توجه معين. بالتالي فلا بد من الرجوع إلى الأصل، وما هو سبب هذا التفتيت ؟ هذا التفتيت كرسته الحكومات السابقة، الذين وجدوا مع من يلعبون، وقبلوا نوعا من الانتخابات التي أفرزها دستور ممنوح، وليس دستورا مبنيا على اختيارات شعبية ونابع من القاعدة التي تقرر. فأنت حين تقبل بالاستثناءات وتقبل التلاعب كيفما كان نوعه، فعليك أن تتحمل مسؤولياتك فيما يصدر بعد ذلك.

□ م. ش. : المطر نعمة من الله ولا دخل لحكومة اليوسفي في ذلك

■ م. م. : أولا كل ما يأتي من عند الله، لا يمكن أن أفسره بالأمطار، وغيرها، ولا أريد أن أعطي تحليلات خاصة ببلاد ومستقبلها ونظامها السياسي وأعلقها بأمطار وجفاف وفيضان. الآن من يقوم بمثل هذه التحليلات ليست لديه ثقة في النفس، بل هو ضعف التفكير وعدم التحليل الإيجابي، لأن تحليل أداء حكومي موجود في الأرقام المطروحة أمامنا ونسبة الفقر والتعليم والرشوة وحالة الشعب بكامله، ولا يجب أن نصل إلى مثل هذه التحاليل ونقول انتهت المشاكل، والحمد لله أمطار الخير ولكن شخصيا لا أقبل أن أتلاعب بالوقائع وأربط بين ما ينزل من السماء ومستقبل حكومة من الحكومات.

□ م. ش. : لقد تراجعت حكومة اليوسفي عن مكتسبات عديدة

■ م. م. : الحرية التي تتحدثون عنها شخصيا لا أشعر بها ولا أحسها بل أرى العكس، لأنه من قبل كان الإنسان يتحرك وكانت هناك محاولات لاستعمال حريته في قول ما يريد، ويكتب ما يريد، أما الآن هناك شبه اتفاق للضغط على الشعب وطعنه. ولنأخذ القضايا الكبرى في العالم كقضية العراق وفلسطين، وكيف كان الشعب يعبر عن غضبه ويتحرك في الشارع، وأحصينا في فبراير 1991 بالرباط مليون شخص في مسيرة لدعم العراق وغيرها من المسيرات أما الآن فجميع المسيرات ممنوعة، فكيف تريدون من هؤلاء الناس أن يعبروا عن أنفسهم، وإذا كانت هذه الحرية موجودة فاعطوني عنوان إقامتها لأذهب وأستغلها شخصيا ؟

□ م. ش. : مشاكلنا مع اسبانيا لا يمكن حلها بشكل ثنائي ولكن بالرجوع إلى الوحدة العربية والإسلامية

■ م. م. : العلاقة بين المغرب واسبانيا، لا يمكن تحليلها على أساس ثنائي، لأنه في العالم أجمع لم تعد هناك علاقات ثنائية والعلاقة مع الدول الأوربية أصبحت تطرح في شيء يسمى معسكر أوربا الموحدة، فيه حتى روسيا وداخله يوجد معسكر ظهر بعد أزمة أفغانستان، وهو المعسكر اليهودي والمسيحي الذي يحارب ويواجه كل الشعوب التي هي خارج الاطار اليهودي المسيحي. إذن فما يحدث هو شيء ظرفي تدخل فيه قضية الصحراء وسبتة ومليلية والصيد البحري والهجرة السرية، لكن حل هذه المشاكل لا يمكن أن يتم بشكل ثنائي، إنما يكون عبر معرفة استراتيجية وخطة عمل لا زالتا غامضتين : فهناك آمال بدخول الحلف الأطلسي، وبالتالي كيف نتحدث عن صراع ونحن نسير نحو فقدان الهوية، وأن تمنح نفسك للآخرين لأنك ضعيف وتبحث عن الحماية بعيدا عن فضائك الأساسي وهو العالم العربي والإسلامي والافريقي. وحتى إن كانت هناك أزمة فهي قائمة بين حكام في بلداننا ولكن عند الطرف الآخر ليس مع الحكام ولكن مع الشعب بكامله هناك سياسة اسبانية لها علاقة بما يقرر داخل بروكسيل، ولن تتغير مع تغير وزير أو حتى حكومة بكاملها. بالتالي هناك أهداف

مخططة منذ زمن بعيد، عكس ما هو عليه الأمر عندنا، ليس هناك سياسة حقيقية تجاه الآخر، وهذا يهم كل الدول العربية، وأكيد أن الضعف الذي نعيشه مرتبط بحالة التشردم التي عليها كل شعوب العالم الثالث. وهذا استغله الآخرون إذ لا يتوانون في تدميرنا. وهذا أمر مفهوم في العلاقات الدولية إذ الدول القوية غالبا ما تعمل على زرع الفتنة بين الشعوب لأضعافها.

□ م. ش. : دخلنا عصر العولمة وفقدنا هويتنا

■ م. م. : الواقع أننا لا نسجل أي موقف، الآخر يمنعك من أن يكون لك موقفا، ونحن قبلنا في إطار العولمة ألا يكون لنا الحق في اتخاذ مواقف، والشيء الوحيد الذي عليك الاقتناع به هو أن ترضى بالانخراط في شرنقة العولمة. صحيح أن هناك تحركا من الأسفل وسنعيش عدة انتفاضات تحدثت عنها بصفة عامة، فما عاشته الأرجنتين انتفاضة، وفنزويلا انتفاضة. ومعناه أنه إذا وصلت الأمور إلى حد أقصى تفيض، ولا أعرف كيف نقبل كعرب هذا الذل؛ أن يتحكم فينا الآخر ونصبح مسيرين وإذا عبّر شخص ما عن رفضه لمثل هذا الظلم يتحول إلى مجرم، لأنه إن لم يتفق مع الاجرام، وهذا في نظري سيكون انتقال حقيقي من وضعية إلى أخرى، وستكون هذه الحرب طويلة مع الغرب. وقد تدخل حروبا صليبية "جديدة"، وأسميتها حروبا صليبية تاسعة، وإذا كانت الحروب الثمانية الأخرى لم يتعد عدد ضحاياها 100 ألف، فإن المسلمين فقدوا في ظرف عشر سنوات ما يناهز 10 ملايين ضحية، بمعدل مليون مسلم كل سنة والعدد قابل للارتفاع مع وجود حكام مسلمين مستعدين للمشاركة والتحالف مع الغرب.

□ م. ش. : ما تعيشه فلسطين نتاج طبيعي لما يريده الحكام

■ م. م. : على مستوى القضية الفلسطينية، تحرك المسؤولون العرب والمسلمون عبر ما يسمى المؤتمر الإسلامي، لصالح إسرائيل والاستعمار. وأؤكد أن 90% من المسؤولية للوضع كما نعيشه الآن يرجع للحكومات

الإسلامية والعربية وعلى ما يسمى منظمة تحرير فلسطين، لكونهم عبدوا الطريق للاستعمار الصهيوني كي يتوغل في المنطقة العربية ويشتت الوحدة العربية.

وهناك أيضا عدد من المسيرين والمؤسسات يتعاونون مع الصهيونية العالمية، وهذا موقفي منذ زمن بعيد، أي أننا نتحمل مسؤولية جسيمة من خلال عدم ثقتنا في النفس وهذا راجع إلى الفجوة السحيقة بين الحكام وشعوبهم، ولم أعرف بلادا عربية يتفق شعبها مع حكومته، وحين تصل الهوة إلى هذا الحد يسهل على العدو اقتحام الأراضي العربية، ومعروف أن بقاء هؤلاء الحكام مرهون بمساندة العدو، كما هو معروف في قانون العلاقات الدولية أن شرط البقاء هو أولى الأولويات.

□ م. ش. : لا أومن بالانتخابات

■ م. م. : منذ بدايتي، ومنذ صغري لم أشارك في الانتخابات، ولهذا أفضل دائما عدم التعليق على الانتخابات التي أعرف أنها لعبة غير نابعة من الشعب وحتى الدستور غير نابع من الشعب.

□ م. ش. : إذا بقينا هكذا ستصل يوما إلى تفريخ 30 مليون حزب

■ م. م. : التجربة المغربية على مستوى تفريخ الأحزاب، ستكون نموذجا ديمقراطيا على المستوى العالمي حاليا وصلنا إلى رقم 42 وتصوروا إذا تبعنا نفس الخطة فأكيد سنصل إلى 30 مليون حزب، وهذه ديمقراطية عظيمة، أي أن يصبح لكل مغربي حزب قائم بذاته. صراحة هذا مجرد لعب، وتلاعب بالذكاء الشعبي. من قبل كان لدينا 16 اقليما و16 حزبا والآن لدينا 42 حزبا، وكل واحد يلعب على هواه وبقية الشعب تتفرج على مباراة معروفة نتيجتها مسبقا. وبخصوص هذا الشعب فهو الأقدر على التعبير عن نفسه، عن طريق بناء دستور ديمقراطي يعبر عن أفكاره وآراءه وبالتالي ما دامت سيادة الشعب غير موجودة فكل حديث عن موقف شعبي هو من قبيل المهاترات السياسية.

☐ م. ش. : التعفن على مستوى الاعلام رهين بإرادة الدولة

■ م. م. : المسؤول عن تمييع التلفزة المغربية هو أنا وأنت وثلاثين مليون مغربي، يقبلون بما يبث في التلفزة، وأتحفظ على 30 مليون نسمة لأن عددا من المغاربة لا يتوفرون على الكهرباء والماء وبالتالي أظن أنه لدينا التلفزة التي نستحق والموسيقى التي نستحق والانتخابات التي نستحق. إذن المشكل في المصدر، ما هي الطريقة التي تخطط بها البرامج وكيف يتم اختيار الأشياء، مادامت كل هذه الأمور مغيبة، وليس هناك حرية للتعبير، وليست هناك تلفزة للتعبير والتربية والتسلية، وكذلك مادام الاستعمار متغلغلا في المجتمع. فلا نستطيع التعليق على ما تقدمه التلفزة التي تدافع عن ثقافة فرنكفونية وتدافع عن أفكار صهيونية، ولأنه ليست لدينا تلفزة ديمقراطية والحرية مغيبة، وما يسمى "الاوديومتر" أي أن نعرف نسبة مشاهدة هذا البرنامج أو ذاك، فمن الصعب الحديث عن التلفزة، وبالتالي لم يبق شيء من هذا القبيل، فتحولت التلفزة إلى جوق في يد النظام يستغله لأغراض سياسية، في غياب تام لأي اختيارات شعبية.

☐ م. ش. : المستقبل يصنع ولا يقرأ

■ م. م. : لست مفكرا ولست قارئا للمستقبل، والمستقبل لا يقرأ ولكنه يصنع. الأشياء التي تنجزها اليوم هي التي ستجدها في الغد، وأنا والحمد لله متفائل، وأتوقع بداية التغيير على مدى عشرين أو ثلاثين سنة شرط أن نبدأ من الآن وأن تكون التغييرات جذرية وحقيقية وليس تغيير حكومة أو حزب. وأقول إن أي تغيير ينبني على أشخاص وأفراد لا وزن له في الدراسات المستقبلية، فقط إذا كان هذا الشخص رمزا وإذا اندثر اندثرت هذه الجماعة.

☐ م. ش. : مادامت حرية الكلام مقيدة لن أتحدث في مكان عمومي بالمغرب

■ م. م. : غيابي بالمغرب راجع لأسباب واضحة، منعت من الكلام لمرات عديدة، واحتراما لنفسي وللشباب لا أريد الدخول في تفاصيلها، وأنا لن أعطي أي عمل علمي وسياسي داخل المغرب داخل مؤسسة عمومية، لأنني لا أجد

أي ضمانات، أتوصل برسائل يومية من الجاليات المغربية والمؤتمرات العالمية، وأشعر بالصدمة حين أرى زملاء ومفكرين يقبلون الأشياء كما هي، حتى وإن تحركت الأمور. والنخبة مازالت مرتزقة لكونها تبحث عن المناصب. من هذا المنطلق لا أدخل المؤسسات التعليمية المغربية لأنني أدافع عن حرية التعبير، لقد ذهبت إلى السجن وعمري 15 سنة وكنت في آزرو، ولم يخطر ببالي أنه بعد خمسين سنة، وعلى بعد خمسين كلمترا من ذلك المكان، سيأتي قائد ويمنعني من الكلام ويطردني، وهذا قمة في أهدار كرامة هذا الشعب.

5

قصف العراق قادم(*)

يحتفظ الدكتور المهدي المنجرة بصوته الخاص والمتفرد. مقارباته العلمية تكشف دائما عن عمق خاص في قراءة التفاصيل وفهم امتداداتها العميقة. خطابه العلمي لا يمر عابرا، إذ يثير دائما ردود فعل ونقاشا. إسمه يكفي لملئ قاعة فسيحة بجمهور أغلبه من الشبان. يملك ما يكفي من الجرأة للاقتراب من الخطوط الحمراء التي يتحاشاها الكثيرون. وراءه مسار علمي ومهني وجمعوي طويل وغني.

في هذا الحوار، يقترح د. المهدي المنجرة مقاربته للأحداث الجديدة التي يعرفها العالم، وهي مقاربة تتأسس على اعتبار الأحداث بداية حرب حضارية جديدة بشكل تبدو معه الثقافة والقيم مجالا أساسا للصراع، لا تقل في ذلك عن المكونات السياسية والاقتصادية.

□ الخليج : تقترح كتاباتكم مجموعة من المفاهيم، كمفهوم 'الحرب الحضارية'، ومفهوم 'ما بعد الاستعمار'. كيف تحددون الأسس النظرية للمفاهيم تلك وامتداداتها داخل السياق العالمي الراهن ؟

■ م. م. : كتبت عن حروب القيم وعن "ما بعد الاستعمار" في إطار مقال قصير نشر في مجلة "فوتوربيل" (مستقبليات)، الشهرية المنشورة في باريس، وكنت آنذاك رئيس الجمعية الدولية للمستقبليات. ما الذي يشكله إذن، "ما بعد الاستعمار" ؟ الواقع أننا عشنا مرحلة الاستعمار. والناس من جيلي عاشوا هذه المرحلة. وشخصيا تعرضت للاعتقال خلال تلك الفترة، وشاركت في حركة التحرير المغربية، وساهمت مع الجزائر وتونس وغينيا، وتعاطفت مع الفيتنام حينما كنت بالولايات المتحدة

(*) جريدة الخليج، يومية، أبو ظبي، 18 مارس 2002 (أجرى الحوار حسن الوزاني).

الأمريكية. وعشنا جميعا حلما خاصا مع انعقاد اجتماع باندونغ الذي جمع بعض الدول سنة 1954، وذلك قبل استقلال المغرب. وجاء الاستقلال، وعشنا فترته الأولى.

ولكن الأشياء لم تأت من فراغ. إذ إن الطريقة التي جاء بها الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية كانت لها علاقة بالوضعية العالمية الدولية، وبتوازن القوى الموجودة. وبعد انفصال العالم إلى شيوعي ورأسمالي، بعد الحرب العالمية الثانية، أعطى السياق الجديد فرصة لدول العالم الثالث لكي تتحرك داخل فضاء هذا النزاع وتستغل، بقدر ما يمكن، النزاعات بين القطبين. ولهذا كان هناك نوع من التحرر ومن الاستقلال في بعض دول العالم الثالث. ولكن، ما حصل في سنتي 1990 و1991، يبدو أمرا دالا. ولا اقصد في ذلك حدث حرب الخليج الثانية نفسها فقط، بل أيضا الظروف التي دفعت لانطلاق تلك الحرب والتي تتجلى في انهيار قطب من هذين القطبين.

ولو تصورنا سيناريو آخر بدون انهيار الاتحاد السوڤياتي، وبدون أعمال غورباتشوف وجماعته، هل كان من الممكن تخيل إمكانية قيام الولايات المتحدة الأمريكية بما قامت به في منطقة معينة كمنطقة الخليج خلال التسعينيات. بالتأكيد، لم يكن ذلك واردا بتاتا. لقد صار هناك فراغ بانهيار الاتحاد السوڤياتي والطبيعة لا تحب الفراغ. والبنتاغون أكثر من الطبيعة، لم يقبل الفراغ. ما أسميته "ما بعد الاستعمار" يرتبط برغبة أية دولة في توظيف قوتها من أجل الهيمنة على العالم. والهيمنة والحلم بها أمر طبيعي في العلاقات الدولية. ولكن تحقيقها يتم حسب المناخ الذي تتحرك فيه هذه الهيمنة. الذي حدث، هو أنه خلال هذه الفترة، التي كنا نعتبرها فترة استقلال والتي تتجاوز الثلاثين سنة، لم تستطع الدول أن تتحرر بالمفهوم الحقيقي. لقد كانت تظن أن التحرر هو التحرر السياسي والاقتصادي.

حيث أنها اختزلت الاستقلال في مجرد امتلاك علم ونشيد وشركة طيران ووزراء وسفراء وحرية تصرف في المواد الخام وفي الثروة الوطنية... إلخ

ولكن، ليس هذا هو الاستقلال. ففي الوقت الذي كانت فيه هذه الدول تفكر في التحرر سياسيا واقتصاديا، كان الاستعمار الذي يحتفظ بخبرته الطويلة، يعمل على تسريب هيمنته الثقافية والحضارية وقيمه. لدرجة أنه لما حلت التسعينيات، وبالرغم من حصول نوع من التقدم على مستوى التحرر الاقتصادي والسياسي، صارت نقطة الضعف قائمة بالضبط على كل ما هو حضاري وثقافي. وذلك في غياب تحرر حقيقي على هذا المستوى، مرتكز على رؤيا وقيم وبَرامج وأهداف. وتَكرَّسَ هذا الأمر مع وجود نسبة كبيرة من الأمية، والتي تتجاوز 50% في العالم العربي. إذن مع انتهاء التوازن بين القطبين، الذي كان يشكل مجال حركة العالم الثالث وخصوصا العالم العربي، وجدنا أنفسنا في مأزق. وكان المأزق هو افتقادنا لأفكار ولخطة ولسياسة.

ووجدنا أيضا أن هذه المرحلة الأولى لم تُحرر شعوبنا، لأن الفجوة بين الشعوب والمسيرين ازدادت كثيرا، كما أن التناقضات تعمقت على مستوى الأهداف والقيم. "ما بعد الاستعمار" يقوم أساسا على اقتناع مسيري دول العالم الثالث (وقد أستثني هنا فيديل كاسترو، ولست شيوعيا حينما أقول هذا الكلام) بكون بقائهم مرتبط بهذه الامبراطورية الجديدة، وبجيوشها. إذ صار "ما بعد الاستعمار" طريقة لبقاء الاستعمار، ولتوظيفه جيوش الدول المستعمرة وكتابها وسفراءها ومخابراتها. وصار الأمن مضبوطا بشيء واحد وهو القوة العسكرية التي تَمَّ اعتمادها للدفاع عن أنظمة لم تبق لها مصداقية داخل بلدانها. وبذلك انبثقت الفاشية الدولية. وهي الفاشية التي تركزت بالخصوص بعد شتنبر الماضي.

لقد حدث خلال هذا الشهر أمر يثير بالتأكيد تعاطف الجميع، حيث سقط أكثر من ثلاثة الاف شخص بريء، ضحية صراع ليسوا طرفاً فيه. ولكن إلى حد الآن، ليس هناك من يعطيني، كمحلل لا علاقة له بالمخابرات أو بالأنظمة، المعلومات الحقيقية ليُمْكنني فهم ما حدث. لقد استنكرتُ الحدث الذي كان من ضحاياه أطفال وأشخاص أبرياء (وكنت أستعد حينها لمؤتمر في جامعة أكسفورد)، باعتباره جريمة ضد الإنسانية بمفهومها العام. ولكنني أستنكر في

نفس الوقت كل الأحداث الأخرى التي تمس بهذه الإنسانية.. هل تعلم أنه منذ بداية ما بعد الاستعمار، في التسعينيات، سقط عشرة مليون مسلم نتيجة العنف بجميع أنواعه، الذي يمارسه الاستعمار. هل يجب أن نزن الأمرين ؟ إن الروح عزيزة عند الله كيفما كانت. ولا أريد أن أحيل على هذه المقارنة، ولكن الواقع أن الأرقام موجودة، ودالة، إلى درجة أن الأمر دفعني إلى الحديث عن حرب صليبية جديدة. والحقيقة أن بوش نفسه هو الذي شجعني على ذلك باستعماله لهذه الكلمة. وهو الأمر الذي لم يكن بالتأكيد بدون وعي.

والحقيقة أننا دخلنا بالفعل حروبا صليبية، مع العلم أن عدد ضحايا الحروب الصليبية الثمانية لم يصل إلى مائة ألف حسب آخر دراسة لخبير ياباني. لم يتحدث أحد عن العشرة مليون مسلم الذين سقطوا ضحايا العنف الذي استهدف المسلمين في البوسنة والسودان والشيشان والفلبين وكاشمير وغيرها. في مقابل ذلك يتم الحديث عن الإرهاب. إذا أخذنا فترة زمنية تمتد على خمس سنوات وتتوقف عند حدود العاشر من شتنبر، وقمنا بتحليل تواتر كلمة "إرهاب"، وقارنا ذلك بدرجة تواتر الكلمة نفسها خلال ما بعد 11 شتنبر فسنفاجأ بأمر مذهل.

إن هناك إرهابا جديدا، وهو إرهاب إعلامي. حيث يتم الحديث الآن عن الإرهاب كل لحظة. وهذا أمر مقصود ومخطط له، وهي طريقة تستعمل عادة لتعذيب المساجين. وإذا كان ما بعد الاستعمار موجها فقط للاقتصاد وللسياسة، فقد أصبح اليوم ضد العقيدة. كما أصبحت الدول التي تساهم مع الاستعمار هي أول مساندة لمحاربة الإسلام، كقيم وكحضارة. وهذا هو الذي ستؤدي عليه الثمن الكبير في المستقبل. لقد عشنا أمرا خطيرا أثناء الهجومات على أفغانستان، حيث لم تتحرك الدول الإسلامية إزاء ما تعرض له الأبرياء. الأبرياء في أفغانستان هم تماما مثل الأبرياء في وول ستريت.

□ الخليج : هل يتعلق الأمر إذن بحرب حضارية جديدة ؟

■ م. م. : بالتأكيد. إن ما قدمته من خلال تحليلي لحرب الخليج الثانية هو نفسه الذي نراه الآن. على المستوى العسكري، ثمة عشر سنوات لم تقم خلالها الولايات المتحدة الأمريكية بحرب حقيقية أو بتدخل حقيقي بالأسلحة المتطورة. وحرب أفغانستان منحتها إمكانية تجريب أسلحتها الجديدة. وعلينا أن نعرف ما الذي تعنيه القوة والهيمنة بالنسبة لدولة كالولايات المتحدة الأمريكية. إن الأمر يرتبط بنوع من التحالف بين العسكريين وصناعة الأسلحة والشركات المتعددة الجنسيات. وبهذا المعنى، فوجود بوش نفسه ناتج عن مساعدة هذه الشركات. وقد تابعنا مؤخرا النقاش داخل الكونغرس حول ميزانية الدفاع لسنة 2003، حيث ستصل إلى 360 مليار دولار. ومنذ أحداث شتنبر إلى الآن، صرفت الولايات المتحدة الأمريكية 6 مليار دولار على مستوى الدفاع والأمن لمحاربة ما يمكن أن يحدث مجددا. وهذه أرقام خيالية. لقد استغلت الولايات المتحدة الأمريكية بعض الظروف ودخلت نفسانيا في مرحلة خطيرة. في مرحلة ما أسميه بـ "الخوفقراطية".

وحين يجتاح الخوف تفكير الإنسان أو دولة ما، فكل الأشياء تتغير. خصوصا عندما يتعلق الأمر بأمبراطورية كانت تظن أن لا شيء يمكن أن يمسها. لقد نفذت الثقة بالنفس وصار رد الفعل وحشيا بامتياز. وهذا ما حصل في أفغانستان. لقد سبق لي شخصيا أن كتبت ضد ما يسمى بالطالبان. المخابرات الأمريكية صرفت أكثر من ستة مليار دولار على هذه الجماعة. بل إن المخابرات الأمريكية نفسها هي التي أسستها، وهي التي جاءت بإسلام لا نعرفه ويتم الحديث الآن عن الإرهاب. أليس إرهابا أن يسقط عشرة مليون مسلم ؟ أليس إرهابا ما حدث في أفغانستان ؟ أليس إرهابا ما تقوم به إسرائيل كل يوم ؟ أكبر إرهاب هو عدم تحرك الدول العربية والمسلمة. هذا بالضبط هو الإرهاب الجديد. إنها لم تنه عن المنكر. ومن لا ينهي عن المنكر لا يمكن أن يقول بأنه مسلم.

□ **الخليج** : يحيلنا هذا الأمر إلى الحديث عن مبادرة جامعة الدول العربية على مستوى اللقاء الذي نظمته والذي جمع العديد من المثقفين والمفكرين

العرب للتباحث بشأن صورة الإسلام في الغرب. كيف تقيمون مثل هذه المبادرات؟

■ م. م. :أعتقد أن ما قامت به مؤخرا ما يسمى بجامعة الدول العربية، والتي كانت موضوع أطروحتي والتي أسميها "ملحق البنتاغون"، هو نوع من الضحك على العرب وعلى المسلمين. لقد جمعت الجامعة خمسة وسبعين من المفكرين العرب. وبدل أن يتمحور تحليلهم حول التفكير في الأمور الحقيقية، تم اختزالُ المشكل في كون الآخر ليست له صورة واضحة عما هو الإسلام. والحقيقة أن المفكرين والمثقفين العرب والمسلمين الذي درسوا بالغرب يعرفون الإسلام عن طريق الغربيين أنفسهم. وليس هناك مرجع مؤرخ عربي أو مسلم حقيقي، منذ أكثر من قرن، يتحدث عن الدول الإسلامية، باستثناء إثنين أو ثلاثة، وباستثناء أدبيات الحركة السلفية التي كانت موجودة سابقا. كل ما نعرفه تم من خلال جاك بيرك وماسنيون وغيرهما.

إذن، لقد تم اعتبار هذا الغرب الذي علم المثقفين العرب والمسلمين ما هو الإسلام، في جامعة السوربون ومدرسة الدراسات الشرقية وجامعة أكسفورد وهارفرد وبرينستون، جاهلا بالإسلام. هذه لعبة. إن هذا الخطاب الذي يسعى بطرقه إلى نفي العلاقة بين الإسلام والإرهاب يحمل داخله نوعا من الاعتراف بالإرهاب. حين يذهب شخص إلى محكمة من تلقاء نفسه، ليعلن بأنه ليس لصا أو قاتلا، فذلك يسمى في القانون "بداية حجة". هل نتصور مقالا أو محاضرة عن الإرهاب والكاثوليكية، أو عن الارهاب واليهودية ؟ نرى ما يحصل في الباسك وفي إيرلندا أو ما حصل لدى الصرب، وكل هؤلاء كاثوليك. لكن لم يتكلم أحد عن الإرهاب والمسيحية. فلماذا نتحدث إذن عن الإرهاب والإسلام ؟

إنه فخ على مستوى التحليل نفسه. وهو أمر مقصود. وهو امتداد لانعكاسات نتائج أول إحصاء تم القيام به في العالم عن الإسلام، وقد قام به سنة 1976، الفاتيكان !. وقد كشفت نتائج هذا الإحصاء أنه لأول مرة في تاريخ الإنسانية، يفوق عددُ المسلمين عدد الكاثوليك. ولما تم التوصل إلى ذلك، بدأ

الخوف. وبدأت عملية حرب إعلامية نفسانية، تمت أساسا من خلال توظيف مصطلح "الإسلامي" (Islamist).

إن مصدر هذه العبارة التي يتم تداولها الآن بشكل موسع، ليس من لدن المسلمين. ولا يمكن أن نجد كلمة "إسلامي" كوصف للمؤمن، في القرآن، ولا في الأحاديث النبوية. وإذا بحثنا عن كلمة "إسلامي" سنجدها عند الإمام الأشعري. وكان مفهومها يُستعمل في القديم للتفريق بين الشعراء القدمى الذين كانوا يكتبون خلال فترة الجاهلية، بأسلوب معين، وبين الشعراء الذي أتوا بعد حلول الإسلام وصاروا يستعملون أسلوبا جديدا مخالفا لأسلوب شعراء الجاهلية. وفي المغرب العربي، نجد أنه في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، تم استعمال كلمة "إسلامي" لوصف اليهود الذين أتوا من الأندلس وأسلموا. وإذا رجعنا للموسوعة البريطانية، نجد أن "الإسلامي" (Islamist)، هو الذي يدرس الشؤون الإسلامية، كما هو الأمر الآن بالنسبة للمستشرقين. لماذا إذن يتم استعمال هذه الكلمة ؟ ولماذا لا نقول "Judaist" أو "Catholicist" ؟ إن الأمر مقصود، وذلك لكي يصير ممكنا للآخرين الادعاء بأن لا خلافات لهم مع المسلمين، وإنما مع الإسلاميين. بالطبع، انبثقت أيضا حركات أعطت لنفسها هذا الإسم، وهو أمر خاطئ بالتأكيد.

والواقع أن هناك اليوم، ثقافيا وحضاريا، حرب ضد الإسلام. وهي حرب تحمل جوانب صليبية. ولكنها حرب تعرف أيضا تورط مسيرين من العالم الإسلامي. وهي حرب تشكل خطرا على المستقبل وتهدد دولا أخرى، وخصوصا العراق الذي سيضرب قريبا. إنها حرب تقودها مصالح وأطماع معينة على مستوى المنطقة. فما حدث في أفغانستان يرتبط أساسا بنفطها. وما يشكل أمرا مفارقا بالتأكيد هو أنه تم تحطيم أفغانستان كلها، ولا نعرف عدد الضحايا. كما تم تكوين حكومة بطريقة غير ديموقراطية. لا أقول إن الطالبان كانوا ديموقراطيين. وفي نفس الآن، يتم الحديث عن حركة لإعادة بناء أفغانستان. البنك الدولي يتحدث عن الحاجة إلى 25 مليار دولار على الأقل

لإعادة تعمير أفغانستان خلال عدة سنوات، وذلك في الوقت الذي يتم فيه تخصيص 360 مليار دولار لتمويل الحرب خلال سنة واحدة. هناك قنابل تساوي الواحدة منها مليون دولار.

□ **الخليج** : اتسم تعاملُ الإعلام الغربي مع أحداث ١١ شتنبر وامتداداتها بخضوعه لسلطة الصوت الواحد والمُتَمَّط. إلى أي حد استطاع الإعلام العربي، خصوصا مع ظهور الفضائيات الجديدة، تَجاوزَ جانب من سلطة أحادية هذا الصوت ؟

■ **م. م.** : اسمح لي أولا أن أقول لك إنني لم أعرف يوما ما الإعلام العربي ولا أعرف عنوانه وأرجو أن تدلني عليه. الإعلام العربي سطحي. محكوم بتبعية وبضغوط ثلاثة رئيسية. أولها غياب الديموقراطية في العالم العربي، وذلك بشكل يجعل من المستحيل الحديث عن تحرر هذا الإعلام. وثاني هذه الضغوط ذو طبيعة خارجية، وهو يتم سواء بشكل مباشر أو عن طريق الحكومات، خصوصا أن وكالات الإعلام الوطنية والإذاعات والقنوات التلفزية كلها مرتبطة بالحكم بطريقة أو بأخرى. وثالث هذه الضغوط يرتبط بغياب الوسائل والإمكانيات، وهو ما يفتح الباب لتلقي مساعدات مالية من الخارج. الذي يؤلم هو أن أغلب الإعلاميين العرب الذين لم يقبلوا توجيها معينا، يشتغلون خارج العالم العربي.

وما نراه في العالم العربي هو جزء من الصورة الإعلامية العامة خلال ما بعد الاستعمار. وهو وضع يحكم الإعلام الأوربي نفسه الذي يعتبر تابعا للهيمنة الأمريكية. وهي هيمنة تكمن إحدى علاماتها مثلا في العدد الضخم للأفلام التي تعرض في القنوات التلفزية البريطانية والفرنسية والبلجيكية والألمانية وغيرها. وبما أن وسائل الإعلام قد أصبحت مرتبطة فيما بينها بشكل كبير، فإن الهيمنة عن طريق الفيلم تعني الهيمنة عن طريق الأسطوانة، والهيمنة عن طريق الأسطوانة تحيل بدورها على الهيمنة عن طريق الحاسوب، وهو ما يعني أيضا هيمنة عن طريق البرامج، وهكذا دواليك. لقد صار مفهوم الإعلام مفهوما

شموليا، يقتضي التخطيط على المدى البعيد، تنسيقا وسياسة ووسائل ضخمة وبالخصوص سوقا كبيرا، إذ لا يمكن لأي مجموعة لا يتجاوز أفرادها 300 مليون أن تتحرك في أي ميدان.

فوق ذلك، يرتبط الإعلام بشكل كبير بالبحث العلمي والتكنولوجي. ويفتح غيابُ هذه الوسائل الباب أمام مختلف الضغوط، التي تشكل الحروب الأمريكية مصدرها الأساس. وما حصل في أفغانستان، وهذا الإرهاب ضد ما يسمى بالإرهاب، هو قبل كل شيء عملية إعلامية، حيث صارت الثورة المعلوماتية في خدمة العمل المخابراتي اليومي، بشكل يمكن معه، مثلا، تحليل أكثر من مليارين من المكالمات الهاتفية. وهذه التطورات ترتبط أساسا بالبحث العلمي، حيث أن 80% من مصادر تمويله بالولايات المتحدة الأمريكية يتم ضمانه عن طريق ميزانية الدفاع. وهي ميزانية تم رفعها بما يناهز 30 مليار دولار من خلال استغلال الإعلام أساسا لما حدث خلال 11 شتنبر.

□ **الخليج** : يعرف العالم العربي والإسلامي باستمرار، نقاشا يرتبط بأسئلة الهوية الثقافية واللغوية والدينية، كما هو الأمر مثلا، بالنسبة لسؤال الأمازيغية. إلى أي حد يبدو الحسم في مثل هذه الأسئلة أمرا ضروريا للتمكن من مواجهة التحديات الثقافية الجديدة؟

■ م. م. : أعتقد أن أكبر تحدي ثقافي هو تحدي الشخص لنفسه، في إطار المناخ الذي يتطور داخله، ولا قيمة لأية هوية داخل فضاد يفتقد للحرية وللتعدد. بالطبع، لقد كان التعدد والتسامح موجودا وطبيعيا داخل الثقافة العربية الإسلامية سابقا. ولكن تم إدخال قيم وأفكار الغرب أساسا، خصوصا خلال القرن التاسع عشر. وهي قيم ينكرها الغرب نفسه الآن. كما هو الأمر بالنسبة لمفاهيم "الدولة"، و"اللوميات"، و"الأقليات". وهي مفاهيم لها دلالات سياسية وجغرافية وتاريخية واقتصادية. بالطبع، لا ينفي ذلك وجود الحدود القبلية داخل العالم العربي والإسلامي ولكن العنصر اللغوي بذاته لم يكن مطروحا. وفي المغرب مثلا، كان القرآن مترجما إلى الأمازيغية، وهو الأمر الذي يعتبر الآن بدعة. كما لم يكن وجود الأمازيغية وغيرها من اللغات المحلية أمرا مفارقا.

لأن الحضارة نفسها قائمة على تعدد مكونات الهوية. ولكن، خطورة الهوية تكمن أساسا في عملين. يرتبط الأول بامكانية استغلالها وتحويلها إلى فلكلور للاستهلاك على مستوى السياحة، وإلى بضاعة للتسويق وللتصدير. بينما يكمن العامل الثقافي في توظيفها كديماغوجية بغية تغطية مشاكل معينة وتحقيق أهداف لا علاقة لها لا بالهوية ولا بالدين. وأعتقد أن الأهم الآن هو القيم. إذ أن كل مجتمع ليست له قيم ذاتية، تطورت وفق مسار ديموقراطي، وغير خاضعة لمنظومة تقبل كل شيء، هو مجتمع قيل للأقول. ويمكن أن أستحضر في هذا الاطار مسألة الفرونكوفونية، التي لا علاقة لها بالتسامح أو التبادل الثقافي، بل إنني أعتبرها استفسارا جديدا، وجد أرضية له في العالم العربي.

وأنا من أكبر المدافعين عن الحضارة الفرنسية، كثقافة، وكأدب، وكشعر، وكمسرح. ولكنني أعارض في نفس الوقت استغلالها لأهداف سياسية، أو في إطار ممارسات لا علاقة لها بالثقافة. والمفارقة أنه ليس هناك كاتب فرنسي يقبل أن يوصف بالكاتب الفرونكوفوني. في الوقت الذي تصير فيه هذه الصفة ملازمة لكل كاتب عربي يكتب بالفرنسية. لقد صارت الفرونكوفونية بذلك عنصرية جديدة. ولا مستقبل لها بالتأكيد. كما أن فرنسا غير محتاجة لكل ذلك. إذ أن تاريخها الثقافي عريق.

إن الهوية إذن مرجع ضروري. إنها أشبه بمفاتيح لا يمكن أن نعيش بدونها. وأنا لا أدافع بالطبع عن مفاتيح القرون الوسطى، لأن الحضارة قائمة على التغيير. ولكن، إذا لم يكن لدينا ماض، ولا مرجعية، ولا رؤيا مستقبلية، ولا حرية فلا مستقبل لنا بالتأكيد.

هذا التصالح غير موجود بالتأكيد، وغير وارد. ومن يشارك فيه في أي مكان هو متورط في مؤامرة، والمهم هو تبين المقاصد من هذا التصالح. إذا كان هذا التصالح هو نوع من التكامل لمصلحة شعب معين. ولترقية المستوى الثقافي والفكري فهذا أمر مطلوب. ولكن ما يحدث الآن هو غير ذلك. ويمكن أن أستحضر هنا اللقاء الذي أشرت إليه سابقا، والذي جمع العديد من المثقفين والمفكرين العرب

للتباحث بشأن صورة الإسلام لدى الغرب. المفكر الحقيقي هو الذي يشتغل في ميدانه بعمق وباستمرار، وغير منشغل بمسؤوليات أخرى، وهو الذي لا يبايع إلا لله، والواقع أن الخطر الذي بحكم وضع النخبة المثقفة العربية هو الارتزاق.

إذن لماذا التصالح بين الثقافي والسياسي ؟ هل لتحقيق برنامجة معين لم البقاء ؟ لقد صار البقاء بالفعل هاجس للجميع، بما في ذلك الأحزاب، والمسؤولين، والأنظمة، والاستعمار، والشركات المتعددة الجنسيات. كما أن الجميع يتحدث عن الاستقرار. والاستقرار في البيولوجيا هو الموت بالضبط.

إننا نعيش الآن فجوة كبيرة بين نسبة من المنتجين على المستوى الثقافي وبين انتظارات شعوبهم. وهي فجوة تشمل امتداداتها للمضمون الثقافي للمرجعية الغربية. بشكل يصير معه المرجع هو الأساس. سبب ذلك هو نقص الكفاءة، عدم التمثل والفهم الحقيقي لثقافة الآخر. إن الحضارة الحقيقية هي التي تعرف ما يجب أن ترفضه كما يقال. بدون أن يعني ذلك استغناءها عن الاستفادة من حضارات أخرى. إننا نعيش نوعا من الفوضى الثقافية. وغياب التواصل، وذلك بحكم الجنوح نحو تعقيد الخطاب والأفكار.

هنالك تقسيم معاصر. وهو يحيل على التوزيع الذي ظهر مع حلول الاستعمار بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. أما سابقا فقد كان هناك تبادل ثقافي حقيقي بين جميع المناطق، حيث لعبت القرويين مثلا دورا هاما. وذلك انسجاما مع مفهوم الوحدة الذي جاء به الإسلام. كما كان الحج فرصة حقيقية للقاء وللتبادل الثقافي. ولما جاء الاستعمار، عمل على محاربة هذه القيم. والآن أصبح الغرب نفسه يتوحد ويهدم ما صنعه بنفسه كمفهوم الدولة ومفهوم الوطن. وذلك في الوقت الذي نعيش فيه الآن مركزية وتضخم الذات داخل كل بلد عربي. وأصبح العالم العربي يبذل كل جهده من أجل أمر واحد، وهو محاربة الكفاءات. وإننا نعيس بالفعل مشكلة تواصل شاملة تهم سواء التبادل الثقافي أو الاقتصادي. حيث نجد مثلا أن التبادل التجاري بين الدول العربية، لا يشغل أكثر من 5% مبادلات هذه الدول.

6

السير من أجل فلسطين(*)

يرى د. المهدي المنجرة خبير الدراسات المستقبلية المغربي، غداة مسيرة الرباط، أنه على السياسيين التقليل من استغلالهم للقضية الفلسطينية، وأن أكبر إرهاب في الغرب هو الإرهاب اللغوي اللساني، وأنه لا يمكن ربط الخيط من جديد بين الشعب العربي وقيادته إلا بمعجزة من عند الله.

المهدي المنجرة يقول لـ "الأيام" إن ما يقع بالشرق الأوسط هو الحرب الصليبية التاسعة.

□ **الأيام** : تداولت وسائل الإعلام، قبل يومين، نبأ قصف إسرائيل لمخيم جنين بالطائرات سقط إثره مئات الشهداء، ماذا يعني بالنسبة إليكم هذا التطور الخطير في الهجوم والحصار المضروبين على الشعب الفلسطيني ؟

■ **م. م.** : أنا أستغرب أمام من يستغرب من الموقف الصهيوني الأمريكي الاستعماري. نحن أمام مسلسل بدأ سنة 1991 أسميته بالحرب الحضارية الأولى، وقلت آنذاك إنه مسلسل سيتواصل وسيأخذ أوصافا أخرى. وأخيرا في اليابان تكلمت عن الحرب الحضارية الثانية، وهي حرب أفغانستان وذلك في كتاب صدر لي باليابانية من مدة قصيرة.

ومن الناحية العربية، هناك تسلسل في الاستسلام. فمنذ كامب ديفيد إلى الآن والعالم العربي يعيش إهانة من طرف القيادة العربية. اتفاق كامب ديفد كان خيانة، مدريد خيانة، أوسلو خيانة.. وهذا الكلام لم أقله اليوم وإنما نشرته في عدد من المقالات، وهي منشورة في كتاب "القدس العربي".

(*) أسبوعية الأيام، العدد 32، الدار البيضاء، 12-18 أبريل 2002 (أجرى الحوار أنس مزور).

استغرابي إذن، هو من الناس الذين يستغربون.إذا كانت البذور موجودة، وحين تنبت وتزهر، كما هو الداء حين تظهر عوارضه، نستغرب في الأخير لما يحدث ! أقول إننا جميعا مسؤولون، ولكن مسؤولية القيادة العربية يجب ألا ننساها. وأذهب إلى أبعد من هذا، وأنا أقول منذ زمن إن هناك فجوة بين الشعوب والقيادة العربية وصلت درجتها القصوى، ولا يمكن لأحد أن يمتلك الحركة الشعبية التي تنزل إلى الشارع. طبعا هي إدانة لإسرائيل وللصهيونية، ولكن كانت إدانة للقيادة العربية واستنكارا لتعاون ومساندة أمريكا للإجرام الاسرائيلي.

ما يحدث الآن هو شيء طبيعي. والعالم العربي يتحرك في الشارع. وحتى هذا الشارع مضبوط ومضمون. ليس هناك حركة بالشارع العربي غير مخنوقة بوسائل الأمن وبقيادة سياسية تتحكم فيها كما تريد، ولا يمكن للشعب أن يعبر عما بداخله.

وللأسف، ليس فقط قيادة العالم العربي التي لا تفعل شيئا، فأين الأمم المتحدة وأين كوفي عنان ؟ إنها أداة استعمارية بيد الولايات المتحدة. وهي عنصر أساسي للاستراتيجية الأمريكية الجديدة، التي هي فاشية دولية.. أين هي جامعة الدول العربية التي دفنت ؟ أين المؤتمر الإسلامي ؟ أين مؤتمرات القمة ؟ أين اليونسيف لتحمي أطفال فلسطين ؟

بماذا طالبت الجامعة العربية ؟ طالبت باجتماع مجلس الأمن، والمجلس اجتمع أربع مرات واتخذ قرارين، والبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة يفرض أن تطبق مثل هذه القرارات في الحين وإلا فرض الأمر عبر القوة وعبر الجيوش كما حدث في الماضي. لكن اسرائيل لا يمكن أن يمسها أحد. هذا هو الواقع..

☐ **الأيام** : (أقاطعه) كما تقولون دائما، في مثل هذه المواقف لا تنفع الاجتماعات والقرارات، وإنما يجب العمل. والسؤال ما الذي يجب عمله الآن ؟

■ م. م. : ماذا يجب أن نعمله ؟ في الواقع لو كانت لدينا ديمقراطية في البلدان العربية لما طرح هذا السؤال، لأنه آنذاك سيكون لدينا ممثلون حقيقيون وشرعيون للشعوب، وهم الذين يتصرفون بجهة ما يجب عمله. لكن والحالة هذه، فلا حق لي في التصرف أو الافتاء فيما ينبغي القيام به.

يجب أن نتوجه إلى عين المشكل، ونرى ما هي المقاصد. الآن حان وقت العمل. المسيرات والمظاهرات مهمة من الناحية النفسية للشعوب التي تعيش يوميا هذه المظاهر على شاشة التلفزة. مهمة نسبيا بالنسبة للشعب الفلسطيني، لكن هذا الشعب لا يؤمن بهذه المظاهرات، أي واحد يتابع أخبار التلفزيون يرى رد فعل بعض الفلسطينيين. المسألة ليست مسألة مظاهرات ومسيرات، ونقول انتهى الأمر.

لقد أعطيت للشعب فرصة ليعبر عن نفسه، ثم تعود إلى خطتك. قيادة الدول العربية ما زالت مساندة للصهيونية ضمنيا، لسببين : الأول أنها تخشى التحرر الحقيقي في فلسطين، لأن تحرر فلسطين يعني تحرر باقي العالم العربي. الثاني أنها تخشى على مكانتها. لأنه ليس هناك حكومة عربية أو نظام عربي يستطيع البقاء في الحكم مدة معينة بدون مساندة الولايات المتحدة وأحيانا حتى مساندة ضمنية للصهيونية. هذا هو المشكل بالتحديد.

□ **الأيام : لماذا تعتبرون أن حل المشكلة الفلسطينية شرط لأي تغيير بالعالم العربي؟**

■ م. م. : لأن كل ما يمارس ونعيشه، هو نوع من الاستعمار. إنها حرب حضارية وحرب قيم. والآن لا أقول الحرب الحضارية الأولى أو الثانية، أنا أسميت ما يقع حاليا بالحرب الصليبية التاسعة.

كانت هناك بالماضي ثماني حروب صليبية، مجموع ضحاياها لم يتعد مائة ألف، والآن نتفرج. لماذا الإسلام الآن هو الوحيد الذي يواجه ؟ إنها حرب ضد الإسلام. لهذا فالفاتيكان لم يتحرك لحد الآن إلا بكلمات حول مكان

مقدس مثل كنيسة مهد المسيح عليه السلام. لماذا ذهب في عشر سنوات الماضية عشرة مليون ؟ ولماذا تسألني أنا / اسأل الناس الذين كانوا بالشوارع هنا بالرباط الأحد المنصرم. قل لأي أحد ما علاقتة بالقضية الفلسطينية ويرد عليك لماذا نزل للشارع ؟ وما هي القضية الوطنية التي يمكن بسببها أن ينزل كل هؤلاء الناس إلى الشارع ؟ إنها قضية مصيرية. نحن أمام حرب إبادة لشعب عربي مسلم. لو كانت في بلداننا ديمقراطية، ولو كان ممثلون حقيقيون لشعوبهم، لما أمكن أن نسمح لاسرائيل وأمريكا أن تتصرف كما تفعل الآن.

لنا الوسائل لفعل عدد من الأشياء، في سنة 1973 عندما استعمل سلاح النفط لمدة قليلة تغير العالم. طبعا الآن الولايات المتحدة محتلة للشرق الأوسط، أفغانستان، السعودية. فحتى المبادرة التي سميت بمبادرة عبد الله هي مبادرة أمريكية، يخجل الإنسان من السرعة التي تمت بها حيث وافقت عليها قبل قمة بيروت. لكن الرد الحقيقي جاء بعد ذلك من شارون وجماعته. إذن القضية الفلسطينية أصل ونموذج لتحليل منظومة، فالاستعمار منظومة والصهيونية شبكة قوية ومنظمة بهذا الميدان.

الحل بيد الشعوب، يمكن للناس أن تقترح ما تريد. والمقاطعة مسألة أخلاقية، وأنا لا أومن أن نقول قررت الحكومة مقاطعة كذا وكذا. المغرب تجارته مع اسرائيل ازدادت، وتزداد سنويا. ومجموع الدول العربية اقتصادها وتجارتها مع اسرائيل تزداد سنويا. ففي سنة 2001 كما أوردت "لوكورييي أنترناسيونال" في عددها الصادر يوم 14 مارس الماضي ارتفعت صادرات اسرائيل نحو العالم العربي بـ 8%، الأردن بـ 7%، المغرب بـ 18%. السعودية بـ 28% وقطر بـ 40%. أما الكويت فتضاعفت وارداتها من اسرائيل بعشر مرات... وهنا أذكر لك أنه أمام بيتي خطر كبير يتمثل في رافعة الهاتف النقال ومن وضعها هي شركة جيل بيك، وهي شركة هولاندية اسرائيلية... قضية المقاطعة هي قضية أخلاق. وأنا حين كنت صغيرا، عشت المسألة. فإبان الاستعمار كانت المقاطعة بدون أي شيء. الناس كانت تقاطع التدخين. وكان المواطنون

هم الحكام في الموضوع. كانوا إذا رأوا أحدا يدخن بالشارع يتخذون التدابير اللازمة دون أن يكون هناك قرار. كانت تيلما التي هي 2M الآن أول تلفزة بالمغرب، فقام المغاربة وحاربوها وقاطعوها ولم تنجح.

عبر الأنترنيت يمكن أن تجد جميع الشركات الكبرى التي تمول الحركة الصهيونية. وإذا أعطيت المعلومات لكل مواطن، فعليه أن يتصرف من تلقاء نفسه. ونحن نرى الصهاينة كيف يتكاتفون بينهم، كيف يحاربون الآخر اقتصاديا واجتماعيا...

□ **الأيام** : إذا حصرنا النقاش حول المغرب. ألا نجد هيآت في مستوى هذا الحدث تقوم بالتوعية الناجحة بهذا الخصوص ؟

■ م. م. : للأسف المجتمع المدني بالمغرب نوعان : هناك نوع حقيقي تلقائي، لكنه قليل العدد ولا أريد أن أعطي أسماء. وهي جمعيات لا مصالح لها إلا مصالح حقيقية خاصة بالمجتمع، في الميدان الحقوقي وفي ميادين أخرى.. وهناك نوع جاء به تطور المجتمع المدني من جهة أخرى، جمعيات هي فروع لأحزاب سياسية. وهذا في الميدان الحقوقي بالخصوص. وأنا عندما أسست المنظمة المغربية لحقوق الإنسان، لمست أن هذه الأحزاب وهذه الحركات التي بدأت تؤسس مثل الفنادق الخاصة : هذه للشباب، وهذه للمرأة.. تريد أن تحتل وتستغل اجتماعات هذه الجمعيات لأهداف أخرى. ولكن مع ذلك، هناك قطاع خاص الآن غير رسمي يتمثل في الشبكات، والمستقبل الآن للشبكات وليس للمنظمات برئيس وأمين عام.. وهناك توعية قائمة، وأظن أن الأنترنيت بالخصوص يساعد اليوم كثيرا على هذا.. ونحن نتحدث الآن عن المقاطعة، وردت على اليوم تفاصيل عن 20 من المواد الموجودة بالسوق الأمريكية يمول منتجوها الحركات الصهيونية...

القضية إذن قضية أشخاص.. وهناك شق آخر يجب ألا ننساه، وهو أنه ليس هناك مصدر للتمويل، وأن القطاع غير الحكومي لم يأخذ مكانا خاصا داخل

تفكير المغاربة فيما يخص التمويل، فأحيانا تضطر عدد من المؤسسات للاعتماد على التمويل من الخارج. فهناك مؤسسات تقول إنها تنتمي إلى المجتمع المدني المغربي، ولكنها تعيش صباحا ومساء تحت إمرة مؤسسات غربية أمريكية موجودة بالرباط تسيرها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. لكن يبقى أن الفرد مهم، والتوعية الآن وصلت إلى درجة تجعلني لا أخشى على المستقبل.. وأنا على يقين أن الأشياء كما هي لا يمكن أن تبقى كذلك.. ومنذ زمن وأنا أقول إن سيناريو البقاء لا يمكن أن يستمر.. مسلسل السلام مات يوم ولد، ولكنه اليوم دفن.. كلمة سلام أصبح لها معنى حضاري، حرب على العرب والمسلمين.. والآن لا يستطيع أحد أن يتكلم عن مبادرة السلام إلا وهو راكع تحت الأرض أمام الأرقام التي ذكرت اليوم. أي سلام هذا أمام ما يقع ؟

وحتى في الإسلام لنا حق الدفاع عن النفس. وفي نظري مفهوم الجهاد أساسي ، لكن هذا المفهوم، مثل المفاهيم التي توجد بالإسلام أو الديانات الأخرى، يتطور حسب المكان والزمان. يجب أن يكون هناك جهاد حقيقي. مفهوم الجهاد في ظَرف مثل هذا يمكن أن يكون هو الصوم أو الصمت، أو القيام بمبادرة رياضية تضامنية مع فلسطين.. الجهاد أنواع، ويجب أن نفهم ما هو هذا الجهاد في الإسلام، أن يجاهد الإنسان نفسه، وأن يحارب ما لا يقبل وما لا طاقة لنا به، وينهى عن المنكر.. وليس الجهاد هو المعنى الذي أعطي في القرون الوسطى أو فيما قبل. الجهاد خطة مقاصد للتحرر الحقيقي..

□ **الأيام** : (أقاطعه) الجهاد كانت له دائما معاني متعددة، والرسول (ص) قال إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فالجهاد لم يكن أبدا يعني القتال وفقط...

■ م. م. : نعم هو متعدد المعاني حسب الزمان والمكان. وأكبر جهاد هو جهاد الإنسان مع نفسه، وأن يدافع عن فكرته، وألا يخشى أحدا.

الخوف أصبح مسيطرا على العرب، خوف من حكامنا الذين يعيشون بما أسميته بالخوفقراطية. الخوف من التغيير، من أي إنسان يستنشق الهواء،

الخوف من حقوق الإنسان، الخوف من حقوق المرأة، من النقابات، من حق الشباب، الخوف من حاملي الشهادات... حكامنا عنهم خوف من مواطنيهم. والآن ازداد خوف آخر، أصبح لهم خوف أيضا من القوى الكبرى.

إرهاب الدولة، الذي هو أكبر إرهاب، بدأ في الغرب. ففي عام 1955 لما استدعى محمد الخامس رحمه الله جماعة بنبلة وأعضاء آخرين من جبهة التحرير، وكانوا في طائرة خاصة للملك، خطفت الطائرة. وهذا إرهاب الدولة.. ما تقوم به اسرائيل صباحا مساء إرهاب دولة، حروب أمريكا بالعراق، بالڤيتنام.. إرهاب دولة. لا يمكننا أن نستعمل كلمة إرهاب في حق أناس يدافعون عن كرامتهم وشرفهم وحقهم وبلدهم، ويواجهون أشياء مثل ما نتحدث عنه اليوم.

وأقوى إرهاب اليوم عند الغرب هو الإرهاب اللغوي اللساني، لماذا ؟ لأنه إذا فرضت عليك مفهوما للإرهاب، انتهى الأمر. يفرض عليك ما هو الحب، ما هو الله ... انتهى الأمر. بهذه الطريقة أعطيك معاني، وأقول مثلا العولمة هي الأمركة، وأقول لك الارهاب هو الإسلام، مع العلم أن الارهاب في الواقع هو الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل، وإلى حد ما الدول الأوروبية التي لا تساند مباشرة، ولكنها لا تتحرك..

□ **الأيام : كما كنتم من قبل تلحون على الربط بين ما يقع في العراق وبين القضية الفلسطينية وباقي القضايا. نربط الآن بين ما حدث في ١١ شتنبر والهجوم على أفغانستان وإعلان الرئيس الأمريكي أن العراق وإيران وكوريا الشمالية دول إرهابية، منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية...**

■ م. م. : (يقاطعني) أبدأ بجوابي عن السؤال السابق، أتكلم عن الارهاب اللغوي والسيمنتيكي، لماذا نتحدث عن 11 شتنبر، الذي هو ليس إلا تاريخا من التواريخ. أمريكا تنتقي تاريخا معينا، ويصير رمزا، وفيه عدة معان. حدثت أحداث بنيويورك في تاريخ معين. لحد الآن أنا شخصيا لا أعرف ما هي أسبابها ومن كان وراءها. ومع ذلك يوم وقع ما وقع، كنت أستعد لمؤتمر بأوكسفورد،

وأرسلت برقية تعزية مع باقي المشاركين للناس الذين ذهبت أرواحهم باطلا. هناك فرق بين العنف ومحاربة العنف، واستعمال كلمات بسهولة كالإرهاب. عبارة 11 شتنبر لا أعرفها، لماذا لا نتكلم عن 8 أبريل ؟ فاليوم بفلسطين حدث تغيير كبير ومات المئات بالقنابل. لماذا لا نتحدث عن 8-4-02 ؟ هذا فخ إعلامي لممارسة ارهاب إعلامي ديماغوجي لتغيير التفكير.

وهذا ما يسميه الأمريكيون بـ "سوفت باور"، فكما بالكمبيوتر يوجد "سوفت وير" و"هارد وير" هناك "هارد باور" أي الطائرات وقوة الأسلحة، وهناك "سوفت باور" الذي يأتي بالإعلام. الآن هناك حروب اعلامية، وأقول إني كمغربي له تجربة بالإعلام، إن الاعلام المغربي جزء منه صهيوني، ويمكن أن أعطي أسماء: ميدي آن، ودوزيم التي أعطت إدارتها تعليمات، كما نشر بالصحف، لكي لا تقال كلمة صهيونية. وهناك أيضا نفاق كتاب كانوا يتحدثون عن العصرنة والحداثة ويتنكرون للقيم الإسلامية ويذهبون إلى إسرائيل ويتساءلون عن علاقتنا بفلسطين، لكنهم تجندوا جميعا، الأحد المنصرم، ونزلوا إلى المسيرة متناسين ما كانوا يقولون كأن الشعب بلا ذاكرة...

هناك صحف عوض أن تحلل الأوضاع، تكتفي بوضع صورة عرفات أو صورة الشهيدة فلانة، وأين التحليل ؟ هذا استغلال وليس عمل اعلامي.

أعود إلى سؤالك، طبعا هذا مسلسل. وأنا في كتاب "الحرب الحضارية"، قلت إني أخشى على فلسطين هي الأولى، ورجعت وقلت هي دولة ديمقراطية، لماذا لأنه لا يوجد الجهل لديهم، فهم حاربوا الأمية والشعب الذي به 95% تقرأ وتكتب، هو شعب صامد. وأيضا لأنها دولة قاومت الاستعمار بشكل لم يسبق له نظير. ثانيا، قلت أخشى على الجزائر التي كانت أخذت موقفا وحصل ما حصل. فهي البلاد الوحيدة بالعالم العربي التي كانت بها انتخابات نزيهة، ولو أني شخصيا كنت ضد الأفكار الخاصة بالذين نجحوا، ولكن قلت يجب أن تمر التجربة والشعب يمكنه بعد فترة أن يغير موقفه ويختار أفكارا أخرى... وبدأ الحديث عن الإسلاميين وخطرهم، وقامت حركة حقيقية ضد الإسلام.

وقلت أخشى على السودان وحدث ما حدث، قلت أخشى على اليمن وحدث ما حدث. هذه الدول أخذت مواقف في الحرب على العراق، فحدث لها ما حدث...

الارتباط ما زال قائما، وهو ليس فقط بين العراق وفلسطين، فهناك حرب أفغانستان كذلك. فشارون والصهاينة يقلدون الولايات المتحدة. أمريكا ذهبت وقصفت العراق، ولا داعي للحديث عن أن العراق ارتكب خطأ في القانون الدولي وذهب لاحتلال دولة مستقلة كالكويت، هذا خطأ كبير، لكن أميركا كانت تقيم علاقات قوية مع العراق وكانت تساندها ضد إيران حتى قتل مليون من المسلمين... فهل من يوم لآخر أصبح هؤلاء العراقيون غير صالحين ؟ هذه هي الطريقة الاستعمارية نجدها دائما في التاريخ، اليوم فلان صالح وعندما لا نحتاج إليه نأتي بشخص آخر. ويمكن أن يطبق ذلك على عرفات قريبا.

لماذا ذهبوا إلى العراق ؟ لأن العراق كانت البلاد الوحيدة التي لها كفاءة علمية تكنلوجية لمواجهة اسرائيل نوعا ما. والغرب لا يسمح لأية دولة مسلمة أن تهدد الموقع الاسرائيلي، لأن اسرائيل هي الدركي بالمنطقة. في البداية كانت الفكرة أن يكون الدركي في عهد السادات هو مصر، ولكن تبين أن الشعب المصري كان ضده، فأصبح الدركي هو اسرائيل.

شيء ثان، أمريكا في حربها ضد العراق وأفغانستان كانت تقوم بتجريب الأسلحة لتطورها. إذا قرأت عدد البارحة من "نيويورك تايمز" ستجد كيف أن مليارات الدولارات تتنافس عليها بوينغ وماكدونالد دوغلاس لأخذ مشروع طائرة متطورة... 200 مليار دولار لتطوير هذه الأسلحة، يجب على أمريكا أن تبرهن على فعاليتها. هذا الجانب لا يجب أن ننساه، فلسطين بعد العراق وأفغانستان مكان للتجارب لآخر الأسلحة والاستراتيجيات وأساليب الحروب النفسية. هناك تخطيط لمسلسل مدروس. العراق ستضرب بطريقة أو بأخرى، سيأتي وقت سوريا وإيران...

اليوم رأينا شارون بكل وقاحة يذهب إلى الكنيسيت ليقول إنهم لن ينسحبوا حتى يتموا مهمتهم. والعالم بأسره لم يتحرك، والعالم العربي كذلك...

يجب أن نفهم طبيعة الاشكالية القائمة، وعلينا أن نقوم بالنقد الذاتي، ورحم الله علال الفاسي، الذي قال إنه لا يكون هناك نقد صحيح وسليم إلا إذا بدأ الإنسان بنفسه. أخطاؤنا كثيرة وكبيرة، ويجب أن يفهم المسؤولون أنه لا ينبغي أن نتحدث عن مبادرة فلان أو مبادرة سلام، يجب أن نواجه الأحداث بمسؤولية. لماذا هذا العالم العربي الذي يصرف الملايير لشراء الأسلحة من أمريكا ولا نرى أي استعمال لها للدفاع عن اخوانك وعن فلسطين ؟ أي استعمال لها إذا لم يكن للدفاع عن العرب وعن فلسطين ؟ بأي حق ؟ حتى الزرواطة التي تستعمل الآن في ظل الظروف القائمة بالمغرب، تم اقتناء عدد كبير منها والناس رأوا ذلك... إنهم متحدون لمحاربة شعوبهم، ولكنهم غير متحدين لمواجهة الحقيقة. أمريكا لا يمكننا الاعتماد عليها، فهي وبكل وضوح تقول إن حليفها الأساسي هو إسرائيل. إذن أمريكا يجب أن نعتبرها في نفس مستوى إسرائيل، ولا يمكن أن نطلب منها التدخل.

نرى أن كولن باول قد بدأ رحلته من المغرب ولكن أين ستنتهي ؟ ستنتهي باسرائيل، وكل يوم إضافي قبل وصوله هو فرصة لشارون ليستمر في هجومه، هذا واقع. لا يمكن ربط الخيط من جديد بين الشعب العربي وقيادته إلا بمعجزة من عند الله.

□ **الأيام** : ليس المهم أن تكون هذه الدولة العربية أو تلك، المهم هو التخطيط الاستراتيجي عند أمريكا. الفرق بين دولة متقدمة ودولة متخلفة بسيط. الدول المتخلفة دائما تشخص الأشياء، فنسمع مبادرة الأمير عبد الله، برنامج مبارك... ما معنى هذا ؟ في الدول المتقدمة الخطة والمبادرة الوطنية تأتي من دراسات وبرلمان يقرر فيها ومجلس أمن وطني يجيزها...

■ م. م. : المبادرة التي سميت بمبادرة عبد الله، الناس يعرفون أنها كتبت في جزء منها على الأقل من طرف خبراء أسماؤهم معروفة... والسرعة التي تمت بها والدعاية التي سبقتها كباقي الأشياء في السوق... هذه الفترة انتهت، ،اللعب على الشعوب العربية انتهى... إعلان بيروت مات... ومهمة باول فاشلة مسبقا، وأي تأييد لها من طرف القيادة العربية إهانة للفلسطينيين وخيانة للقضية العربية...

الجميع الآن يسخر من القيادة العربية، وإذا رجعت ولاحظت ما يحدث، كالمسيرة العظيمة التي شهدتها الرباط الأحد المنصرم، وإذا فهمت ما أتى به الإسلام، إذا استمعوا إلى امرأة واحدة بمسيرة الرباط تقول إذا كان لديها 11 طفلا، فإنها سترسلهم جميعا إلى فلسطين للاستشهاد، فهل ستسأل ما هي العلاقة بين تغيير بلداننا وبين القضية الفلسطينية ؟ هذه امرأة لا تنتمي إلى المجتمع الحداثي ولا المدني.. إنها من الشعب والحمد لله على هذا الوعي الحاصل لدى الشعوب العربية. هذه الشعوب حقيقة لا تستحق القيادات الموجودة لديها، وهل القيادة العربية تستحق شعوبا مثل هذه ؟ هذا هو السؤال الأساسي في التاريخ. جوابي هو لا.

أكبر شيء الآن هو الذل، فالقيادة تركع وتسجد وتفرض على شعوبها الركوع مرتين : مرة لها ومرة للاستعمار الأجنبي الصهيوني.. هذا انتهى ولا يمكن أن يستمر.

□ الأيام : أسألكم بصفتكم مختصا في الدراسات المستقبلية. مثل مسيرة الرباط سبق وأن نظمت قبل عشر سنوات تضامنا مع العراق، والسنة الماضية كذلك نظمت مسيرة ضخمة تضامنا مع الشعب الفلسطيني، لكن الملاحظ أنه بعد مضي وقت على كل مسيرة لا تجري تحركات شعبية لتغيير الأوضاع القائمة...

■ م. م. : (يقاطعني) تحليلك واضح. أنا ساهمت في مسيرة العراق. وهناك فرق بين هذه المسيرات. مسيرة العراق كانت تلقائية، بها نوع من العفوية والارتجال، وجل من شارك فيها جاء من تلقاء نفسه ليشارك مع الجماعة مثل الصلاة. من جهة أخرى، قوات الأمن لم يكن لديها التكوين الذي أصبح لديها اليوم، ففي كل مسيرة هناك تقدم ليس في مواقفنا ومواقف حكوماتنا، ولكن في استعداد قوات الأمن، في محاربة ومواجهة تلك المسيرات.

في مسيرة العراق كان كل واحد يريد التوجه إلى مكان، هناك من يريد الذهاب إلى سفارة فرنسا وهناك من يريد الذهاب إلى مكان آخر... كل واحد كان يتصرف بمبادرته الشخصية. ومع مرور الوقت بدأت عدد من المسيرات تعرف نوعا من الخنق، خنق حتى في الطريق التي تتحرك بها، من طرف القيادات الحزبية التي تتكتل بطريقة أمنية خاصة بها.. المهم هو أن الشعب خرج... ولكن يجب ألا نفهم أن الشعب خرج استجابة لنداء جمعية معينة أو أحزاب معينة، هذا غير صحيح. ما معنى أن بعض السياسيين يقولون إن هذه المسيرة لا علاقة لها بأية حركة وبأي حزب، ويأتي شخص ويعلق أمام وسائل الاعلام على المسيرة ؟ بأي حق ؟ وهذا الشخص معروف بمواقفه من القضية الفلسطينية، ويعرف أن هذا الميدان بعيد عنه حتى في مسؤوليته، ولا يمكنه أن يطبق أي شيء مما يقوله... هذه تناقضات، الشعب واع بها.

ومع ذلك تفاؤلي اليوم هو أكثر مما كان عليه فيما سبق، يجب أن نفهم أنه لم يعد ممكنا أن ننزل إلى الأسفل.

□ **الأيام** : مسيرة العراق مضى عليها أكثر من عشر سنوات ولم يتغير شيء في واقعنا. هل الخلل في غياب تأطير للمواطنين أم ماذا ؟

■ م. م. : مسيرة العراق كما قلت كانت عفوية، شارك فيها أناس لا علاقة لهم بالأحزاب والحركات، لكنهم يدافعون عن الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وتدريجيا نشأت جمعيات، واحدة سيرها واحد ينتمي إلى حزب

معين، وبعدما تم الانتباه إلى أن هذه الجمعية التي أسست بغرض مساندة العراق لم تفعل ذلك، حاول عدد من الناس كنت ضمنهم تأسيس جمعية أخرى تساند فعليا الشعب العراقي، فبدأنا في اجتماعاتنا، لكن الحكومة لم تعترف بهذه الجمعيات ولم يسمح لنا بالمظاهرات، ولم ننجز شيئا إلا تجمعا كان بالمركب الرياضي محمد الخامس بالدار البيضاء... ما نطرحه قضية حقيقية، فالشعب يذهب إلى المسيرة من أجل هدف معين ويأتي من يحصد نتائج أخرى، خاصة ونحن الآن أمام ما يسمى بالانتخابات. فعمليا هناك استغلال لكل شيء، وهذا لا يمكن السماح به من الناحية الأخلاقية.

بالمسيرة كانت هناك فجوة بين اللافتات والشعارات التي رددها الشعب. هناك من يريد التحرك لكنه لا يسمح له بذلك إلا إذا أتى من جهة معينة، وهذا إقطاع سياسي.

□ الأيام : هناك مفارقة أخرى كذلك، فقد استمعنا إلى الشعارات التي رددت بالمسيرة في قنوات أجنبية ولم نسمعها على شاشة التلفزة ؟

■ م. م. : نعم هذا صحيح، وفي مظاهرات 68 بفرنسا كان الناس يسجلون الشعارات المرددة. الآن يجب العمل. هناك من يطالب بفلسطين أن نترك المسيرات تتنقل من بلاد عربية إلى بلاد عربية، مثل الحجاج في الوقت الماضي، يجب أن تفتح الحدود.. ولا توجد دولة عربية تسمح بذلك لأنها تخشى أن تتهم بالإرهاب. هناك الآلاف في مصر تنتظر وعينها أن تفتح الحدود للذهاب إلى فلسطين، فكما للجهاد قيمته، للاستشهاد كذلك قيمته.

أول جندي أمريكي مات بأفغانستان جاؤوا بجثته إلى أمريكا، وقال بوش ما أشرف أن يموت الإنسان في سبيل وطنه. أليس هذا استشهادا ؟ هل هو حلال حين يتعلق بأمريكي وحرام حين يضحي فلسطينيون بأنفسهم ؟

□ الأيام : وأين تتجه الحرب القائمة الآن بفلسطين ؟

■ م. م. : الهمجية الصهيونية القائمة الآن لا مثيل لها. لقد أصبحت المقارنة بين الصهيونية والنازية واضحة الدرجة بل إن عددا من البرامج تسمي ذلك بالنيونازية وتقدم مقارنة بين أكثر من عشرين صورة مأخوذة أثناء تعذيب النازية لليهود الذي كان بدوره همجيا، ولا يمكنني أن أدافع عن النازية، وبين صور ما يحدث الآن في فلسطين. "لماذا هذا العالم العربي الذي يصرف الملايير لشراء الأسلحة من أمريكا ولا نرى أي استعمال لها للدفاع عن العرب وعن فلسطين؟"

إننا أمام حرب إبادة، وقد تحدثنا عن الارهاب اللغوي قبل قليل، والجميع يتحدث عن ذلك. الغريب أن يومية ناطقة بالفرنسية معروفة بميولها الصهيونية ترفض أن تستعمل كلمة "جينوسيد" التي هي "حرب إبادة" وحددت حولها اتفاقيات دولية استخدمت بدلها كلمة "إيتنوسيد" كأن "جينوسيد" مخصصة فقط لما حصل لليهود.

فهم لا يسمحون باستعمال الكلمة الأولى التي ترتبط باتفاقيات ومحاكمات، لأنه إذا تم ذلك فالناس سيسعون لمحاكمة شارون كما تم في بلجيكا.

مع الأسف ثلاث أرباع جرائدنا كأحوال الطقس نظرا لطبيعة تمويلها، مرة يكون بها الربيع ومرة الشمس ومرة المطر...

□ **الأيام : وهل هناك أمل في تدخل أممي أمام ضغوط الرأي العام العالمي ؟**

■ م. م. : من هو الرأي العام العالمي ؟ من يتكلم عنه ؟ ما هو ميثاق الأمم المتحدة ؟ أين هو كوفي عنان ؟ أمريكا كما قلت تحرك هذه الأدوات كما تريد، جاؤوا ببيريس دوكويلار، ونفذوا ما قاموا به في العراق وتركوه، وفي وقت معين كان لابد أن يأتوا بعربي فجاؤوا ببطرس غالي، ولما انتهى مشكل العراق أزاحوه من مكانه. وقيل إن أمريكا حاربته، إنها لم تحاربه وإنما رأت أن مهمته انتهت فأتت بآخر. كوفي عنان ماذا يفعل ؟ خذ جميع تصريحاته، ستجد أنه كلما صرح مسؤول أمريكي بشيء يقوم هو بعد ساعة أو يوم ويحلله بطريقة

أخرى ويعطي تصريحا بالأمم المتحدة... ينتظر مجلس الأمن ليتخذ قرارا معينا ثم يأخذ الكلمة بعده... الأمناء العامون الحقيقيون كانوا هم من يأخذون زمام المبادرة ويوجهون مجلس الأمن، لكن حين صنعها واحد مثل شوب في قضية الكونغو قتلوه.

لقد أمضيت 20 سنة من حياتي بالأمم المتحدة، ولم أكن أتصور أنها ستصل إلى هذه الدرجة. كتبت سنة 1973 كتابا يدرس في جميع الجامعات الانكلوساكسونية عن نظام الأمم المتحدة، وقلت إن الأمم المتحدة كمنظور تقريبا انتهت، لأنه لم يعد لها مقاصد. بدأت بجماعة دول بقيم يهودية ومسيحية، وتدريجيا دخلت دول أخرى وبدأت تعارض هذه القيم، ولم يكن اتفاق حول المقاصد.

التغيير بدأ في النظام الدولي حول قضية فلسطين، فلما اتخذ قرار يقارن بين الصهيونية والعنصرية والأبارتايد قامت أمريكا بحملة وخرجت من اليونسكو، وظل الضغط قائما حتى ألزمت منظمة التحرير الفلسطينية بطلب مراجعة ذلك القرار. أنظر إلى أية درجة وصل العرب في الاستسلام.

أمام الأرواح التي تسقط يوميا، أتساءل أين منظمة الصحة العالمية ؟ أين الجمعيات الدولية ؟ أمنستي ؟ مراسلون بلا حدود ؟...

أنا ذهبت إلى أمريكا سنة 1948 وعمري 15 سنة، بالصدفة وصلت في نفس الشهر الذي خلقت فيه الأمم المتحدة اسرائيل بقرار. بعد مدة قليلة جاء بن غوريون وعقد اجتماعا مع أثرياء اليهود بفندق ضخم، وقال لهم أنا لا أريد مالكم، أريد أن يشتري كل واحد منكم محطة تلفزة، إذاعة، استديو للأفلام، جريدة... أدنى عمل يمكن القيام به الآن هو أن تراجع الدول العربية الاتفاقات كلها منذ كامب ديفد إلى الآن، فشارون قال إنه لا يؤمن بجميع هذه الاتفاقات... يجب أن تتراجع منظمة التحرير الفلسطينية عما قامت به، فالآن هناك أسباب قائمة تكفي للمقارنة بين الصهيونية والنازية، يجب أن نتحدث عن حرب الإبادة..

على الأقل يجب أن تقطع الدول العربية التي ما زالت تحتفظ بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل... أليس هذا منكر ؟ وحتى الدول التي طلبت من ممثلي المكاتب ببلادنا الرحيل ما زالت هناك اتفاقيات تربطها باسرائيل يجب إنهاؤها. بدون هذا لا يمكن أن نحترم أنفسنا أو نطلب من الآخرين احترامنا. أظن أن الاعلام بدأ يتحرك ويقوم بعمله ويجب على السياسيين أن يقللوا من استغلالهم ومن التهريج والديماغوجية في شؤون مقدسة ومصيرية كالقضية الفلسطينية، التي لا تهم فقط الشعوب العربية والإسلامية وإنما كل الإنسانية، لأننا أمام فاشية ونازية جديدة.

نحن نلاحظ هذا التقارب الأمريكي الصهيوني حتى في معاملتهم للسجناء، ما يحدث في كواتانامو هو ما سيكون بالنجف، الذي سبق أن عرف تعذيب المعتقلين بعد مذبحة صبرا وشاتيلا... شارون يريد أن يقلد بوش...

أنتهي بما بدأت، علينا القيام بالنقد الذاتي... ومسيرة الرباط وباقي المسيرات التي رأيناها توضح أن الشعوب العربية ضد الإهانة وضد الذل وضد القيادة العربية. أقول هذا وأنا لا أنتمي إلي أي حزب معين، ولا أريد القيام بالدعاية لأي جريدة.

الجهاد هو إعمال الفكر العقلاني، هو الطريقة التي نحلل بها الأشياء ونراها. يجب أن نقطع مع الفكر الشخصاني، ونعتبر أنه إذا تغير شخص تغيرت الأشياء. العالم منظومة معقدة. وحين نتحدث عن التركيبة العقلية، فإننا لا نتحدث عن النحو في اللغة، وعن الخوارزمي في الاعلاميات، كيف تربط الألف بالياء... إذا لم تحترم هذه القوانين الأساسية، لا يمكن أن نتقدم.

☐ **الأيام** : قبل المسيرة ركزتم في تصريحاتكم على أن كل النقاط تم الاتفاق عليها بما فيها توحيد الشعارات واللافتات. وخلال المسيرة، تبين كما لو اتفقتم على كل شيء باستثناء تنظيم مسيرة موحدة، فبماذا تردون ؟

■ م. م. : التنسيق تم مع كل الأطراف حيث عقدنا مجموعة من اللقاءات ووصلنا في نهاية المطاف إلى أرضية مشتركة دونت في محضر مكتوب بعد نقاش جدي وايجابي. وهذا يسجل لصالح المغرب، ولكن في عمل مثل هذا، لا يمكن الحديث عن تنفيذ الالتزامات مائة بالمائة. وبالتالي جوهر ما التزمنا به، ليس من السهل تطبيقه بالحرف.

لقد أبدع الشعب المغربي في احتجاجه ضد إسرائيل، فابتكر عددا من الشعارات والأساليب الاستنكارية. لقد قلت فيما سبق بأننا لم ننظم المسيرة، وإن المؤطر الأساسي للمسيرة، كان هو الشعب المغربي. فقبل انطلاقتها، كنت قد وجهت كلمة حمّلت فيها المسؤولية لكل واحد. وهذا ما تم بالفعل، حيث أثبت المواطن المغربي أنه مسؤول، وأنه قادر على توجيه الرسائل، لعل أولها إعلان الانتماء. فالثلاثة ملايين مغربي وما ينيف الذين مشوا في المسيرة يمثلون المغرب كله. وكانوا يتصارعون في بداية المسيرة للحصول على الشارة التي كتب عليها "كلنا فلسطين".

ثاني الرسائل التي بلغتها المسيرة لأمريكا أتت من خلال الشعارات التي رفعت ضدها وتدعوها إلى التحرك بسرعة باتجاه تغيير موقفها حتى لا ينمو الشعور بالحقد والعداء لها، مما يشكل خطورة على مستقبلها مع الدول والشعوب.

أما ثالث رسالة فهي إلى دول أوربا وإلى الحكومات العربية لإيقاف كل أشكال التطبيع مع إسرائيل، للضغط على أمريكا، وإسرائيل تحديدا لحملها على تغيير موقفها.

ورسالة رابعة بلغت شارون أنه واهم إذا اعتقد أنه يحاصر عرفات. فالمحاصر الحقيقي هو شارون.

□ **الأيام** : ولكن كما تعلمون رفعت داخل المسيرة، وفي فترات متباينة، شعارات عنصرية تخلط بين اليهودي والصهيوني، وكان للمسيرة أكثر من رأس يوجهه تارة

جيش حزب الله وتارة أخرى معسكر تشي غفارا، فهل فاتكم تسجيل هذه الملاحظات، رغم أن ما حدث لم يزغ بالمسيرة عن هدفها ؟

■ م. م. : وهل يمكن أن نتوقع ألا ترفع بالمرة شعارات لم نتفق عليها. هذا مستحيل. ولكن يجب ألا يفوتنا أن الذين رفعوا هذه الشعارات التي لا أقول عنصرية، ولكننا غير متفقين عليها، إنها لم ترفع من طرف التنظيمات بشكل رسمي، فالذين رددوها مناضلون في صفوف بعض التنظيمات، وليس بالهيّن التحكم في مثل هذه الحالات. ولكنني لا أعتبر هذه النقاط ذات أهمية، فالأهم منها أن المغرب نظم مسيرة اعتبرها الغرب الأضخم في العالم. وما حدث لا يستحق الذكر، ويهدف فقط للتقليص من أهمية وحجم المسيرة.

□ الأيام : ماذا بعد المسيرة ؟ هل ستكتفون بالبرنامج المسطر سلفا، مع العلم أن الأحداث تتخذ منحى خطيرا يوما عن يوم ؟

■ م. م. : المسيرة حلقة من حلقات النضال المغربي، وقد نظمت خلال الأسبوع الماضي مئات المسيرات في كل أنحاء المغرب، تلامذة، طلبة ومحامين...، كما نظمت خيمات بالرباط وتمارة، ولكن المعركة متواصلة. فبعد أن بعثنا بالآليات الطبية الخاصة بالانعاش وبحالات الاستعجال بناء على طلب فلسطيني بعدما جمعناه من تبرعات، يتساءل المواطنون عن رقم حساب الجمعية للتبرع بالمال.

وهذه واحدة من المبادرات التي يجب أن تتخذ، فسنكون غير موضوعين إذا ادعينا أننا قادرين على تنظيم مسيرة بهذا الحجم كل أسبوع، ولكن ستستمر المبادرات.

7

الإشكالية العربية إشكالية أخلاقية[*]

يعتبر د. المهدي المنجرة الذي كانت أطروحته للحصول على الدكتوراه قبل 54 عاما حول الجامعة العربية، أن هذه الأخيرة أصبحت أداة لخدمة الاستعمار الجديد كما كانت في خدمة القديم.

ويناقش خلال هذا الاستجواب الجدوى من زيارات الزعماء العرب للولايات المتحدة التي وصفها بعدو العرب والمسلمين، وضرورة وقوع تغيير جذري بالعالم العربي خلال السنوات القليلة المقبلة، مشرّحا الوضع المأزوم بالشرق الأوسط، ومحددا مكامن الخلل القائمة فيه.

المنجرة يعلق على تطورات الشرق الأوسط : العالم العربي أصبح ملحقة للمخابرات الأمريكية.

□ **الأيام :** سبق وأن قلتم في استجواب سابق لكم معنا إن مهمة باول فاشلة منذ بدايتها، وقد تبين الآن بالفعل أنها كانت فاشلة، على ماذا كنتم قد ارتكزتم في قول ذلك؟

■ **م. م. :** حين قلت إن المبادرة فاشلة، فإني قلت ذلك على أساس منظومة، فالأشياء في العلاقات الدولية لها أساس ومصالح وميزان قوى وجانب استراتيجي وعسكري وعدة عناصر. ولا يمكن لأي شخص كيفما كان أن يأتي ويقول إن باول إذا قام بزيارة ستتغير الأشياء، أو إذا توجه الأمير عبد الله إلى أمريكا ستتغير... هذا غير ممكن، إنه اختزال في التحليل، بل إنه تحليل بدائي.

(*) أسبوعية الأيام، العدد 35، 2-8 ماي 2002 (أجرى الحوار أنس مزور).

هناك مصالح وعلاقات... فمصالح أمريكا كما حددها نظامها مرة بعد مرة، وآخرها في 26 أبريل الماضي كما حددها بوش في ندوته الصحفية عقب زيارة ولي العهد السعودي لبلاده، حيث صرح أن هذا الأخير أبلغه بأن علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل علاقة فريدة، وأنه على العالم أن يعرف أن أمريكا لن تسمح بالدوس على إسرائيل. وقال إن ولي العهد كان واضحا في إدانته للإرهاب... السياسة الأمريكية واضحة منذ البداية قبل 45 سنة والدول العربية تعرف هذا جيدا.

والمؤكد أن جولة باول لم تكن فاشلة، الفشل كان من وجهة نظر من كان ينتظر من مبادرته شيئا إيجابيا، أما الحقيقة فهي مهمة ناجحة، لأن المقصود كان هو تأخير أي عمل، وإعطاء وقت أطول للإسرائيليين لتصفية الانتفاضة والقيادة الفلسطينية والبنية التحتية... والآن من جديد الولايات المتحدة تعطيهم فرصة أخرى بزيارة بعثة كذا وكذا. لهذا فشيء طبيعي أن أقول إن زيارة كل مسؤول عربي لأمريكا فاشلة منذ البداية، لأنه أولا لا يمكن لهؤلاء المسؤولين أن يغيروا مثقالا واحدا في الموقف الأمريكي، بالعكس فإن الناس تفهم أن الزيارة تحد لمشاعر شعوبهم، وفي الحقيقة إذا كان ظاهر الزيارة هو طلب المساندة لفلسطين، فإنها في العمق طلب لهذه القيادات للبقاء في مناصبها والدفاع عنها من طرف العدو. والآن واضح من هو عدو العالم العربي، وعدو القضية الفلسطينية، من هو عدو الإسلام الذي أشهر حربا صليبية عليه وعلى المسلمين والعرب، إنه واضح.

إذا كان بعض المسؤولين لدينا لم يفهموا بعد ذلك، ولازالوا يتحدثون عن مسلسل السلام، والأموات بالعشرات والصور البشعة نراها كل يوم.. فعليهم على الأقل أن يلتزموا باحترام ما يسمى بالرأي العام والشارع.

أعتقد أن الزيارات الأخيرة لبعض القادة هي تقريبا تأكيد ومساندة للسياسة الأمريكية. والهدف منها هو القول إن شعوبنا لها مواقفها، لكن نحن كقادة لنا مواقف أخرى... فصداقتنا وعلاقتنا بأمريكا تهمنا أكثر من احترام شعوبنا. وهذا لا يمس مسؤولا محددا...

□ **الأيام** : وهل يمكن أن تحدث، مع استمرار احتجاج الشارع العربي، مواجهة عربية مع إسرائيل ؟

■ م. م. : بالنسبة للدول العربية، ليس هناك حكومة واحدة تستطيع مواجهة إسرائيل، ليس لأنها لا تتوفر على قدرة لذلك أو ليست لها الوسائل، وإنما لأسباب أخرى، تتحدد في أنه ليست هناك الثقة الكافية لبعض الحكومات في شعوبها.. وتقريبا بدون استثناء.

العراق يعيش ظروفا خاصة، وهو مستعد للمواجهة، ولكنه لوحده، وحتى إذا لم تكن عليه الضغوط القائمة حاليا من طرف أمريكا وغيرها، فيجب أن تسانده دول عربية أخرى.

اسمح لي أن أعود إلى تحليل طرح منذ مدة طويلة، فأطروحتي للدكتواه كانت حول الجامعة العربية، وهي مكتوبة سنة 1957 أي قبل 45 سنة. قلت فيها إن القضية الفلسطينية أصبحت رمزا أساسيا للقومية العربية، وهي سبب كل ما يحدث بالمنطقة، وسبب كل الأزمات التي تحدث في الدول العربية، وهي التي أعطت للإصلاحيين في العالم العربي طريقا للديماغوجية والتعبير السياسيين، لكن حين ننظر ماذا فعلت الجامعة العربية ماذا نجد ؟ لقد تأسست لكي توطد العلاقات بين الدول العربية وتحقق طموحاتها، وفي قضية فلسطين وللأسباب التي سنتكلم عنها، الجامعة العربية نجحت في تحقيق العكس وعمقت الانقسام بين الدول العربية ولم تحقق أيا من طموحات الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم خارج بيوتهم دون أن يتحقق حلمهم برؤية دولة فلسطينية مستقلة. ولم يطبق أي قرار من عشرات القرارات التي اتخذتها بمقاطعة إسرائيل.

مؤسسات الجامعة والدول العربية رسخت هذا الواقع، لا أقول يجب خوض حرب، ولكن يجب فتح الحدود، والناس ستجاهد بطريقتها الخاصة، وقد أنجزت في البحث دراسة حول عشرات القرارات للجامعة العربية القاضية بالمقاطعة ولم ينفذ منها قرار واحد وقد خصصتُ 30 صفحة لهذا الموضوع.

الجامعة العربية بدأت كآلة للاستعمار ولاتزال، وقد أصبحت آلة للاستعمار الجديد. والفرق بين الاستعمار القديم والجديد هو أنه في هذا الأخير، أصبحت القيادات العربية نفسها مستعمرة، وقلت مرارا إن النموذج الاصلاحي الآن قد انتهى ولا أتوقع أن يبقى أي نظام عربي كما هو خلال الخمس أو العشر سنوات القادمة. لابد أن يكون هناك تغيير جذري وتنظيف في الأنظمة، وكلما تأخر هذا التغيير، ازدادت تكاليفه. أما الكلام عن مسلسل السلام وعن التسامح، فهذا كلام فارغ، ولا يمكن أن تقوله للشعب وهو يرى ما يحدث. فالجميع الآن يعرف ماذا يجري ويدور يوميا وبالأرقام، ويعرف حتى مصاريف شراء العرب للأسلحة من أمريكا والتي وصلت قيمتها حوالي 500 مليار دولار خلال العقد الأخير. وبهذه الأموال طبعا تزود أمريكا إسرائيل بالأسلحة التي تقتل بها العرب. أين هي الأسلحة ؟

حتى إذا اعتبرنا أن 50% من هذه الأموال صرفت كرشاوي أي 250 مليار دولار ولو اعتبرنا أن النصف الباقي أي 125 مليار دولار صرفت في قضايا الأمن الداخلي، فستبقى 125 مليار دولار، وهذا يوصلنا إلى أن زمن البعثات والوفود انتهى، الشعب الآن استيقظ.

❑ **الأيام : هل تصريح مصر بأنها تحتاج إلى 100 مليار دولار لخوض الحرب ضد إسرائيل هو مجرد محاولة لتبرير موقفها أمام الشعب أم ماذا ؟**

■ **م. م. :** القيادة المصرية باعت فلسطين في كامب ديفيد في شخص السادات، فقد أصبحت هناك ظاهرة الارتزاق على مستوى الحكام والحكومات وعلى مستوى جزء من النخبة وإن كان قليلا والحمد لله، وكذلك على مستوى الإعلام. إذن فقد أصبحت ظاهرة الارتزاق شيئا أساسيا في العلاقات الدولية، والدول الكبرى تعرف كيف تستغله...

حتى تكون المصداقية في العلاقات الدولية وفي تحليل مواقف الدول ونوعية معاملتهم مع شعوبهم، هناك معيار أساسي واحد وهو القيمة التي تمنحها هذه البلدان للروح الإنسانية.

ما نراه في إسرائيل هو أن وزيرا إسرائيليا قتل، قامت حوله ضجة عالمية حتى بعض المسؤولين في منظمة التحرير اعتبروا أن ذلك إجراما من طرف من قاموا بعملية فدائية للدفاع عن أنفسهم، مع العلم أن هذا نوعا من الجهاد مسموح به في أعراف حركات التحرير العالمية وفي مختلف الديانات. في المقابل قتل في العالم الإسلامي خلال العشر سنوات الأخيرة ما يقارب 10 ملايين فرد في كل من السودان والشيشان والفلبين وغيرها من الدول دون أن يتحرك أحد.

عندما ترى كيف انقلبت دولة بكاملها في ألمانيا حين قتل 16 أو 17 مواطنا ألمانيا بتونس، وكيف أقيل وزير الداخلية هناك وقدمت الحكومة مليون أورو كتعويض، فأنت هنا تتعامل مع أناس لهم مصداقية وإذا قالوا شيئا فعلوه. أما إذا أنت تتعامل مع أنظمة لا تهتم بمواطنيها بل على العكس من ذلك، فهي تضطهدهم في الشوارع وتقتلهم، فكيف يمكن للآخر وللعدو أن يتعامل مع هذه الدول أو أن يتناقش معها. فهو يعلم في آخر المطاف أن هذه الحكومات تحتاج إليه لمحاربة شعوبها، ما الذي كان سيحصل إذا مات مسلمون بأحد المساجد ؟

فمتى سنصل إلى وقت نعطي فيه قيمة للروح. ففي الإسلام وفي كل الديانات، فإن للروح قيمة، فالآية تقول : ﴿ومن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا﴾ فنحن نعيش أيضا مشكلا أخلاقيا هو الحياة. وللأسف ففي الدول العربية فإن الحكام والحكومات لا يعطون أية قيمة لهذه الحياة. إذا قمنا بإحصاء لنعرف كم قتل كل نظام عربي، سنتساءل إن كانت هذه الأعداد أقل أو أكثر من الضحايا الذين يسقطون في الحروب مع العدو، فنحن لم نر أية طائرة عربية أو مدمرة استعملت ضد العدو (الآخر). مصر مثلا لا زالت لها سفارة في إسرائيل ولازالت لها تجارة مهمة مع إسرائيل ولازالت تستفيد من مساعدة أمريكية تصل إلى 3 ملايير دولار سنويا، وهي لا تستطيع أن تتحرك بموقف واحد ضد إسرائيل، فهي أصبحت رهينة وكذلك العالم العربي. الشيء الإيجابي الذي رأيته مؤخرا في هذا الزمن السعيد الذي نعيشه هو موقف سكان جنين

الذين أدوا ثمنا غاليا لم يسبق له مثيل في العالم العربي بعد صبرا وشتيلا حين رفضوا المساعدة الأمريكية، في حين أن وزيرا فلسطينيا يذهب للتفاوض مع الأوربيين حول مساعدات مالية وكأنه يشتري ويبيع، ماذا سيحصل لهذه المساعدة ؟ وأين ذهبت ملايين الدولارات التي أعطيت لمسؤولين في فلسطين ؟ فهذا الاتحاد الأوربي قام بتقرير حول الرشوة الموجودة بها. لقد حان الوقت للجدية، وأعود وأقول إنه حان الوقت لكي نعطي قيمة للروح وللإنسان، وكيف يمكن للآخر أن يضع الثقة فينا ويناقش معنا، فهذه إشكاليتنا وهي أخلاقية. عيب أن نقيم السهرات والاحتفالات ونحن نشاهد ما يحدث يوميا من مجازر، على الأقل يجب أن نحترم أرواح الشهداء.

□ **الأيام** : نفهم أن الزعماء العرب حين يتوجهون إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فللحفاظ على مناصبهم، ولكن ما الذي يدفع أمريكا أن تستقبلهم وأن تناقش معهم، هل هو من أجل الضغط عليهم أكثر، بهدف استخباراتي أم ماذا؟

■ م. م. : لأنهم هم مرتهنين محتاجون لتزكية علاقاتهم هذه، فحين يذهب الأمير عبد الله للقاء بوش، فهذا للتزكية ولتجديد الولاء.

أنا أعتبر هذه الزيارات لتجديد الولاء لخطة معينة، وأتحدث هنا بصورة عامة وأنا أقول إنه بعد الأزمة الأخيرة والانتفاضة الأخيرة توضحت الأمور بدرجة لم يسبق لها مثيل. فإذا لم يرد المسؤولون أن يفتحوا أعينهم، فستأتي أحداث تفتح لهم أعينهم، وأتمنى شيئا واحدا هو أن يكون الثمن قليلا، لأن من يدفع الثمن دائما هم الأبرياء، فأما الحكام، فلهم أموال في الخارج وتسهيلات، أما الذي يدفع الثمن، فهي الشعوب وعلى رأسها شعب فلسطين.

□ **الأيام** : قلتم قبل سنوات حين كانت هناك أحداث في فلسطين إنه قد آن الأوان لعرفات ولمنظمة التحرير الفلسطينية أن تقلب الطاولة وأن تعود إلى خيار الانتفاضة وخيار المواجهة. الآن بعد كل ما حدث نجد الذي اغتالوا الوزير

الاسرائيلي، وهناك مجموعة من الأحداث توضح أن عرفات إلى حد الآن لا يمكن أن يقلب الطاولة ؟

■ م. م. : أسهل شيء في التحليل هو أن نشخص، وكلما شخصنا الأشياء، نركن إلى الاختزال، والتحليل هو الشيء الذي يصح، الأشياء واضحة، لما تخضع م.ت.ف لضغوط عربية وبالخصوص من مصر وخصوصا السادات وحتى من بعض الدول الأخرى مثل المغرب التي ساهمت في هذا التوجيه بمسلسل السلام والتفاهم والتعايش.

ففي سنة 1991 في فندق هيلتون في مؤتمر أقيم في مصر حضره ألف شخص، قام نبيل شعت وتكلم عن أطفال الحجارة فأوقفته وأنا كنت حينها رئيس الجلسة وقلت له إن الحجارة ليست موجهة ضد إسرائيل، بل موجهة ضد مسؤولين فلسطينيين لم يقوموا بواجبهم بخصوص مسؤولياتهم. فأنا لم أحلل الأشياء بالأشياء، فأنا بصراحة لا يهمني عرفات ولا فلان ولا علان، ما يهمني هو ما يحصل داخل الحركة، الزعامة انتهت، النبي واحد في الإسلام، وهو قام بدوره (ص). أنا أتكلم عن المسؤولية والمسؤولية جماعية وليست مسألة شخص، حتى الأمريكان وإسرائيل اتفقوا على أن يأخذوا رمزا بدأ يتزعزع ويعطوه قيمة من جديد لأجل أشياء أخرى وراءها، لكي يستعملوا باقي الوزراء ويخلقوا إنشقاقا داخل المنظمة ويخسروا آخرين. فآخر تقرير ظهر اليوم في "واشنطن بوست" يقول إنه لا فرق بين مواقف وزارة الدفاع ووزارة الخارجية في التحفظ بالنسبة لعرفات، احتاجوه لمدة معينة وجاؤوا به وذهبوا إلى واشنطن، فأما الآن وقد قضوا أشغالهم، وقد صفت إسرائيل ما كان لازما أن تصفيه ولم يبق للمعارضة الرسمية الفلسطينية أي أساس، لم يعودوا مستعدين أن يتفاوضوا مع أحد.

لهذا، فالشعب الفلسطيني والشعوب العربية فهمت أنه لا يمكن أن نرتكز على بعض الأشخاص، فيجب أن نتساءل من جديد ما هي مسؤولياتنا ؟ وما هي حركة التحرير ؟ الكلام الذي أقوله الآن هو ما يؤمن به كل واحد. كفى، يجب أن تكون هناك ديموقراطية وشفافية حتى نعرف من يختار من.

أنا قضيت حياتي كلها في التعاون الدولي، في التفاهم، في الحوار الذي أصبح الجميع يتكلم عنه. فمداخيل كتبي منذ 10 سنوات خصصت لجائزة حول شمال/جنوب. ومازالت عندي آمال في هذا الحوار، ولكن الظروف جعلت قيادتنا ليست مستعدة للدفاع عن شعوبها ولو أن شخصا في مكان بوش أو بلير أو غيره من رؤساء الدول الغربية، فماذا يفعل، هل يكون موقفه أعظم من مواقف القيادات العربية ؟

يجب أن تعلم أن دولنا مستعمرة أكثر مما كانت عليه في أي وقت، فحاليا هنالك مس بكرامتنا في كل التحركات وعلى كل المستويات. على المستوى الثقافي في بعض الدول، هناك حركة تبشيرية فكرية حضارية ساهم فيها بعض المرتزقة، فأنا أرى مثلا أشخاصا كان مغضوبا عليهم في الجزائر خانوا بلدهم ونراهم الآن وقد صاروا خبراء في فرنسا ويتنقلون من مكان إلى مكان، والبعثات الثقافية الفرنسية تستدعيهم والحكومة المغربية تستدعيهم كخبراء. ألهذه الدرجة استطعنا أن ننسى، ولكن ولله الحمد، فإن للشعوب ذاكرة ذاتية، وهي معمولة للدفاع عن النفس. والآن أقول إننا لم ندخل الحرب الحضارية الثانية فقط بل دخلنا حربا صليبية، والشعوب مستعدة أن تؤدي أي ثمن لذلك، وهذا طبعا ليس في مصلحة القيادة. وهذا التناقض يلزم أن يحل بطريقة سلمية، بتفهم وبرد الاعتبار، فيجب على بعض الحكام أن يقدموا اعتذارا بالنسبة لما يحصل في فلسطين، فالكل يخطئ والمسامحة أمر جار به العمل، ولكن لا أرى أن الأمور يمكنها أن تستمر كما هي سواء بمساعدة بوش أو بمساعدة الاستخبارات. العالم العربي أصبح كله ملحقة للمخابرات الأمريكية، يوميا، صباحا ومساء، صارت إسبانيا الدركي الذي يراقب المنطقة، فكولن باول في رحلته اتفق مع اسبانيا أن تشرف على شمال افريقيا استخباراتيا، وهناك مبادرة أمريكية ترمي إلى الاستغلال الاقتصادي لافريقيا الشمالية وأن تفتح منطقة حرة بينها وبين أمريكا.

... أقول كفانا من الرشوة، إنه يصعب في بعض الأحيان التحليل، كيف وصلنا إلى هذه الدرجة؟

فهذا واحد من كبراء المتخصصين في المستقبليات غاستون بيرجيه... كان يقول إن التوقع هو عمل شخص، لكن تغيير المجتمع هو عمل الجماعات، فكل ما يتوقعه شخص لا يمكن أن يصل إلى درجة الآلاف والملايين. فحتى كلامي هذا فيه اعتدال، وهذه الكلمة "اعتدال" صرت أكرهها في مفهومها الذي يطبق، لأن الاعتدال صار هو الاستسلام. أنا مستعد أن يكون هناك اعتدال إن كان الاعتدال في الطرف الآخر أيضا، فالأمر حينها يكون تلاحما، أما إذا كان الاعتدال من طرف واحد والعجرفة والطغيان من الطرف الآخر، فهذا يصبح استسلاما، وهذا ما يجب أن نفهمه وهذه هي الوضعية التي نعيشها.

□ **الأيام : بخصوص القضية الفلسطينية، فرغم خروج الشارع العربي لمدة طويلة فإن أمريكا لم تعط أي اعتبار للغليان الشعبي، بل هم مستمرون في تصريحاتهم بأن مساندتهم لإسرائيل سوف تستمر، فكيف تتوقعون السيناريو المستقبلي لعدم إعطاء أي اعتبار لإرادة الشعوب العربية ؟**

■ م. م. : كيف تريد أن تغير أمريكا أو أي طرف آخر موقفه إذا كان مسؤولون عرب كبار اتفقوا معهم ؟ كيف تريد أن يكون هناك اتفاق ؟ إن الشيء الوحيد وهو تغلغل وغليان الشارع هو نوع من الجهاد الحقيقي والدفاع عن كرامة الإنسان والتضحية والاستشهاد، كيف يمكن أن تتصور ذلك من مسؤولين يأخذون موقفا بأنهم ضد الإرهاب متفقين مع المفهوم الأمريكي ؟ كيف يمكن أن تأخذ موقفا في اتفاق دولي لتعريف الإرهاب ؟

إذا اعتبر أن هناك مليار ونصف المليار هم المسلمون من الإرهابيين، وهناك 250 مليون إرهابي عربي من بينهم، وهناك 30 مليون إرهابي مغربي من بين هؤلاء، فهذه العبارة فرضت عليك وصرت تفكر فيها وصرت تشتغل من أجلها، وصارت الدول العربية تعطي معلومات للمخابرات داخل هذا المنطق، وتصبح مؤسسات ومسؤولون في حالة خضوع مثل ما حصل مؤخرا في منظمة التحرير الفلسطينية التي اتخذت قرارها تحت الضغط داخل منطقة مغلقة، والعدل غير ممكن تحت الضغط، فالأحكام كلها التي تأتي تحت الضغط لا

قيمة لها شرعيا.. وسيأتي التغيير، ولكنه لا يمكن أن يأتي إلا بطرق أخرى، وأمريكا ستغير موقفها حين نفعل بعض الأمور.

فهناك مثلا شيء بسيط يمكن فعله إذا كانت هناك مقاطعة للبضائع الأمريكية والاسرائيلية كما كان في وقت الحماية، وأخذنا رمزا واحدا كـ كوكاكولا، وذهبنا إلى أي حي، وقطعنا مسافة 500 متر ولنعد عدد الاعلانات لكوكاكولا هناك، كم عدد حافلات "التوزيع" هناك. أقول إننا لن نموت إذا لم نشرب هذا المنتوج. فلنشرب الماء، ما معنى أن نسأل عن البديل لـ "ماك دونالدز"، أو السجائر الأمريكية، أو لعدة أشياء أخرى، فاليوم هناك على شبكة الأنترنيت 92 ألف وثيقة عن مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، ولكن عندما تأتي الشرطة أو تحاصر أناسا جاؤوا يطالبون بمقاطعة "الماك دونالدز"، فهذه مسألة ليست دفاعا عن الأمن أو الدفاع عن مصالح التجارة الحرة، الشعوب لها موقفها، فإذا بدأت المقاطعة الحقيقية، وأظن أنها بدأت لـ 3 و4 أو 5 بضائع، وإذا عملت الدول العربية مجهودات بسيطة بخصوص النفط، سيتغير الوضع.

الآن أمريكا تحس أن موقفها ازداد قوة داخل الدول العربية لأن جيوشها ومخابراتها ازدادت تغلغلا داخل هذه الدول، ولها الآليات الرسمية وغير الرسمية والتسرب داخل الجسم العربي... هذا الكلام قلته سنة 1957 حين حكمت على الجامعة العربية بالإعدام وقيل حينها إن هذا تطرف، حتى عبد الخالق حسونة كتب لي رسالة حول ذلك.

حقيقة، فتصريحات الوزير المصري هي نموذج للتفكير والعقلانية وعدم أخلاقية الحكم العربي المعاصر. كيف ترى أنت بهذه الطريقة أنك تضع ثمنا للأرواح وتضع ثمنا للكرامة. وفي نفس الوقت نجد تناقضا مع ما قاله مبارك الذي يقول إن الجيش وجد للدفاع عن الحدود، عن أية حدود يتكلم، وكيف تريد أن تبقى أي مصداقية أو ثقة ؟ فأنا تفاؤلي لم يصل في يوم إلى الدرجة التي هو عليها اليوم لأنه لدي اليقين التام والله أعلم ما هو اليقين، أن هذه الأشياء لا يمكن أن تدوم وهي ليست مسألة ثقة ولكنها مسألة حق وعدل ومشكلة

أخلاقية، فالاستثمار الحقيقي هو أن نعطي قيمة للاستثمار في الروح وقيمة الإنسان كيفما كانت نوعية حياته وكرامته، هذه هي التنمية الحقيقية، هذا هو التقدم، أما الباقي فهو بيع وشراء. فمثل هذا التصريح المصري هو حقيقة فضيحة للأمة العربية جمعاء.

□ الأيام : وما هو دور الإعلام في المسألة ؟

■ م. م. : في صحيفة ناطقة باللغة الفرنسية نجد في الصفحة الثانية عمودا لصحيفة من (وكالة المغرب العربي للأنباء) تحلل العلاقات مع أمريكا وفي نفس العدد نجد تحليلا فيه أن أمريكا هي العدو الحقيقي، وتجد أن إنسانا يتابع السياسة المغربية والآراء المغربية والاعلام المغربي حين يفتح جريدة لحزب له مواقف معروفة ويجد هذا التناقض الكامل بين مقالتين في نفس الجريدة، يمكن أن أقول إن المقال الآخر تابع للاعلام الحكومي المخزني... يجب أن يكون اتفاق على أن القضية الفلسطينية شيء مقدس ولا يجب استغلالها لأية غاية كيفما كانت.

8

الميغا إمبريالية(*)

«الأزمة العراقية أصعب لحظة تواجه العالم، وفي هذا الصدد نود أن تساهم بتعليقك على الدلالات التاريخية للحرب التي تقودها أمريكا ضد العراق كي نعمل على ترجمته إلى اليابانية وتوزيعه...

فنحن نعتبرك أنسب شخص في العالم الإسلامي يمكن أن يتطرق لهذا الموضوع». هذا مقتطف مما ورد في رسالة وجهتها وكالة "كيودو نيوز" اليابانية الرائدة في القارة الآسيوية إلى الأستاذ المهدي المنجرة تطلب منه مكاتبتها في موضوع الأزمة العراقية ودوافع بوش لشن حرب على العراق وآثار الحرب على المنطقة. وكذا علاقة هذه الأزمة بالقضية الفلسطينية وتفاعل مواطني الألفية الثالثة مع ما يحدث في العالم وما يمكن أن يلعبوه من دور إزاءها. بناء على ذلك جاءت هذه المساهمة باللغة الانجليزية التي ننشر ترجمتها النصية التالية :

تحتاج الأزمة العراقية إلى تمحيص كجزء من طفرة كبرى للنظام العالمي الذي انطلق مع انهيار الاتحاد السوفياتي وحرب 1991 على العراق.

إنها دلالات على اختلال النظام العالمي الذي يُلمس اليوم على مستوى دولي كما أبانت عن ذلك مسيرات الاحتجاج الحاشدة ضد الحرب في كل كل أنحاء الأرض منتصف فبراير الماضي.

فسكان الكوكب يدركون أن ما هو معرض للخطر ليس فقط مصير شعب العراق ولكن الرعب الكبير من نتائج هيمنة غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الدولية. فنحن تواجهنا "ميغا امبريالية". وعندما اندلعت حرب 1991 كنت قد

(*) كيودو نيوز، طوكيو، 12 مارس 2003.

وصفتها بـ "الحرب الحضارية الأولى" وكتبت "لا يمكن إيقافها لا بقرار مجلس الأمن ولا عبر حل دولي أو مؤتمر سلام. إنها نوع من المواجهة التي من المحتمل أن تدوم عشر أو خمس عشرة سنة آخذة مظاهر متعددة، ليست عسكرية بالضرورة لا سيما غداة القرن الحادي والعشرين الذي يؤشر على تحديات كبرى هي بالأساس حضارية، وليست سياسية واقتصادية".

فحرب 1991 ضد العراق لم تتوقف قط. وقد خلفت قبلا أزيد من مليون ضحية في صفوف المدنيين الأبرياء بما في ذلك نسبة كبيرة من الأطفال، ودمرت أهم البنيات التحتية في البلاد.

أما التحضيرات للهجمة المكثفة الجديدة فقد استغرقت شهورا من التشاور الدبلوماسي والاستراتيجي والعسكري، بما في ذلك إجراءات أولية لإعطائها "شرعية" من طرف الأمم المتحدة.

ومن ثم، فما نشاهده اليوم هو امتداد لعملية سيطرة دولية تتجلى أكثر عند مساءلة استقامة نتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة، والركود الاقتصادي، وأحداث الحادي عشر من شتنبر 2001 التي هزت عميقا شعور الأمريكيين بالمناعة. وتخوف من "إرهاب" أدى إلى انطلاق سلسلة من الإجراءات العسكرية والسياسية والاقتصادية والقانونية ذات بعد عالمي، تكرس الإرادة الامبريالية للولايات المتحدة الأمريكية.

ثم هناك طبعا النفوذ المتزايد للوبي العسكري الصناعي ولوبي شركات النفط، المقربان جدا من العاملين في إدارة بوش المتلهفين لإعادة رسم خريطة العالم.

"حرب حضارية ثانية" عبارة واردة في عنوان كتابي الأخير الذي صدر في طوكيو سنة 2001 تحت عنوان "الحرب الأفغانية" حرب حضارية ثانية ونهاية الامبراطورية التي بدأتها. فمفهوم "الوقائية" ليس جديدا، إنه مضحك في رأي الأطراف المعنية. السبب الحقيقي هو ببساطة الرغبة في استعمال القوة بكل أشكالها وتعابيرها للتأكيد على "عولمة" العالم والتحضير لإعادة رسم خريطته.

وعلى مسرح الأحداث ستسيطر مسألة القيم أكثر مما حدث خلال "الحرب الحضارية الأولى" لأن المشاكل هذه المرة ستمتد إلى باقي العالم لا سيما أوروبا، وإذا ما عدنا إلى سنة 1943، سنجد أن الفيلسوف "سيمون فيل" (Veil) كتب : "تتموضع أوروبا كواسطة مناسبة بين أمريكا والشرق. ونعلم جيدا، أنه بعد الحرب، ستشكل أمركة أوروبا تهديدا خطيرا، ونعلم كذلك ما قد نخسره، إذا حدث هذا. ما قد نخسره هو ذلك الجزء من ذواتنا القريب جدا من الشرق".

أخطر ما تصطدم به البشرية من جراء مذهب "بوش" هو سيطرة قيم تعتمد فقط على القوة العسكرية ولا تدع مجالا للتنوع.

ستكون النتيجة الفورية هو التدمير غير القابل للوصف والتقدير لما بقي من العراق، ومئات الآلاف من الأبرياء سيكونوا ضحايا هجوم همجي سيستخدم ويجرب أحدث الأسلحة المتطورة.

وربما قد يسير الوجود العسكري الأمريكي على خطى نموذج احتلال اليابان عام 1945. وستدرج التحضيرات للهجوم على إيران في تصميم إعادة رسم خريطة العالم. وستتم إعادة الرسم هذه بشكل أحادي على يد قوة وحيدة بخلاف ما سبق أن أقره مؤتمر برلين لعام 1885، عندما ذهبت إفريقيا ضحية بلقنة وتوزيع بين الأوروبيين. ولكن تكون العملية شبيهة باتفاق سايكس- بيكو الانجليزي الفرنسي لعام 1916 والذي قسم الشرق الأوسط إلى دوائر نفوذ.

وستصبح إسرائيل الدولة المحورية في هذا المشروع الأمريكي الجديد، الذي سيعزز احتلالها للأراضي ودورها كشرطي في المنطقة العربية، وستكون إسرائيل كذلك معنية جدا بأنشطة بترولية متعددة مثل بناء وتدبير خط الأنابيب الجديد الموصل- غزة. وهنا يمكن للمرء أن يقف عند ازدواجية معايير الأمم المتحدة والمجتمع الدولي. فليس هناك بلد خرق القرارات الأممية والمبادئ الدولية وحقوق الإنسان مثل إسرائيل. إنها تملك قدرات نووية لا يتوفر عليها

أحد ومع ذلك ستكون في مقدمة اهتمام صناع القرار المستحكمين في مستقبل الشرق الأوسط.

وقد تكون العربية السعودية أكبر خاسر في أي عملية تغيير بالمنطقة. وحتى بعض الأنظمة الموالية لأمريكا سيتم استبدالها، والادعاء السخيف بأن التدخل في العراق سيرسي مسلسل دمقرطة في المنطقة هراء ليس إلا.

يعلم كل واحد أن الولايات المتحدة مثل العديد من القوى الغربية تخاف من عمليات الدمقرطة في العالم العربي لأنها ستحدث حتما تغييرا جذريا في السياسات الخارجية للأنظمة الحالية.

كذلك، لن يبقى أغلب الذين يحكمون العالم العربي حاليا في السلطة أكثر من بضعة أشهر بدون دعم من الولايات المتحدة ومن بعض القوى الكولونيالية السابقة. فأزيد من نصف البلدان العربية ترابها ـ وقواعدها الجوية كذلك ـ مفتوح للجنود الأمريكيين وللتسهيلات الاستراتيجية والعسكرية. وبذلك فإن السلاح الحقيقي الوحيد في يد العرب هو البترول. فقد استخدموه سنة 1973 وليسوا مستعدين لتكرار ذلك بعد 30 سنة مضت. والشعوب العربية لا يمكن أن تبقى مغررا بها للأبد.

والإهانة لا يمكن أن يقبلها شعب لفترة طويلة. والدفاع عن الكرامة لا يمكن إلا أن يثير ردود فعل قد تكون عنيفة في طبيعتها. وستندلع "انتفاضات" جديدة في كل الوطن العربي الإسلامي مخلفة ثمنا اجتماعيا وإنسانيا كبيرا.

أما النظام البيحكومي بما في ذلك الأمم المتحدة وجل فروعها، والمنظمات الاقليمية مثل جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الاتحاد الافريقي وحركة دول عدم الانحياز ومنظمات أخرى، ستفقد ما بقي لها من مصداقية إذا كانت لها أصلا. ففيما يخص مثال جامعة الدول العربية فإن القمة الأخيرة التي انعقدت بمصر في 28 فبراير الماضي كانت خيانة

لا تصدق للقضية التي من المفروض أن تدافع عنها المؤسسات. ولم يعد مجلس الأمن الأممي مجمع سلام وإنما أضحى سوق بورصة إذا لم يكن سوق مواشي حيث تباع الأصوات وتُشترى.

كان رأيي منذ حرب 1991 على العراق أن النزاعين متشابكان. تعرض العراق للهجوم لأنه كان البلد العربي الوحيد الذي استثمر كثيرا في البحث العلمي فأضحى يشكل تهديداً على إسرائيل. واعتقد بعض الزعماء الفلسطينيين خطأ في الوعود الأمريكية بأنه بعد حرب 1991 على العراق ستنطلق مفاوضات سلام جديدة لإنشاء دولة فلسطينية. وهكذا بدأت مؤتمرات مدريد وأوسلو التراجيكو ميدية. ما اصطلح عليه بـ"عملية سلام" لم تثق به معظم الشعوب العربية، عملية ساندها زعماء عرب انتهازيون ظلوا يبيعون فلسطين إربا إربا على مدى نصف قرن.

ومرة أخرى، يمكن تكرار السيناريو ذاته، التحرر لا يأتي أبداً من الخارج. هذا هو الدرس الذي ستستخلصه الشعوب العربية الإسلامية من احتلال جديد، ينضاف إلى الاحتلال الذي يعاني منه آخرون. وأعتقد أن هذا سيكون إيذانا بانتهاء منظمة التحرير الفلسطينية، لأنها كما نعلم تنازلت كثيرا دون الحصول على نتائج ملموسة للفلسطينيين الذين يعانون من إحدى أكبر المظالم في التاريخ المعاصر.

اليابان بلد عرف الاحتلال بعد تدمير نووي شامل لمدينتين من مدنه. احتلال لم ينته بعد في الواقع كما يدل على ذلك غياب كلي لسياسة خارجية يابانية مستقلة. وهو واقع أكثر من مثير للحيرة بالنسبة للدول العربية الإسلامية إذا لم نقل بالنسبة لجل دول العالم الثالث. فأين تختفي قوى اليابان الاقتصادية والمالية والعلمية والتكنولوجية والثقافية عندما ينبغي ترجمتها إلى سياسة خارجية قوية متناسبة مع هذه الإمكانيات ؟ كيف ستتمكن اليابان من الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن إذا كانت مواقفها عن القضايا المحورية كالحرب والسلم مجرد صورة باهتة لمواقف الولايات المتحدة ؟

مهما يفعل العراق، فلن يحول دون وقوع هجمة عسكرية أمريكية. والملفت أن قبول كل قرارات مجلس الأمن الأممي ومطالب المفتشين الأممين عمل فقط على تدعيم الاستخبارات العسكرية الأمريكية ومحا بالمقابل أي قدرة دفاعية للعراق، وهذا المعطى ساهم فقط في تطوير القدرة التدميرية للتدخل العسكري الأمريكي.

لقد تعرضت بغداد للتدمير عام 1520 من طرف المغول، ومن المحتمل جدا أن تتعرض مجددا للتدمير عام 2003. فالمغول الجدد لا يحترمون حياة البشر فحسب، بل ويجهلون قيمة كنوز ثقافية لحضارة عمرت عدة ألفيات حتى منظمة اليونسكو التي يوجد حاليا ياباني على رأسها تلزم الصمت كما كان الشأن خلال حرب 1991. شيء واحد مؤكد، لن يبقى العالم كما هو عليه الآن، ومهما تكن الطريقة التي سيعاد بها رسم خريطته، فإن الولايات المتحدة ستدخل في فترة اندحار قد تدوم بين 15 إلى 20 سنة على الأكثر. والخاسر الأكبر لن يكون سوى الحضارة الإنسانية التي عجزت رغم تقدمها في كل مجالات المعرفة عن تسخير هذه التطورات للدفاع عن الكرامة وخدمة السلم.

لا يجب أن ننسى أننا نتحدث عن عالم عربي إسلامي عانى من نزاعات خلفت عشرة ملايين ضحية، وهذا يفوق بمائة ضعف العدد الاجمالي لضحايا الحروب الصليبية الثمانية والتي خلفت 100 ألف ضحية. عندما ستأتي لحظة الحقيقة ستكتشف شعوب العالم الإسلامي كيف تكون التحالفات الحقيقية وكيف تصبح المصالح عرضة للخطر في زمن الحرب، وفي نهاية المطاف هذه التحالفات ذات طبيعة حضارية صرفة.

لا يجب أن يكون هناك اندهاش من الكيفية التي سيرد بها 1,5 مليار شخص على الشرخ الثقافي دفاعا عن كرامتهم، والسؤال الذي يطرحه كل شخص في هذا الجزء من العالم هو أين هي اليابان من هذا النزاع ولماذا هي متحيزة ؟

وكما كان يردد دائما البروفسور "يوزو إيتاغاكي" أحد أبرز المتخصصين في قضايا العالم العربي الإسلامي : "اليابان بصدد فقدان مكسب ثمين جدا : ثقة العالم الإسلامي". اليابان بلاد تولي أهمية ثقافية كبرى لمفهوم "الاحترام" ولأدواره ومكوناته. والسؤال اليوم هو ما إذا كانت تقبل أن تطبق هذه المقاربة احتراما لحياة أناس يواجهون خطر إبادة شبيهة بتلك التي ذهب ضحيتها مواطنون يابانيون قبل 58 سنة في هيروشيما وناغازاكي.

وحتى اليوم، الحضور العسكري الأمريكي في اليابان لا يزال واقعا، وسابقة لا يجب أن تغيب عن الأذهان، لا سيما في عالم أحادي القطب.

السلام هو أنجع سلاح للعمار الشامل.

9

الليبرالية الجديدة والمخزن الجديد(*)

□ **لوجورنال** : كيف تحللون الوضعية العامة للبلاد ؟

■ **م. م.** : إننا نعيش مرحلة تتعرض على المستوى المفاهيمي والتحليل إلى ضرب من الاختزالية. وهي اختزالية تتميز بوجود فكر أحادي أو بالأحرى تجمّع للكثير من التوجهات الفكرية الأحادية التي لا تشكل في حد ذاتها وحدة. فالتنوع الفعلي يكون متعدد المواقع والقيم ويُنتظر منه أن يكون في الأصل ضربا من ضروب الإجماع يخص ما ينقصنا في المغرب وفي بلدان العالم الثالث، أي على مستوى الرؤية.

الأزمة الحالية تتميز بغياب الرؤية، وذلك لسبب بسيط يتمثل في أن المتخيل لا ينمو في تربة تخنق فيها الحرية.

والحرية التي أتحدث عنها تتمثل في الحالة الفكرية، وفي الانفتاح والتواصل مع الآخر.

□ **لوجورنال** : لكن في نظركم إلى م يعود ذلك ؟

■ **م. م.** : أعتقد أن البناء المتراص والأحادي الذي ورثناه في المستوى الإيديولوجي وفي بنيات الأحزاب السياسية لم يعد يستجيب لتحديات القرن الحادي والعشرين. فقد تركت لنا أوروبا نظاما سياسيا كان متقدما على عصره وكان يشكل تقدما في تاريخ الإنسانية. وهذا أمر نلاحظه على مستوى المؤسسة البرلمانية والدستور ومفاهيم حقوق الإنسان. تبعا لذلك، لا يمكننا

(*) لوجورنال الأسبوعي، الدار البيضاء ، 22-28 يناير 2000 (أجرى الحوار عزيز خمليش).

بالمقابل تسيير عالم القرن الحادي والعشرين بمؤسسات القرن التاسع عشر، ولو عدلناها وأعدنا صياغتها وأولناها عبر ما نعيشه، أي المخزن.

وإذن، فإننا نعاني من التأخر. وهو تأخر نابع مما نحاول محاكاته أو تقليده حرفيا. صحيح أننا يمكننا أن نحاكي أحيانا بإبداع، لكننا غالبا ما لا نقوم بذلك. والحال أننا عندما نقلد بعماء فإننا دائما نعاني من التأخر بخطوة. وفي هذا الإطار يمكننا أن نقدم مسألة إصلاح التعليم، التي تشكل في نظري نسخة شبه حرفية للنص الفرنسي، وهو ما يثبت أننا متأخرون بخطوة. وهذا هو ما يميز مرحلة ما بعد المخزن.

في مرحلة المخزن، كانت الأمور واضحة جلية. فحين دخل ليوطي المغرب، كان يعلم على أي مؤسسات سينشئ نظام الحماية والاستعمار. وقد اختار تلك المؤسسات واستغلها لمحاربة أولئك الذين كانوا يدافعون عن الحرية كابن عبد الكريم الخطابي وآخرين غيره.

وبعد الاستقلال، أخذ ما بعد المخزن أو ما أسميه ما بعد الليبرالية هذه المؤسسات وتركها قائمة. أولئك الذين تملكوا مقاليد السلطة بدأوا يصرحون بأننا لا يمكننا أن نغير ما هو قائم بين عشية وضحاها، وأننا لكي نستمر على قيد الحياة ونبقى في السلطة علينا ألا نخلخل الوضع القائم، أي واقع الأمر. وإيكس ليبان كانت هي هذه الوضعية.

❑ **لوجورنال : وإذن ما هو الفرق بين ما بعد الليبرالية وما بعد المخزن ؟**

■ **م. م.** : ما بعد المخزن اليوم هو الشيء نفسه، بما أنهم اعتقدوا أن تغيير المؤسسات ممكن بتشريعات لا تنبع من الشعب. ليس ثمة دستور تشريعي، والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد هو: ما هو مصدر السلطة ؟

أعتقد أن الأمر لا يتعلق بنقاش شكلي.

ففي بداية الاستقلال، فضلت عدم الاشتغال في المجموعة الصغيرة التي كونها المغفور له الملك محمد الخامس في يونيو 1960 كي تقدم له الاقتراحات

المتعلقة بتبني الدستور. كانت المجموعة تتكون من خمسة أو ستة أشخاص اثنان منهما أصبحا وزيرين أولين في ما بعد. وكان السبب في ذلك بالغ البساطة، فهو نابع من مبدأي المتعلق بصياغة الدستور. وقد اتخذت هذا الموقف منذ أربعين سنة، ولن أغيره.

□ **لوجورنال :** لكن ما الذي تؤاخذون به الآخرين الذين شاركوا في الحياة السياسية؟

■ **م. م. :** الحركات السياسية التي شكلت أحزابا وبلورت أرضيات ونادت بالدفاع عن التقدمية، قبلت الوضع بشكل عملي قريب من الانتهازية من الناحية السياسية، ذلك لأنها لم تكن تتوفر على مشروع مجتمعي.

□ **لوجورنال :** ما الذي تدعون إليه لمواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين؟

■ **م. م. :** هناك مفتاحان وعمادان لمواجهة القرن الجديد.

أولا التضامن في الفضاء، وهذا يعني المشاركة، طبعا ليس المشاركة الخيالية في انتخابات مغشوشة. ففي هذا الإطار علينا التمييز الدقيق والضروري: فهناك فرق بين الشعبوي الذي يمارس الديماغوجية انطلاقا من الشعب كي يبلغ مراميه، وهناك الديمقراطي المقتنع الذي يعتقد أن مهمته تتمثل في الإنصات للذين سيخدمون الديمقراطية لا العكس.

وحركة الاستقلال كانت تجسد التضامن في الفضاء. فكنا نحس بأن الجماهير لا تقبل بالهيمنة، وكان ذلك يترجم لديها بواسطة الفعل النضالي. لكن ما إن استوفي هدف الاستقلال حتى غدا الشعب عائقا إلى حد أنهم أرادوا حكم البلاد بلا جماهير. وقد صرح وزيرٌ للتربية الوطنية يوما : "لن يكون لدي مشاكل لو لم يكن هناك طلبة".

□ **لوجورنال :** هل يتعلق الأمر بدائرة مفرغة ؟

■ م. م. : يتعلق الأمر بالأحرى بنظام. فحين تكون لدينا بعض العناصر تنبني الأخرى لوحدها، لكن إذا ما نقصت وحدة واحدة فإن البنية لا تتشكل بتاتا. والتخلف هو هذا، أي ذلك العجز عن امتلاك رؤية، أو بالأحرى غياب الحلم. فالتخلف هو الوضعية الناجمة عن قتل الحلم.

□ **لوجورنال** : ألا يتعلق الأمر هنا بضرب من الطوباوية أو الفوضوية ؟

■ م. م. : في كل مجتمع يتم السعي إلى تأطير الناس، وهو ما يقع أيضا في كل المؤسسات، ودور الحلم يتمثل بالضبط في وضع كل شيء موضع تساؤل.

قال أحدهم يوما : "الحقيقة العلمية الوحيدة هي أن حقيقة اليوم ليست هي حقيقة الغد". بعبارة أخرى، يمكننا القول بأن تجديد البنيات الذهنية هو ما ينقصنا في البلدان السائرة في طريق النمو. ففي هذه البلدان لا يتم تشجيع أولئك الذين يسعون جاهدين للتفكير. وإذن، حين نقوم بتقييم حصيلة تاريخ البشرية ما الذي يتبقى لنا ؟ كم من رؤساء جمهوريات وملوك ووزراء خارجية؟ حين نأخذ الشعراء والكتاب والعلماء الكبار، نلاحظ أنهم كانوا يمتلكون رؤى ويضعون الحس المشترك موضع تساؤل.

غير أن المنتمي لبلد متخلف لا يشكك أبدا في نفسه أو ينتقدها، لأن ليس ثمة من سيحاسبه. فالتخلف هو الوضاعة. ولكي يبقى المرء على قيد الحياة يلزم أن يكون غير كفؤ. فالكفاءة تزعج، لهذا يتم تفضيل اللجوء إلى الأجانب.

□ **لوجورنال** : بهذا الصدد، ما موقفكم من هجرة الأدمغة ؟

■ م. م. : كنت أقول في ما قبل للذين كانوا يستشيرونني في هذا الأمر: "عودوا لبلدكم ؟" واليوم أقول: "لا، امكثو هناك حيث تتفتق مواهبكم". فحين أعود للمغرب باعتباري باحثا، أزيح الخيط الكهربائي الواصل وأشتغل فقط بالبطارية، لأن الخيط الكهربائي لا يشتغل هنا. وحين تفرغ البطارية أروح للخارج لشحنها. بعبارات وجيزة، ليس نقدي موجها للحكومة ولا للملكية، ولكن للنظام. وهذا الأخير هو ما يتطلب المراجعة وإعادة التفكير.

□ **لوجورنال : وما العمل إذن ؟**

■ **م. م.** : علينا البحث عن الطريقة الملائمة لدفع الجماهير إلى المشاركة حتى تستطيع أن تقول لك ما يلزم عمله. أما اليوم، في العالم أجمع، لا تقدم ممكن بغير استطلاع رأي الجماهير. والحال أن ما يتميز به نظامنا هو أننا نشتغل بـ "التفقيرقراطية"، أي أن الفقر يصبح نظاما للتدبير والحكم، وهو ما يفسر تفاقم هوة الفوارق من الاستقلال إلى يومنا هذا.

من ناحية أخرى، يتميز نظامنا بأولوية "الجهلُقراطية"، ذلك أننا بما لا يقل عن 57 بالمائة من نسائنا الأميات، كيف تريدون أن يكون البلد مسيرا تسييرا جيدا، في الوقت الذي نتحدث فيه عن مجتمع المعرفة ؟

لنتخيل على سبيل المثال أننا في الغد سوف لا نتوفر إلا على 20 بالمائة من الأميين، فهل ستكون لدينا نفس الحكومة التي لدينا اليوم؟ وهل سيكون لدينا نفس البرلمان ؟ ونفس المديرين العامين للشركات العمومية التابعة للدولة ؟

طبعا، هناك البعض من الناس الذين يفهمون النظام، وثمة تتكون التحالفات. والمعيار الثالث للنظام يتمثل في "الشيخوخقراطية". فحين ننظر إلى هرم الأعمار فإننا نلاحظ إلى أي حد تنقصنا الديمقراطية في توزيع الأعمار باعتبار أننا محكومين بأناس شيوخ في حين أن ثلثي الجماهير شباب.

أما المسألة الرابعة لنظامنا فهو ما أسميه "الكذبُقراطية"، أي حين يغدو الكذب شكلا للحكم. فالكذب خطير لأن ذلك الذي يكذب يبدأ في الاقتناع بأنه على حق وأنه لا يكذب. وحين يقوم المرء بذلك فإنه يفقد كل مصداقية.

وأخيرا حتى نختم، أود أن أتلو عليك قولة لفرانسوا مورياك تعود إلى 1941 يقول فيها : "إن الدخول في السياسة ظل يعني دائما التخلي عن الآداب، والوزراء المثقفون الذين رغبوا بين وزارتين في العودة لميدان الثقافة لم يخلفوا سوى كتبا طالتها عدوى اللغو والكذب السياسي... فالصدق تجاه النفس، وهو عكس السياسة تماما، هو اليوم محك للتعرف على كاتب ما".

10

المغرب يعتمد سياسة الخنوع[*]

☐ **لوجورنال** : كيف تحللون واقع العلاقات المغربية الأمريكية ؟

■ **م. م.** : تعود العلاقات بين البلدين من الناحية التاريخية إلى الماضي البعيد. وقد عرفت منعطفا ومراجعة بمناسبة أحداث 11 شتنبر 2001. ويمكننا القيام بمقاربة تاريخية أو حدثية للأمر، غير أن المقاربتين متكاملتان. صحيح أن المغرب كان أول بلد اعترف بالولايات المتحدة سنة 1777، وعشر سنوات بعد ذلك تم توقيع معاهدة الصداقة الشهيرة بين البلدين، لكن علينا هنا أيضا أن نضع الأمور في سياقها التاريخي. فقد كانت سياسة الولايات المتحدة آنذاك تتمثل في المراهنة على امتلاك البحار، وكان المغرب مشهورا وقتئذ "بقراصنته" ويتمتع بحرية كبيرة في الملاحة البحرية. وهكذا كان الأمريكيون مضطرين للاعتراف بالوجود المغربي. وقد تأكدت هذه الوقائع بتوظيفها في تاريخ استقلال المغرب.

ففي سنة 1947،كان المهدي بنونة أول من سافر إلى الولايات المتحدة لتقديم نص عن وضعية المغرب في هيئة الأمم المتحدة. وكل ما تم نشره ابتداء من 1951عند إنشاء مكتب استقلال المغرب تحت إشراف المهدي بنعبود كان يحيل إلى هذه العلاقة بين البلدين. وقد تم الاستناد كثيرا إلى التاريخ المغربي من خلال الانطلاق من المبادئ الديموقراطية. ففي ذلك الوقت كان من المعروف أن أي إشارة إلى استقلال شعوب بلاد المغرب العربي في الأمم المتحدة لا يتم من دون موافقة بيّنة للولايات المتحدة. وعلينا أن ندرك أن الولايات المتحدة

(*) لوجورنال الأسبوعي، الدار البيضاء، 11-17 يناير 2003 (أجرى الحوار معاد راندي).

كانت في تلك الفترة في خضم معركة إيديولوجية مع الشيوعية، علاوة على حروبها في آسيا. من جهة أخرى، كانت تلك فترة الماكارثية، التي لا نزال نعيشها إلى اليوم في شكل "مطاردة السحرة" بعد 11 شتنبر. إن التطرف الديني الأمريكي لا مثيل له في أي بقعة من بقاع العالم، ولا حتى في البلدان الإسلامية، خاصة من خلال التحالف السائد بين اليمين المسيحي المتطرف واليمين اليهودي المتطرف.

❑ **لوجورنال** : كيف يمكننا تقويم العلاقات بين المغرب والولايات المتحدة بعد انهيار حائط برلين ؟

■ م. م. : المغرب يتبع خطى الولايات المتحدة، غير أنه ليس الوحيد في ذلك. فالمشكلة في العالم تتمثل في ما أسميه بالفاشية العالمية الجديدة القائمة على النفوذ والشطط في السلطة. أيُّ بلد لا يوجد اليوم في تبعية تامة للولايات المتحدة؟ أنا لا أدافع عن السياسة المغربية، على العكس من ذلك، أعتبر أنها سياسة الخنوع، وليس ثمة من كلمة أخرى لتعيين ذلك، إنه خنوع متزاوج. السياسة الأمريكية ناجمة عن عنصرين: القوة التي يتمتع بها هذا البلد بالرغم من أن شوكتها قد انهدت أحيانا، وسطوتها السيكولوجية النافذة على الحكومات. فأسطورة أمريكا التي لا يصيبها مكروه قد تحطمت، وهذا البلد اليوم يعيش أزمة ثقة حقيقية تفسر ردود الفعل المغالية لمواطنيها. وفي الجهة الأخرى، في بلدان العالم الثالث، حيث ليس ثمة من حكومة متصالحة مع جماهيرها، تتنامى الشروخ والفجوات ونزعة الخوف. وفي هذا السياق هناك من جهة قوة عالمية هي الولايات المتحدة لها القدرة على شراء الناس، وفي الجهة المقابلة ثمة حكومات خائرة القوى وتوافق على سياسة الخنوع.

لا يتعلق الأمر هنا بالمغرب فقط، فنحن بلد يعيش الاستعمار الثقافي الفرنسي، والاستعمار الاقتصادي من قبَل البنك الدولي، والاستعمار العسكري والسياسي من قبَل الولايات المتحدة. ففي مقال صدر يوم 14 شتنبر 2002 توضح جريدة "السان فرانسيسكو كرونايكل" : "بالرغم من الصورة التي تحظى

بها الولايات المتحدة كصديق للعالم العربي فإن حكومات هذه البلدان لا خيار لها بخصوص الموقف من الحرب في العراق". لنلاحظ التناقض : إنه يتحدث عن بلدان صديقة وليس لها الخيار...

☐ **لوجورنال** : وهل لقادتنا نحن الخيار في الأمر؟

■ **م. م.** : سيكون لهم الخيار إذا ما هم استندوا إلى جماهيرهم. حين بدأ محمد الخامس في سلسلة من المفاوضات بين 1956و1959 وبرفقته عبد الله ابراهيم، ووراءهما جماهير موحدة الكلمة، استطعنا أن نتوصل إلى رحيل كل القوى العسكرية الأجنبية. وفي ذلك الوقت، كان العاهل المغربي قد وقع معاهدة مع إيزنهاور تقضي بترحيل القوات الأمريكية من التراب المغربي. بيد أن القادة المغاربة سعوا، في ما بعد، إلى نوع من الأمان بطلبهم العون من الأجانب بدل البحث عنه لدى جماهيرهم. حين يقترح السيد باول أن يقدم لنا درسا في الديموقراطية، أعتقد أنه لم ينس الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان التي تمارسها الولايات المتحدة بلا خوف أو وجل في كل مناطق العالم، بل وحتى داخل البلاد نفسها. فمنذ عام صادق الكونغريس الأمريكي على قوانين تمكن البانتاغون من تجاوز التشريعات الأمريكية. بل تم اعتبار الكذب والافتراء وسيلة للدفاع الوطني.

فحين تساند الولايات المتحدة القتل اليومي للأبرياء الفلسطين من قبَل الإسرائليين، وحين تساند الأنظمة الرجعية، كيف تسمح لنفسها بالعجرفة وتتحدث عن حقوق الإنسان والديموقراطية؟ بل الأسوأ من ذلك، فالسيد باول يمنح ميداليات للمغرب والبحرين وقطر في هذا المضمار. أستطيع أن أتفهم الأمر في ما يخص البلدين الأخيرين، لأنهما يمكّنان الولايات المتحدة من تطبيق سياستها في الخليج، لكن بخصوص المغرب أترك لكم تخمين الأمر... فما يصدم أكثر في هذه القصة هو خطاب وزير الشؤون الخارجية الذي يعبر عن سعادته لأن المغرب قد وُضع في خانة التلاميذ المجدّين. كيف لا تتمرد

الجماهير حين يتجاهل قادتها مواقفها وتطلعاتها. لقد أبان تشكيل الحكومة الأخيرة أن أحزابنا السياسية لم تستطع التقرب من الجماهير، ولذا فمن الطبيعي أن تستغل قوة عالمية كالولايات المتحدة الفراغ الحاصل في كل الميادين.

☐ **لوجورنال** : بعد أحداث 11 شتنبر 2001، أقامت المخابرات المغربية علاقات وطيدة مع نظيرتها الأمريكية. كيف تحللون هذا التقارب؟

■ م. م. : أعتقد أن كل مواطن، مهما كان جرْمه، يلزم أن يمر بمسطرة قانونية. أما في ما يتعلق بالتقارب بين المخابرات المغربية والأمريكية فعلينا التنديد به. فليس بهذه الطريقة يتم التعامل مع مواطنينا. لقد أقام حكامنا ما أسميه "خَوْفوقراطية" حيث الخوف يلجم كل مواطن. لكن تيقنوا أن الولايات المتحدة كلما توصلت إلى تحقيق مشروع من مشاريعها، فذلك لأن ثمة كيانا أمامها قد أراد قبوله.

11

قوة الولايات المتحدة تكمن أساسا في ضعفنا(*)

قبل الشروع في استجواب د. المهدي المنجرة الأسبوع المنصرم بخصوص العدوان الأمريكي الجديد على العراق، ارتأى خبير الدراسات المستقبلية المغربي أن يقدم بداية تأطيرا للموضوع، يحدد من خلاله رؤيته لما يقع واستشرافه لمآل الوضع الجديد للعلاقات الدولية من زاوية مقاربة مفاهيمية تسند طرحه الذي يعتبر الحرب القائمة حربا حضارية بامتياز.

أقول، انطلاقا من تجربتي الطويلة في مجال الدراسات المستقبلية، إن التخلف، هو قبل كل شيء، نوع من الهوة ما بين الوقائع وتوقعها. فإذا كنا نستغرب حين تقع الواقعة، فهذا تخلف وبرهان على عدم توقع وانعدام نظرة على المدى المتوسط وعلى المدى الطويل، وهذا برهان على عدم وجود رؤية، وأنك تعيش من يوم لآخر برؤية الآخر، باستراتيجية الآخر، وأنه لا يصدر دائما عن المتخلف إلا رد فعل وليس المبادرة الأولى.

إذن في هذه القضية (الحرب على العراق)، وهذا ما أسميه التخلف، بالنسبة للعراق، نجد أننا في هذا الجانب، على الأقل، لم نتعلم أشياء ناجعة. ما حصل في العراق منذ 1991 كان ينبئ بعدة أمور، وقد كتبت ذلك في "الحرب الحضارية الأولى"، هذه بداية سلسلة ستدوم من 15 إلى 20 سنة على الأقل، فليست هناك ضربة أخرى.

(*) أسبوعية الأيام، 27 مارس - 02 أبريل 2003 (أجرى الحوار أنس مزور).

فالحرب ضد العراق لم تتوقف، وهي مستمرة منذ بدايتها، وعدد الضحايا معروف. الشيء الأساسي تربويا، بالنسبة للبيداغوجيين، هو مسألة التوقع، وأعطيك مثالا بسيطا جدا، هو ما هي المعايير التي تعطي لها القيمة ؟ فالناس مشغولة بالنفط، بالأسلحة، منذ 1991 ونهاية الامبراطورية السوفياتية، كان لأمريكا هدف واحد هو أن تصبح القوة الوحيدة في العالم، والسلاح الأساسي هو سلاح القيم.

في غشت 1990، قال بوش الأب : "لا يمكن أن نسمح لأي كان أن يمس قيمنا ونوعية حياتنا"، ثلاثة أيام بعد ذلك، قلت في الإذاعة الفرنسية الدولية، ستكون هناك حرب. وأخيرا، قبل ثلاثة أشهر، قال بوش الإبن نفس الكلام، ففهمت هذه القيم، وهذا من خلال تجربة ثلاثين سنة في الأمم المتحدة. إنه في المستقبل، ومنذ الآن، الناس لن تتحارب على المواد الخام ولا على النفط ولا على الأموال، بل ستتحارب على من سيستغل قيمه ويضغط على الآخرين، وهذا نوع من التحليل نجده عند ابن خلدون، الذي يقول بأنه لما تتغلب قبيلة على قبيلة أخرى، أول شيء تقوم به القبيلة المنتصرة هو فرض قيمها، ونجد أن القبيلة الخاسرة تظن أن قوة الأخرى في لباسها أو لغتها وسلاحها، ويصير نوع من التقليد، وهذا في اللغة المعاصرة هو العولمة، فالعولمة ليست حركة خاصة بالاقتصاد ولا الليبرالية... بل كيف يمكن أن أفرض عليك قيمي... فالحرب حضارية، وبالخصوص على كل ما هو غير يهودي - مسيحي، فبوش تكلم عن الحروب الصليبية، وأخيرا قبل يومين في "لوموند"، جاء في رأس صفحتها : "الحرب الصليبية العاشرة".

وبما أننا نتكلم عن الحروب الصليبية، فأنا أعتبر أن الحرب الحالية حرب صليبية معاصرة جديدة. ويجب أن نعرف أنه خلال الحروب التسعة الأولى، وصل مجموع الضحايا إلى 100 ألف، وهذا تقدير لباحثة يابانية، وخلال العقد الأخير فقط، وصل عدد الضحايا في العالم الإسلامي إلى عشرة ملايين.

إذا سمحت لي، أرجع إلى الوراء، ففي سنة 1991، عندي مقال جاء فيه : ما هي الأسباب الخمسة لحرب الخليج ؟ أولها أن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تحاول إعادة ترتيب النظام العالمي الجديد، باعتبارها القطب الوحيد بعد تحلل القطب السوفياتي كقوة للتوازن، لم تستسغ أن تكون في منطقة الخليج العربي، بإمكانياته البترولية وحيويته الاستراتيجية، قوة، وهي العراق، هذا هو السبب الأول للهيمنة.

ثانيا، إن العراق عندما استطاع تحقيق استقلاله التكنولوجي عن الغرب، ليس مثلنا نحن التابعين للغرب وسفارات أمريكا وفرنسا والبنك العالمي والخبراء الأجانب، فالعراق عندما وصل إلى الاستقلال العلمي والتكنولوجي، حيث يعتمد على الذات، وعنده خبراؤه الذين بإمكانهم تطوير قدرته التسلحية، حاول واستطاع تحقيق هذا الاستقلال التكنولوجي عن الغرب، فأصبح يهدد المصالح الغربية كلها، وتهديد أسواقه ببيع التكنولوجيا الجاهزة، لهذا نراهم اليوم لا يبحثون إلا عن العلماء.

السبب الثالث أن الآلة العسكرية العراقية حققت خبرة وقوة أصبح من شأنها تهديد الكيان الصهيوني المزروع.

فالمنطقة، كقاعدة للغرب الصليبي وللولايات المتحدة الأمريكية، خاصة هذا السبب، الخوف من توصل العراق إلى امتلاك سلاح الدمار الشامل. يجب عليك ألا تهدد إسرائيل، فأي واحد يريد تهديد إسرائيل يعرض نفسه للخطر.

السبب الرابع، أن الغرب أدرك قوة العراق الحضارية، كمهد للثقافات وكأرض للذاكرة العربية والإسلامية، الشيء الذي يهدد أطماعه في سيادة ثقافته وقيمه الغربية ضد كل الثقافات الإسلامية وغيرها. هنا دخلنا في مسألة القيم، لأن العراق كبلد، بدأت فيه الكتابة، بلاد الموسيقى، المقامات، فيها بدأ العلم، إذن، مرجع ومكان عنده قوة لا توجد في أي بلاد عربية أخرى.. بلاد تشجع، ولا زالت، البحث العلمي، فجزء كبير من ميزانيتها مخصص له، وهذا ما لا نجده في أي بلاد عربية أخرى.

خامس هذه الأسباب، أن الغرب، كما يرسم في السيناريوهات، مضطر لتجديد ربط خيوط التبعية إليه، بعد تآكل الاستعمار القديم، ولهذا، أسميتها مرحلة ما بعد الاستعمار، فالتحاليل نعرفها ونراها. فما هي الأسباب التي تغيرت هنا ؟

في الكتاب نفسه، أي "الحرب الحضارية"، الذي جاء قبل كتاب هانتنغتون، كتبت أن العراق أرض لتجريب الأسلحة، ففي الحرب الأولى على العراق، تبين أن الأمم المتحدة ضيعت كل مصداقيتها. أنا لم أنتظر، فلقد اشتغلت فيها 20 أو 25 سنة، لم أنتظر عام 2003 وما حصل في مجلس الأمن لأقول بأن هذه المنظمة لم تعد لها أية مصداقية، فهذا شيء واضح منذ زمن ليس بالقريب، وأمريكا استغلت، وما زالت تستغل، الأمم المتحدة، كآلة مادامت بيدها، فهي التي ساندت الأمناء العامّون بالخصوص من بعد بيرس ديكويلار، بما فيهم بطرس غالي وكوفي عنان، وهما آلة تابعة للبيت الأبيض وللبنتاغون.

أنا دُهشت عندما رأيت أناسا يتفاجؤون من أمور واضحة وجلية منذ سنوات، لكن ما هو الفرق ؟ الفرق هو أن السياسيين وقادة الحكم ليس في استطاعتهم رؤية ما هو أبعد من أنوفهم، ما يهمهم هو بقاؤهم في الحكم، والآن، ماذا سيحصل في العراق ؟ هذا ما كتبته في كتاب آخر هو "انتفاضات". سنرى كل نظام عربي، وأركز على عبارة "كل"، يسقط كما تسقط قطع الدومينو الواحدة تلو الأخرى، إما بدفع من أمريكا، وسيبدأ الأمر بالدول الأقرب إلى الولايات المتحدة، والتي هي دول النفط على الخصوص، والتي عن طريقها، وصلت الولايات المتحدة للدرجة التي هي فيها. الأنظمة التي ضغطت مع أمريكا على العراق، وحاربت دولة عربية مسلمة، هذه الأنظمة هي الأولى التي ستدخل إليها التغييرات، أما بقية الأنظمة وبقية الحكومات فلا مستقبل لها، لأنهم برهنوا على انعدام روح تعاضد إنسانية كحد أدنى. فقد برهنوا أنهم، بدون استثناء، آلات استعمارية ويد للمخابرات الأجنبية والقواعد العسكرية الأجنبية في بلدانهم. وبرهنوا، بهذه الطريقة، عن الفجوة العظيمة التي توجد بينهم وبين شعوبهم.

فالمسألة مسألة وقت. في الدراسات المستقبلية، عندما نتحدث عن التغيير، نتحدث بمفهوم الأجيال على الأقل 20 أو 30 سنة، فكلامي هذا ليس مثل وجبة همبوركر جاهزة للأكل السريع. هذا الزلزال الذي وقع في الحرب الأولى، الآن يتضح أكثر فأكثر مع الوقت، وهذا شيء مهم جدا كتغيير في المنطقة. لكن يجب ألا ننسى أن هذا الاستعمار الجديد، وأنا استعملت هذه العبارة في استجواب مع وكالة الأنباء اليابانية التي اختارت ثلاثة أفراد لإجراء استجواب عن العراق، الأول أعطى الرؤية الأوربية، والآخر الرؤية الأمريكية، وطلبوا مني أن أعطي رؤية العالم العربي والإسلامي، فتكلمت عما أسميته الميغا ـ امبريالية.

نحن لم نبق في الامبريالية والهيمنة، بل دخلنا الميغا ـ امبريالية، وهي شيء جديد في العلاقات الدولية وفي التطور الإنساني، لأن دولة لها إمكانيات من الناحية العسكرية، قوة الهدم والتحطيم، تقتل 50 أو 60 مرة مجموعة السكان فوق الكرة الأرضية، وليس هناك أي أحد يمكنه أن يتحكم فيها، فهذا لم يحصل في تاريخ الإنسانية، وهذا يحدث الآن لأن عدة دول، بما فيها الدول الغربية قبلت بالوضع كما هو عليه. هذه التغييرات ستأتي وسنراها تدريجيا، والأجيال القادمة بالخصوص ستراها، ولكن لا ننسى دور ما أسميه، من الناحية الثقافية، بالاستلاب. فلا يجب أن ننسى أن جزءا مهما مما يسمى بالنخبة السياسية والفكرية في العالم العربي، والتي برهنت عن انتهازية، ولم توجد في التاريخ في أية منطقة أخرى أو أية حضارة أخرى، إلى أية درجة كانت تتعامل مع الارتزاق، سواء كان سياسيا داخل بلدانها، أو الارتزاق في التعاون مع الآخر، وارتزاق في الدفاع عن أطروحات أخرى، فيه استعمال كلمات وعبارات كوسيلة للقطع تماما مع شعوبهم.

فالحداثة كلمة فارغة لا معنى لها عند رجل الشارع، وليس لها حتى معنى عند الغرب، أتحدى أي أحد أن يرد ويكتب مقالا ويسميه الحداثة، ففي فرنسا هذا شيء كان في القرن 19.

ما معنى الحداثة اليوم ؟ الأحداث الدقيقة التي أتحدث معك بخصوصها للتوّ، ستصير ماضيا، أي التحديث، أما الحداثة، فكلمات نأخذها ونكررها، فهذه إيديولوجية ماتت. ليست هناك علاقة بين المنطق الذي نجده في الحكومة وفي التسيير وفي التفكير وفي التركيب العقلاني، مع ما يمكن أن يسمى الشعب، ولا المثقف ودور الإنسان في أي ميدان كان، كالصحفي وغيره، وهو التبليغ، ليرتفع المستوى. فنحن في بلداننا، نعاني من أمية هي الأعلى عالميا، وجهل يستعمل كطريقة للحكم، يستعمل من طرف الحكام، ويُستعمل من طرف النخبة التي تستغل هذا الجهل في عدة أشياء أخرى، بما فيها المسائل الدينية وغير ذلك. لقد دخلنا الآن في إشكالية، نرى أن فيها تركيبا جديدا تماما. ما هو هذا التركيب ؟ كيف سيكون ؟ كيف ستتراكم الأطراف ؟ أظن أنه، شيئا ما، هذا الانفصال الذي يتكلم عنه في المستوى الدولي بين أمريكا من جهة، وأوربا من جهة أخرى، أظن أنه شيء جديد، وفيه شيء إيجابي، كمحاولة لمحاربة الهيمنة والتفكير الواحد.

ولكن مع الوقت، ونظرا للمصالح لا ننسى أننا نؤدي عما حصل عام 1916 في اتفاقية سايكس بيكو، حيث قام الفرنسيون والانجليز بتقسيم الشرق الأوسط فيما بينهم كما يريدون، وفي ذلك الوقت، كان شمال العراق قد غدا من نصيب فرنسا، وبعد ذلك تنازلت فرنسا عن جزء منه مقابل أسهم في الشركات العراقية للنفط.

لا ننسى المصالح التجارية الموجودة، ولا ننسى أن أمريكا آتية بـ 250 إلى 300 ألف جندي، وبوسائل جديدة من الأسلحة لم تستعمل من قبل، وفيها خطر كبير على بقاء الناس في المنطقة، وبعد تجذرها، سيأتي الوقت الذي ستتفاوض فيه مع الدول الأخرى.

فالذي حصل بعد الحرب العالمية الثانية يجب ألا ننساه. ففي ألمانيا دخلت الجيوش، في وقت واحد، الانجليزية والفرنسية والأمريكية والروسية، وتوزعت إلى عدة مناطق لكل واحدة منهم منطقة. وفي اليابان، استعملت الولايات

المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية لكي لا تأتي الدول الأخرى للتفاوض مع اليابان، ووضعت بذلك اليابان أمام الأمر الواقع، وتفاوضت معها بشكل مباشر واحتلتها، وهذا الاحتلال هو نفسه الذي وقع في ألمانيا. هذا النموذج هو الذي يريدون نقله إلى العراق، ولا يمكن أن ينجحوا فيه، لأن هناك تصورات جديدة، فلم نجد إجماعا عما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، فلم نجد الناس يقبلون بهؤلاء الضحايا. ففي مثل هذا الشهر من عام 1945، الطيران الأمريكي قصف طوكيو وخلف مائة ألف ضحية في ليلة واحدة، ولم يتحرك العالم. فالانجليز ذهبوا إلى ألمانيا وقتلوا وأبادوا مدينة بكاملها.

الآن نرى أن هناك حدا أدنى من الإنسانية، كما جسدت ذلك المظاهرات، ولكن ما هي الخلاصة ؟ فأنا تكلمت إلى حد الآن، عن النفط، ونسيت العنصر الأساسي، وهو دور إسرائيل. يجب ألا ننسى أنها موجودة في مكانها ليس بإعلان بلفور، فهذا الإعلان جاء فقط عام 1917.

وجود إسرائيل ضمنه القادة العرب من ملوك ورؤساء وغيرهم، والذين تسببوا في كامب ديڤيد وخيانة أوسلو. تسببوا لحد الآن، في تعيين وزير أول مرضيّ عليه من طرف الأمريكيين والانجليز، لأنه تسبب في تحطيم منظمة تحرير فلسطين، والتي أسميها منظمة تصهين فلسطين.

إذن، تقع علينا مسؤولية كبيرة، ودورنا في الهزيمة أكبر من دور أمريكا والغرب، لأن قوة أمريكا ليست في الأسلحة، ولكن في ضعفنا، في عدم شجاعة الزعماء السياسيين في بلداننا، في عدم تحرك جزء كبير ممن يمكن أن يسموا بالنخبة، فهذا دفاع وهذه حقوق إنسانية بشرية تهم الجميع.

وسنرى استعمال أسلحة جديدة، ففي الحرب التي اندلعت سنة 1991، كانت هناك 37 دولة مشاركة في الهجوم على العراق، بطريقة أو بأخرى. كان حشد الجيوش وصل إلى 300 ألف أو أكثر، وعدد الضحايا، كان في العام الأول 200 ألف، وفي السنة الموالية زاد بـ 150 ألف بسبب الأمراض، أخذا بعين

الاعتبار ما وقع للأطفال إلى حد الآن. فالعراق ضحى بمليون من الأرواح، والنقطة التي لم يقبلها أي أحد، وركزت عليها في عام 1991 في "الحرب الحضارية"، هي أننا لا نستطيع أن نفهم ما يحصل في فلسطين، إلا إذا فهمنا ما يقع في العراق، ولا يمكن أن نفهم ما يحصل في العراق إلا إذا فهمنا ما يحصل في فلسطين، لدرجة أنه في قمة الآزور أشار أصحاب الحرب في البيان الختامي للقضية الفلسطينية.

إذن، القضية الفلسطينية استغلت من طرف الحكام العرب بمفهوم السلام، الذي هو مفهوم الذل، والذي أوصل الشعب الفلسطيني إلى ما وصل إليه وأصبح عدد الضحايا 10 و15 شهيدا يوميا، وإسرائيل ستستمر في هذه الطريقة. ومن بعد سيبدأ الهجوم على العراق، والذي سيبدأ في غضون أسبوع. فهناك أمور تقنية ودراسات استراتيجية وتوزيع للمسؤوليات يجب إنجازها، وسنرى ماذا سيستعمل من أسلحة للتجارب، كما فعلت في أفغانستان، ولقد ذكرت ذلك ونشرته في كتاب باليابان، في كتاب لا يوجد للأسف سوى باليابانية.

في هذا الكتاب قلت إن الحرب في أفغانستان حرب حضارية ثانية، ونهاية للإمبراطورية التي انطلقت منها. الآن صدر كتاب فرنسي اسمه الامبراطورية الأخيرة، يبين فيه صاحبه كيف ستنتهي الإمبراطورية الأمريكية، وسبق له في كتاب آخر أن تنبأ بسقوط الامبراطورية السوفياتية.

فنهاية الولايات المتحدة الأمريكية واضحة، ويمكن أن نفهم أيضا حتى بعض التصرفات التي نراها الآن، وهو أن المرء عندما يصل إلى القمة، ويرى أنه يبدأ ينزل، نفسانيا يقع لديه تحرك للحفاظ على المكان الذي هو فيه. فالرجل السياسي ذو الشعبية في الحكم عندما يرى تدريجيا أنه لم تبق له سلطة، سيشرع في استعمال أية وسيلة للبقاء، والوسيلة الوحيدة التي في يد أمريكا للبقاء والهيمنة، هي بالخصوص الأسلحة. فكلينتون، الرئيس الأمريكي السابق، في برنامج في "بي.بي.سي" في دجنبر 1999، قال : «نحن نعلم أنه بعد 10 سنوات أو أكثر، يمكن ألا نبقى القطب الاقتصادي الأول»، وهم يعرفون أن الصين ستأتي بعدهم وتصبح القوة الأولى وهم الثانية، وستأتي الهند بعد ذلك...

لهذا، يمكن أن نفهم مثلا الصمت الصيني. فالصين ستصبح في غضون سنوات قوة القوة الاقتصادية الأولى، وصمتها يدل على أنها تقوم بعملها. ففي الوقت الراهن، أمريكا تمثل بالنسبة لها سوقا كبيرا فيها مصالح، وضمنيا بدأ تحالف وتعاون بينهما.

التدهور الأمريكي اقتصاديا واضح حتى قبل ما وقع في نيويورك عام 2001، فلولا الاستثمارات اليومية وملايين الدولارات التي تأتي من أوربا ومن اليابان، لكانت أمريكا في وضعية صعبة للغاية، والذين يعرفون أمريكا، ليس بالإحصائيات، ولكن بالمفاهيم النفسانية لتفسير المجتمع، يعلمون أن الأمريكيين لم يكن يخطر ببالهم أنه يمكن أن يأتي من يزعزعهم، أو يأتي أحد باختراع أو ابتكار علمي أحسن من ابتكارهم. ولما وقع ما وقع في شتنبر 2001، تزعزعت ثقتهم في أنفسهم، فما سقط ليس العمارتين اللتين سقطتا في وول ستريت، واللتين يمكن بناؤهما من جديد، ولكن سقط أهم من ذلك، وهي الثقة بالنفس، والتي اهتزت كي لا يحل محلها إلا الخوف. فأمريكا الآن يمكن أن نسميها أرض الخوف. وهناك خوف من كل حركة، وهناك اتهام وشك في كل شيء، وهذا الخوف يستغل الآن من الناحية السياسية في داخل البلاد أولا، فالعنصر الديمقراطي الذي له أصالة في أمريكا، بلاد الديمقراطية على الأقل داخل حدودها، أصبحت هناك شكوك حوله، وعندما ننظر إلى الدرجة التي وصل إليها الخوف عند الأمريكيين وعندما تعيش في الخوف، يُستعمل هذا الخوف للتحكم من طرف الآخر.

هذا الأسلوب من الميادين التي كانت أمريكا متفوقة فيها، من خلال الإعلام بمفهوم المعلومات، بمفهوم الثورة الإعلامية، بمفهوم الوسائل الجديدة السمعية البصرية، وقد كنا تكلمنا عن هذا، وهذا ميداني، وهو ما يسمى بالمجتمع المعرفي والمجتمع الاعلامي. انقلبت الآية، ولم يبق المجهود كله في الإعلام كإعلام لتحسين الوضعية الاجتماعية في ميدان الطب، ولكن صار مسخرا للاستخبار ولجمع المعلومات الأساسية، والتي رصدت لها ميزانية تقدر

بالملايير، والتي وظفت لشراء الصحفيين ولإسكات كل رأي مخالف لها، فالبنتاغون والـ "سي آي إي" أعطيا تعليمات تسمح بالكذب إذا كان في مصلحة البلد.

إذن، عندما تتدنى القيم إلى هذه الدرجة، فما هو مستقبل البلاد التي وصلت إلى هذه الحالة ؟ آخر شيء هو استطلاع أخير للرأي أجرته "تايم مكزين"، يتمحور حول السؤال التالي : ما هي البلدان التي تشكل خطرا على السلام ؟

وكانت نتيجة هذا الاستطلاع الذي شارك فيه 710723 شخصا، تفيد أن 7% من المشاركين اعتبروا أن كوريا الشمالية تهدد السلام، و8% بالنسبة للعراق، أما 48% فقد اعتبروا أمريكا هي المهدد للسلام العالمي.

إن هؤلاء أناس أذكياء يعرفون جيدا أن كوريا الشمالية لا تملك إلا ما يمكن أن نشبهه بالألعاب النارية، إذا ما قارناه بالترسانة الأمريكية أو حتى إذا ما قارناه بما تتوفر عليه إسرائيل، التي تحتل المرتبة الثالثة أو الرابعة فيما يتعلق الأسلحة النووية أو الذرية، فمعلوم أنه مباشرة حين تتوصل المختبرات الأمريكية لنتائج في هذا المجال، تتم إحالتها على إسرائيل.

والولايات المتحدة أعلنت رسميا بأن الدولة الأولى التي ستعرف توقيت ضرب العراق قبل انطلاقه ببضع ساعات هي إسرائيل.

أعتبر أن الولايات المتحدة وحكامها قد أضاعوا 80% من بعض الذين كانوا يتصورون أن أمريكا بلاد ثقافة وحضارة.

أنا أتساءل الآن عن مفهوم الديمقراطية، وحين نشرت كتاب "الحرب الحضارية"، قلت في بابه الأول إن مشكلتنا الأولى هي غياب الديمقراطية، ونحن نؤدي الثمن غاليا عن غيابها. وطبعا، لا أقصد ديمقراطية الواجهة، ولا ديمقراطية وجود أحزاب تعقد مؤتمراتها وتنتخب أمناءها العامين، وتشارك في انتخابات نزيهة أو غير نزيهة، أنا أقصد الديمقراطية كمنهج للعمل داخل مؤسسات الدولة والمجتمع، أقصد أن نكون نستنشق الديمقراطية والحرية وحرية التعبير.

أنت ترى العالم بأسره كيف انقلب، انظر ما الذي حصل في الدول العربية، الشرطة في مصر قمعت المظاهرات، وفي تونس كذلك، وفي الجزائر منعتها، وبالمغرب انتظرنا أياما من المفاوضات، وفي الأخير سمح بمظاهرات محدودة وبشروط.

أنا أتساءل كيف يمكن لدول ديمقراطية أن تذهب حكوماتها عكس ما تريده شعوبها ؟ لننظر إلى إيطاليا أو اسبانيا أو انجلترا، أو أمريكا نفسها، وهنا لا أقصد بلداننا، فلا ديمقراطية لدينا ولا حكومات مستقلة، كيف ستتحدث عن مفهوم الديمقراطية في القرن الـ 21، ولم يعد هناك حد أدنى من الاحترام لكل هذا المدّ من البشر الذي يقول صباح مساء : "أنا ضد سياستك"، ورغم كل شيء، تذهب وراء أمريكا !

مفهوم الديمقراطية انتهى حتى عند الدول التي تعتبر نفسها مصدر هذه الديمقراطية، أما إذا تحدثنا عن الأمم المتحدة، فنجد أنه لم يبق لديها أية مصداقية، وأنا كتبت هذا قبل سنوات عدة. لقد تبين لي آنذاك أنها تحولت إلى آلة للهيمنة الاستعمارية الجديدة، يشتغل بها موظفون انتهازيون، جاء إليها عدد منهم من العالم الثالث كمرتزقة.

لم تعد لدينا أية شرعية حقيقية دوليا، فأمريكا تقول إنها تعتبر قرارها ودفاعها عن شعبها هو الشرعية، وتمنح لنفسها الحق في التدخل في أي مكان تريد، وفي أي وقت تريد، ولا أحد يعارضها، حتى إن أشهرت فرنسا سلاح الفيتو، فهذه مسألة موجودة فقط على مستوى المسطرات القانونية، ولا أثر لها على أرض الواقع، بل إن الجيش الفرنسي مستعد لأن يكون كذلك بعد أيام متواجدا بالعراق إذا استدعى الأمر ذلك.

نحن نعيش فترة تطرح علينا فيها تساؤلات كبرى، تمثل امتحانا لهذا العالم الجديد الذي نريده.

وأرى أن هناك رؤية فيها تشاؤم، والتشاؤم هو أنه لا يمكن أن نصل إلى حالة ذل أكثر مما وصلنا إليه، وبالخصوص في العالم العربي والإسلامي، وهو ما أسميه "الذلقراطية".

إن حكامنا يقبلون الذل ممن هم أقوى منهم، وبالخصوص من أمريكا وإسرائيل، وحين يقبلونه يسقطونه علينا كشعوب، وشعوبنا تقبل الذل من حكامها، فنحن إذن أمام ذل مركب.

إن الأوضاع لا يمكن أن تبقى على هذه الدرجة، وقد سبق أن قلت إن ما نراه في فلسطين وما سنراه في العراق هي بداية. فهناك، حتى بقطع النظر عن الدين والإيمان وعن أي شيء آخر، أنا لا أتصور بشرياً باستطاعته أن يعيش بدون فكر وقيم خاصة بالكرامة.. الحيوانات لديها فكرة عما هي الكرامة، وحتى النبات.

نحن، الآن، نؤدي الثمن عن الإهانة التي لحقت شعوبنا أيام الاستعمار، وحين ذهب، جاء استعمار جديد مشكل من تحالف بين الاستعمار القديم وبين حكامنا الجدد، الذين عملوا على إفساد شعوبهم.

وبعد هذا، جاءت العولمة ودخلنا إلى نفس المسار، فإلى أين نتوجه ؟ الآن انتهى دور الشعوب في دفع الثمن، فقد ساهمت بما استطاعت ولا يمكن لها أن تستمر في نفس النهج.

نحن، بالفعل، نعيش مرحلة صعبة أقدر أن خمس أو حتى سبع سنوات سنعيشها بصعوبة بالغة، وستحدث بها عواصف وانعطافات، لا ندري أين ستبدأ ولا أين ستنتهي. أما ما يسمى بالاستقرار، والذي يعني عند علماء البيولوجيا الموت، فهو غير موجود لا في الطبيعة ولا عند البشر.

كل شيء انتهى الآن، لقد وصلنا إلى حد لم يعد محتملا، فاستقرار كامب ديڤيد ومدريد، واستقرار المنطقة الحرة الأمريكية المغربية، واستقرار تنمية السياحة... كل هذا تخطيط للفراغ.

إننا مضطرون للتفكير في إصلاحات جذرية، ولا مفر لنا من هذا.

12

ساعة الحقيقة تدق(*)

يرى د. المهدي المنجرة أن الحرب على العراق لم تتوقف منذ 1991 حتى تنطلق خلال هذه الأيام، وإذا كانت التقديرات الخاصة بالهجوم الأول قد حددت فيما يقرب 20 قنبلة، من حجم قنبلة هيروشيما، فإنه يتوقع أن تبلغ خلال الهجوم المنتظر ما يعادل 50 قنبلة !

في هذا الاستجواب، نطرح مع خبير الدراسات المستقبلية مفهومه الجديد "الميغا ـ امبريالية"، وانعكاسات العدوان الأمريكي على المغرب في المدى القريب، وعلى العالم العربي في المرحلة المقبلة.

□ **الأيام** : هناك من يرى أن موقف كل من فرنسا وألمانيا المعارض للحرب ضد العراق هو أساسا موقف ذو خلفيات اقتصادية وليست إنسانية محضة وبالتالي فإن هذه الحرب ليست حربا حضارية كما تقولون وإنما حرب من أجل فرض الهيمنة الاقتصادية؟

■ **م. م.** : أظن أن هذه أشياء استراتيجية، ألمانيا لها تاريخ في هذا المجال، لأنها ساهمت في نهاية القرن 19 بمؤتمر برلين الذي بلقن إفريقيا سنة 1885، وبعد ذلك كان لفرنسا، إلى جانب انجلترا، دور في تقسيم الشرق الأوسط بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وسقوط الامبراطورية العثمانية، وبعد الحرب العالمية الثانية، لعبت أمريكا دورا رئيسيا في تقسيم عدد من المناطق بالعالم.

الفرق بين الحاضر والماضي، هو أنه في وقت مؤتمر برلين أو الجزيرة الخضراء، أو غيرها من المؤتمرات، كانت هناك تعددية على مستوى أقطاب العلاقات الدولية، والحال أن العلاقات الدولية والتاريخ الإنساني كله مبني على القوة وتوزيعها.

(*) أسبوعية الأيام، العدد 78، 20 مارس 2003 (أجرى اللقاء أنس مزور).

في الحقيقة، الموقف الألماني والموقف الفرنسي فيه شيء جديد، هو كون أوربا التي عاشت كحليفة لأمريكا في الحلف الأطلسي، وفي عدد من المحطات، أصبحت الآن تخشى أن تؤدي بدورها ثمن انفراد دولة واحدة بتسيير العالم.

هناك جملة لفيلسوفة فرنسية، هي سيمون ڤيل، أرددها دائما، تقول إن أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ستأتي إلى أوربا وستعمل على أمركتها وستفصلها عن الشرق.

من ذي قبل، كان تكتل أوربا الغربية وأمريكا، يخشى الاقتصاد الياباني ودول جنوب شرق آسيا، وبعد انتهاء الاتحاد السوڤياتي، بدأت أوربا تخشى على نفسها، بغض النظر عما يجري في بقية العالم من سيطرة على منابع النفط، تخشى على نفسها في الميدان الثقافي والحضاري.. تخشى من الأفلام والموسيقى الواردة عليها.. تخشى من الماكدونالز والكوكاكولا.. تخشى على قيمها وعلاقتها بباقي الدول. أصبحت أمريكا تتعامل بشكل مباشر حتى مع الدول التي كانت تعتبر تحت النفوذ الفرنسي.

إن الذي يحكم أساسا الموقف الفرنسي والألماني هو فرض الوجود بثمن أعلى في المفاوضات المقبلة، وكذلك الدفاع عن بعض مفاهيم القوة، كما هي مترجمة في ميثاق الأمم المتحدة، وأهمها قوة الڤيتو. لأنه إذا كانت لك ورقة غير موجودة لدى الآخرين، فإنك ستستعملها لتأكيد أنك لازلت قوة في العالم، ولازال بإمكانك التأثير على الأشياء.

لكن، هذا لا يمنعنا من التمييز بين مواقف الحكومات ومواقف الشعوب، فحقيقة ما صدر عن الشعوب الأوربية، بما فيها الفرنسية والإيطالية والألمانية، تبرهن على أن هناك تعاطفا إنسانيا بهذه الدول لم يسبق له مثيل. إلا أن المسؤولين بهذه الدول يتحركون أساسا في هذا المجال بمنطق علاقتهم بأمريكا وتحديد قوتهم، وبمنطق فرض وجودهم فيما سمي بما بعد العراق. وهنا، لا ينبغي أن ننسى أن الطائرات الفرنسية كانت بدورها تساعد الطائرات

الانجليزية والأمريكية في خرق المجال الجوي العراقي طوال الفترة التي تلت حرب 1991.

إذن، فيما يهم علاقات القوة، هناك هذا التعارض، لكن على مستوى آخر، فيما يهم القيم، هناك اتفاق غربي وبين جميع مكونات ما يسمى بالحضارة اليهودية المسيحية ضد المنطقة العربية الإسلامية، وهذا هو الجانب الأساسي، ولا تناقض بين الأمرين.

إن الحرب على العراق هي، بالأساس، حرب قيم وحرب حضارية، وهي خوف من الإسلام، ولنسمي الأشياء بمسمياتها، وهذا الخوف من الإسلام لا يوجد عند الغرب فقط، وإنما كذلك عند جزء كبير من المسيرين ببلداننا، الذين لا يحظون بالمشروعية الديمقراطية.

لكن، هذا لا يمنع أن المصالح الاقتصادية موجو دة، وكون العراق هي القوة الثانية في مجال النفط، ولا ننسي أن العراق دولة لها طاقات وعلماء يتمتعون بقدرات عالية على مستوى البحث العلمي والتكنولوجيا. وأمريكا حين تهدم البنيات التحتية، فإنها تسعى للفوز بصفقات إعادة البناء، وألمانيا وفرنسا تنافسانها في هذا الإطار، بحكم العلاقات التي تجمعهما مع المنطقة العربية.

طبعا، العنصر الاقتصادي يلعب دورا أساسيا، ومن جانب آخر، هناك محاولة للظهور بوجه إنساني أمام بقية العالم، للقول إننا، رغم استعمارنا للدول، فلسنا خطرا كأمريكا.

أرى أن ما أسماه بوش بأسلوب الحياة، والقيم والعناصر الحضارية هي التي أدت إلى الحرب على العراق سنة 1991. ويكفي أن تقوم باستطلاع رأي بأمريكا حول رأي الأمريكيين بخصوص الإسلام والعرب، ونفس الشيء بفرنسا وأوربا، لتجد أن نتيجة الحملة التي شنها الغرب ضد المسلمين منذ سنين طويلة، رسخت صورة عن الإسلام والمسلمين، أصبحت تساوي العنف والإرهاب. وللأسف أن جزءا كبيرا من الإعلام العربي والإسلامي نفسه، إلى جانب الحكام العرب، ساهموا في ترسيخ هذه الصورة.

أي إرهاب ؟ الإرهاب الوحيد الذي أعرفه بهذه الدول العربية والإسلامية هو إرهاب الظلم وإرهاب المنكر وعدم توزيع الثروات بشكل عادل، هو إرهاب الفقر والجهل، هذا هو الإرهاب الموجود الذي يجب أن يُحارب، وليس الإرهاب الذي نخصص له قانونا يملى علينا من طرف أمريكا كما يُملى على باقي الدول.

□ **الأيام** : يبدو أن لا أمل في إيقاف الهجوم على العراق، فالحرب قادمة لا محالة. ما هي انعكاساتها على المغرب في المدى القريب ؟

■ م. م. : الحرب لم تتوقف، وهذا كتبته منذ 12 سنة.

□ **الأيام** : أقصد الهجوم المنتظر خلال هذه الأيام ؟

■ م. م. : بعد الهجوم الجديد، سيؤدي المسؤولون بالمغرب ثمنا كبيرا على مواقفهم مثلهم مثل باقي الدول العربية.

حين أرى أن وزير الاقتصاد بدولة عربية (يقصد فتح الله ولعلو وزير المالية) يقول إن الحرب بالخليج لن تؤثر على اقتصادنا بشكل كبير، وإن النمو الاقتصادي سيكون 5,5%، أجد أن هناك غيابا للمسؤولية. هذه ليست حتى مواقف طفولية، كيف يعقل أن يقول أحد مثل هذا الكلام، والعالم بأسره يعرف انقلابا. أمريكا في ميدان واحد، وهو ميدان الطيران، توقف فيها 100 ألف عامل عن العمل.

المغرب سيؤدي الثمن اقتصاديا، لكن الذي سيؤدي الثمن أكثر هو الفقير، أما الأغنياء، فقد أخذوا احتياطهم، ليست عندي الأرقام الآن لأسرد عليكم عدد عمليات نقل الأموال التي هربت إلى الخارج.

إن ما يقع إهانة للشعب المغربي والجزائري والتونسي، وغيرهم من الشعوب، سواء في القضية الفلسطينية أو العراقية، ولا يجب أن نستعجب من ردود الفعل، لأن هذه إهانة، وقضية تأتي من القلب.. الإنسان يصبر، ثم يصبر، ثم ينفجر. فأطلب من الله أن يكون الثمن الذي سنؤديه غير كبير.

□ **الأيام** : ما هو القطاع الاقتصادي الذي سيتضرر أكثر بالمغرب ؟

■ م. م. : الاقتصاد متضرر أصلا، والشيء الوحيد الذي يوجد به أمل هذه السنة هو القطاع الفلاحي، الذي سينتعش بفضل الأمطار التي تساقطت والحمد لله، ولن يظل عندنا نفس الاعتماد السابق على الخارج.

طبعا، سيحدث ارتفاع في ثمن البنزين والمحروقات عموما، وأكثر من هذا، سيحدث مثل ما حدث في أمريكا نفسها، فليس هناك قطاع مبني أكثر على الجانب النفسي مثل الاقتصاد، انظر إلى البورصة بأوربا وأمريكا كيف أصبحت، لم تعد هناك ثقة.

أردنا أو لم نرد، جميع الحكومات والأنظمة العربية، سواء التي كانت مؤيدة بشكل مباشر أو ضمني للسياسة الأمريكية ستكون، في نظر الشعوب، قد ساهمت في ضرب العراق، وإن لم تكن بها قواعد عسكرية كبيرة ينطلق منها الهجوم، إذن كيف نتصور أن تكون ردود الفعل ؟

أول رد فعل، هو الخوف الذي سيحل لدى الحكومات، وسترى التدابير الأمنية التي ستؤخذ، لكن، إلى أي حد يمكن لأمريكا أن تغطي بمخابراتها شؤون العالم بأسره ؟

إنها بداية نهاية الامبراطورية الأمريكية، وبداية نهاية الأنظمة والحكومات التي عاشت بفضل المساعدة والتحالف مع هذه الامبراطورية ضد مصالح شعوبهم. وهنا أتحدث بلغة المستقبليات، وأعني أن الذي ينتظر أن يحدث سيكون بعد 10 أو 15 سنة، وليس في السنين الخمسة المقبلة. المهم، لا يمكن للأشياء أن تبقى كما كانت.

الضربة المقبلة، ضربة ستأتي بكسر لا يمكن أن يُرمم، وهذا هو الخير فيها، سننطلق نحو وضع آخر للعراق سيتحول وضعه إلى وضع أفضل. أقول هذا وأنا واثق منه، لأن بالعراق توجد كفاءات، وأنا أحيانا أقارن بين العراق وبين ما حدث في ألمانيا واليابان، حيث قصفت جميع المنشآت، لكن الثقافة والإرادة

الموجودة والعلم والأدمغة بنوا بوسائل جديدة، وتجاوزوا القديم. أما الدول العربية الأخرى، التي بوسعها صنع شيء ما، قليلة، وهي مهددة أساسا في وضعها الأخلاقي. فمن جهة، تأخرنا هو بسبب غياب الديمقراطية، ومن جهة أخرى غياب للبحث العلمي، وعندما أقول البحث العلمي، فأقصد كذلك الابتكار والخلق والإبداع.

إذن، تنتظرنا مرحلة صعبة، ولكن، في نفس الوقت، الأشياء تتبلور. في بداية الحرب سنة 1991، دخل العالم العربي إلى جهاز الكشف (الراديو) بالأشعة، أما الآن، فهناك جهاز كشف أكثر تطورا، مغناطيسي، ترى فيه الأشياء كما هي.

أظن أن الأشياء ستتوضح أكثر، وسنرى قوة وإرادة لم تخطر ببالنا، ولكن في نفس الوقت، ستكون هناك أخطار لا يمكن لنا أن نتحكم فيها.

وهذه هي نقطة الاستفهام الأساسية التي تظل قائمة : كيف سيحدث التغيير ؟ وكيف سيكون ؟

أما الانتفاضة المسترسلة داخل العالم العربي فستأتي، لا محالة، هل بالتدريج ؟ عبر نقطة نقطة ؟ هل بالفيضان ؟ في خمس سنوات أو عشرين سنة ؟ لا يهم.

أما الرجوع إلى الوراء أو البقاء على ما كان، فلا يمكن، والنموذج القائم الآن بالعالم العربي، انتهى.

إن ما سيأتي له بعد استعماري جديد، وهو ما أسميه بالميغا ـ امبريالية، والسفارة الأمريكية، مثلا، بالمغرب، تشتغل منذ زمن، ولها برنامج المغرب في سنة 2020، والأشياء كلها ستأتيك معلبة، ديمقراطية سريعة... وغيرها، ولكن، طبعا، هذا لا يمكن أن يستقيم كما يتصورونه.

الغريب في المقارنة هو ما يهم الخوفقراطية. ففيما يخص المغرب والمنطقة العربية، العنصر الأساسي هو الخوف.. الخوف مماذا ؟ الشعوب ليس لها ما تخاف عليه، لقد انهكت.. هل الخوف من بعض المسيرين ؟ الخوف من الأمنيين ؟

الذي يحدث، الآن والذي سنراه بعد خمسة أو ستة أعوام، هل سنكتفي إزاءه بالخروج إلى الشارع والتظاهر ؟ لا. هل ستسمح أو تتفهم الشعوب أن تبقي بعض الحكومات علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل والولايات المتحدة في مثل هذه الظروف، وتقول في نفس الوقت إنها تتعاطف مع العراق ؟ هل يقبل في ظروف كهذه أن يستمر المغرب في الحديث عن اتفاقية تجارية بينه وبين أمريكا ؟ هل نقبل أن تأتي إليها أكبر ديكتاتورية في تاريخ الإنسانية، وتقول لنا سنعطيكم دروسا في الديمقراطية ؟ إلى أي حد يمكن أن نستمر بمثل هذه التناقضات، وهذا هو التحدي الكبير أمام المسؤولين بالعالم العربي.

إذا قال بوش البارحة إن ساعة الحقيقة قد حلت، فهذا ينطبق أكثر على المسيرين بالعالم العربي، وليس لهم وقت طويل لأخذ قرار في هذا الميدان، وتغيير موقفهم لمصلحة شعوبهم.

□ **الأيام** : وكيف تحددون هذا المفهوم الجديد الذي استخدمتموه في الفترة الأخيرة: الميغا ـ امبريالية ؟

■ م. م. : الامبريالية تاريخيا، كما كان في عهد الرومان وغيرهم، مناطق معينة.. في الماضي، جميع الامبرياليات منذ الفراعنة، وحتى قبلهم، كانت العلاقة قائمة بين الامبريالية الحكم وبين المنطقة الجغرافية، وكانت هناك مناطق أخرى خارجة عن نفوذ هذه الامبراطوريات، وكثيرا ما كانت تقع نزاعات بين امبراطورية وأخرى، وإن كانت الواحدة أقوى من الأخرى، لكن كنا أمام امبرياليات متعددة.

الميغا ـ امبريالية هي أنك تأخذ مكان الأمبرياليات الأخرى. فالاستعمار الفرنسي، مثلا، لازال موجودا هنا في بلدي وساحل العاج وافريقيا الوسطى... يتصرف في جميع الميادين، كأنه لم يكن هناك استقلال، هناك مناطق تعتبر فرنسية وأخرى انجليزية، والميغا ـ امبريالية هي أنك تأخذ مكان الامبرياليات كلها، وتستولي عليها، وتأتي من الفوق لتبقى وحدها ليس في مكان معين وإنما في العالم بأسره. بمعنى ألا تبقى نقطة واحدة فوق هذه الأرض لم تدخل في نفوذ هذه الامبريالية.

وهذه الميغا ـ امبريالية جاءت، كذلك، بفضل تطور العلم والتكنولوجيا، لأن الوسائل الجديدة، وخصوصا الأقمار الاصطناعية، وإنتاج البحث العلمي العسكري بالأساس، تمنح قدرة السيطرة على كل الكرة الأرضية، وهذا لأول مرة يحدث في تاريخ الإنسانية، أن قوة واحدة تصل إلى هذه الدرجة من الهيمنة، وتسيطر على ستة مليار و400 مليون من سكان الأرض بطريقة أو بأخرى، بعدة تركيبات اقتصادية وثقافية وسياسية ومخابراتية.

ولما كانت أمريكا داخل الناتو، كانت لها مظلة، بمعنى تأتي بأسلحتها النووية وتدافع عن أوربا كلها أمام خطر قد يأتي من الاتحاد السوڤياتي.

وبعد أن دخلت إلى اليابان، ومنعتها من التسلح والدخول في الحرب، منحتها مظلة نووية تحميها من أية قنابل نووية قد تأتي من الصين أو كوريا الشمالية.

هذا المفهوم الجديد لا يمكن أن يدوم مدة طويلة، وبعد 15 أو 20 سنة، على الأكثر، سنرى امبراطورية أخرى.

والآن، هناك قوة كان بإمكانها أن تواجه شيئا ما، لكنها لم تقم بذلك، وهي الصين، وهي القوة الثانية اقتصاديا وعسكريا، وهي القوة الأولى من الناحية البشرية، ولكن لها خطتها، وهي لا تريد تغييرها. فهي تعرف أنها ستصل، وتعرف أن أمريكا لا تستطيع أن تمسها بأي شيء لأنها تدرك حجم رد الفعل الذي قد يحدث إن هي فعلت.

الصين تعرف أن زمنها قادم، وهي تترك أمريكا تتصرف كميغا ـ امبريالية، لكن حين يأتي وقتها، ستقول لها : من فضلك كفى.

في ذلك الوقت، يمكن أن ندخل إلى مرحلة جديدة، نجد فيها الصين كقوة وأمريكا كقوة، وربما الهند كذلك، أما الشيء الغريب والمستعصي على الفهم، فهو موقف اليابان، فهي قوة كبرى، ولها علاقات عديدة بالعالم العربي

والإسلامي، ولها شعب تقريبا كله (90%) ضد الحرب ومفاهيم الحرب، لأنهم أدوا بسببها ثمنا باهظا، لكن، في نفس الوقت، هي موجودة تحت ضغط الولايات المتحدة لسبب أساسي هو هذه المظلة النووية، حيث لا يسمح لها بامتلاك قنبلة نووية، وهي تواجه خطرا حقيقيا من جهة كوريا الشمالية والصين.

والشيء الثاني هو أن اليابان تجلب 59% من النفط من الخارج، والآن أصبحت أمريكا تسيطر على كل شيء فيما يتعلق بالنفط.

وإذا تحركت اليابان خارج ما تريده أمريكا، فستنزع منها هذه الأخيرة الأوكسجين. والدبلوماسية الأمريكية في الفترة الأخيرة أصبحت تؤدي دورها بوقاحة لا تتصور، أي بالتهديد، فتقول لروسيا، إذا قمت بكذا، فسيواجهك كذا، وتعطي تعليماتها لليابان.

في تاريخ الإنسانية، هناك دائما مراحل انتقالية صعبة، ونحن، الآن، نعيش مرحلة انتقالية صعبة. وحين نقول انتقالية، فمعنى ذلك أننا سننتقل من مكان لآخر، وستكون هذه بداية النهاية لأمريكا، وأظن أن الشعب الأمريكي واع بهذا، ويحس بأشياء جديدة لم يحس بها من قبل.

الآن، معروف أن الولايات المتحدة ستستخدم أسلحة جديدة، وهذا ما كتبته في "الحرب الحضارية الأولى"، لأنك إذا جربت أسلحة جديدة، وظهرت أهميتها على أرض الواقع، يمكنك، بعد ذلك، بيع كميات منها لدول أخرى.

وإن كانت أمريكا ستدخل هذه المرحلة بثقة أقل من تلك التي دخلت بها هجومها سنة 1991، فإني لا أوافق على الاختزال. فآخر استطلاع للرأي أنجز بأمريكا، بثت نتائجه البارحة (س.ن.ن)، يفيد أن 45% من الأمريكيين موافقون على سياسة بوش.

إذن، لا ينبغي أن نكذب على أنفسنا لنقول إنه بوش فقط، بل هناك حملات إعلامية كبيرة، لنقل إنها صهيونية، حتى نسمي الأشياء كما هي. فهناك لوبي صهيوني معروف منذ البداية، وأنا أتذكر كيف عرف هؤلاء الناس قوة الإعلام.

حين وصلت إلى أمريكا لأول مرة كطالب سنة 1948، وعمري 15 سنة، كانت الأمم المتحدة قد اعترفت بإسرائيل قبل شهرين، وجاء بن غوريون إلى أمريكا وأقاموا له حفلا ضخما بفندق نيويورك، ولا زلت أتذكر ما بثته التلفزة، حيث كان محاطا باليهود الأثرياء في قاعة كبيرة بالفندق، وقال لهم : أنا لا أريد أموالكم، وإنما أريد من كان بإمكانه شراء جريدة فليشترها، ومن استطاع شراء محطة تلفزيون أو راديو، فليأخذها، أو استوديو بهوليود، وأكد لهم أنه بإمكانهم بعد ذلك أن يدعموا إسرائيل من بعيد.

هذا التخطيط ليس حديثا، نرى الآن نتائجه، لدرجة أن عضوة واحدة بالبرلمان الأمريكي قالت إنه لولا ضغط اللوبي اليهودي لما اتخذت أمريكا الموقف الحالي، وثار حزبها ضدها وثار عليها الإعلام.

وحين نرى العشرات يسقطون يوميا في فلسطين ولا أحد يتكلم، ماذا تريدون ؟ وبعد هذا، يأتون لإعطائنا دروسا في الديمقراطية !

أظن أن مسؤولية ما يحدث في العالم العربي يجب أن نلقيها، على الأقل في ثلاثة أرباعها على أنفسنا، كحكام ومفكرين وشعوب، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا النقد الذاتي ولكي نغير الأشياء، يجب أن نغير أنفسنا، لأننا لو كنا أشخاصا آخرين ، لما استطاعوا أن يتعاملوا معنا بهذه الطريقة.

هل كان بإمكان بوش أن يتعامل مع كوريا الشمالية كما تعامل مع العالم العربي ؟ لو مست فيها شعرة واحدة يعرف أن وراءها الصين. لكن بالنسبة للعراق، يعرف أنه إذا ذهب إليه، فالخليج كله سيذهب معه، وكذلك 90% من الدول العربية تدعو صباحا ومساء أن يضرب العراق، وهذه ليست مبالغة.

13
من أجل محكمة دولية للجرائم الثقافية(*)

حين كانت "الأيام" تستجوب الدكتور المهدي المنجرة بمكتبه بالرباط، كان يضع أمامه مجلدين عن التراث الحضاري بالعراق، صدر أحدهما بتمويل من منظمة اليونيسكو وكان هو من أشرف على المشروع.

في هذا الاستجواب يؤكد الدكتور المنجرة أن الحرب التي قادتها أمريكا في العراق هي حرب ضد الجمال وضد الإبداع والتراث وضد الفن الذي يعتبره المعيار الحقيقي للتقدم، وليس الطائرات والأسلحة الجديدة.

□ القدس : شاهدنا خلال الأيام الأخيرة عبر شاشات التلفزة متاحف تم اقتحامها ونهبها، وشاهدنا عشرات المواقع الأثرية التي تم تدميرها، وتراثا حضاريا بدأ يتجه مصيره نحو المجهول... بصفتكم نائبا للمدير العام لليونيسكو سابقا، كيف تنظرون لهذا الأمر ؟

■ م. م. : الذي وقع هو أن حوالي 200 ألف قطعة أثرية كانت موجودة بالمتاحف ضاعت إما عبر سرقتها أو تدميرها... هناك مكتبة مشهورة ببغداد هي مكتبة المنصور احترقت بداخلها الكتب... هناك نسخة من القرآن مكتوبة بيد سيدنا علي أحرقت.. هذه وحشية مورست من طرف الجيش الأمريكي ومن طرف الحكومة الأمريكية...

(*) جريدة القدس العربي، 14 ماي 2003.

إنها ذاكرة للإنسانية جمعاء تضيع.. وحين كنت مسؤولا باليونيسكو كنت أشرف على عدد من المنشآت الثقافية عبر العالم، ومن ضمنها هذا المتحف وهذه المكتبة.

وأنا أعرف بأي حب كان العراقيون يهتمون بتراثهم.. الأنظمة السياسية تتغير لكن التراث الثقافي يبقى هو هو دائما. لكن الحكومة الأمريكية مع الأسف تصرفت بطريقة وحشية ومقصودة.

❑ القدس : ما الذي يجعلكم تقولون إنها مقصودة ؟

■ م. م. : هي مقصودة لأمرين، فأمريكا لها ماض قريب ولا تتوفر على تراث كبير، وحتى ما يوجد بداخل متاحفها يأتي من دول أخرى. وقوة العراق هي قبل كل شيء قوة حضارية وعلمية وليست قوة سياسية أو قوة زعيم أو رئيس. ولهذا حتى يحبطوا الشعب العر اقي مسوا بذاكرته. ومعروف أن أول من دخل ودفع باب متحف بغداد هو جندي من الجيش الأمريكي... ومعروف أن بعض اختصاصيي الجيش الأمريكي دخلوا قبل أي أحد آخر واختاروا القطع النفيسة.

❑ القدس : الهجوم على العراق وتدمير بنياته التحتية وقتل أبريائه لم يجعل الدول الأخرى تتحرك لإيقافه ربما لأنه لا يمس في نهاية المطاف إلا الشعب العراقي، لكن ضرب تراثه الحضاري والثقافي ونهبه يمس جميع الدول لأنه قبل أن يكون تراثا عراقيا فهو ذاكرة للحضارة الإنسانية جمعاء.. فلماذا لم يتدخل أحد لحماية هذا التراث ؟

■ م. م. : تماما... وأنا في سنة 1991، حين ضرب متحف بغداد، كتبت رسالة لمدير اليونسكو، وهي موجودة ضمن ملحق كتاب "الحرب الحضارية الأولى"، وفي هذه المرة كنت عائدا من إحدى المدن الفرنسية حيث ألقيت محاضرة، وبباريس شرعت في تحرير رسالة أخرى للمدير العام لليونيسكو، وأظن أن اليوم كان هو 4 أبريل، وقبل إنهائها بحثت في الأنترنيت فلم أجد

سوى أمور بسيطة... وجدت أن المسؤول عن القسم الثقافي أرسل باسم المدير العام رسالة إلى الحكومة الأمريكية عبارة عن خريطة تتضمن أمكنة الحفريات الموجودة بالعراق...

□ القدس : وماذا كان رد فعلك ؟

■ م. م. : قلت مع نفسي كيف سأكتب لمدير عام مثل هذا، أو بالأحرى لمؤسسة تابعة لجهاز لم تبق له أية مصداقية. وهنا أتذكر جملة كان يقولها نهرو.. كان يقول إن اليونسكو هي ضمير الإنسانية. أما اليوم فقد أصبحت اليونسكو كابوسا للعالم. فهي لم تقم بأي تحرك إلى حدود يوم 17 أبريل حين نظمت ندوة صحفية، وأتوا بخبراء لا أدري بأية طريقة اختاروا ضمنهم عراقيين لا أحد منهم يتواجد بالعراق..

□ القدس : (أقاطعه) أفهم أنك عدلت عن كتابة الرسالة ؟

■ م. م. : نعم عدلت عن ذلك لأنه لا فائدة منها... وباليونسكو هناك عنصر آخر يعقد الأشياء... ففي وقت الرئيس ريغن، الولايات المتحدة تركت اليونيسكو لأن مؤتمرها العام صادق على ملتمس للجمعية العامة للأمم المتحدة يقارن الصهيونية بالعنصرية والاستعمار.

لكن في شتنبر الماضي صرح بوش أن أمريكا ستعود لليونسكو، ومعلوم أنها كانت تدفع ما بين 25% إلى 30% من ميزانيتها. إذن رجوعها أدى بالمدير العام الياباني، واليابان هي التي كانت تدفع أكثر عندما كانت أمريكا غائبة، إلى اتخاذ موقف بعدم إزعاج الولايات المتحدة الأمريكية.

إن أمريكا لم تحترم اتفاقية لاهاي لسنة 1954 القاضية بعدم المساس بالتراث الثقافي والحضاري خلال النزاعات المسلحة، وفي سنة 1970 كنت مسؤولا باليونسكو وأبرمنا اتفاقية يتم بمقتضاها منع أي بيع أو تبادل قطع أثرية مسروقة، لكن رغم هذا الخرق القانوني ظل الجميع صامتا ولم توجه أية إدانة لأمريكا.

شيراك، رئيس الجمهورية الفرنسية، قال إن هذه جريمة ضد الإنسانية. فأضعف الإيمان هو أن يقول المدير العام لليونسكو شيئا مماثلا.

لا أدري كم تكسر من الـ 200 ألف قطعة، وكم سرق... إنها أكبر كارثة ثقافية حضارية في تاريخ الإنسانية..

□ **القدس : مادام أن الجميع الآن يتحدث عن نهاية الأمم المتحدة، فمن الطبيعي أن نتحدث عن نهاية اليونيسكو كذلك. وإذا كان اللانظام هو الذي حل في العلاقات الدولية عموما، فما هي انعكاسات ذلك على الجانب الثقافي والتراث الحضاري الإنساني خاصة بعدما حدث في العراق ؟**

■ **م. م.** : حين يصبح اللانظام هو المهيمن بالأمم المتحدة، وتقوم دولة كالولايات المتحدة بدون اتفاق دولي بالهجوم على دولة أخرى وتقتل منها عشرات الآلاف ولا تحترم الاتفاقات الدولية من مثل اتفاقية لاهاي، وتكسر 200 ألف قطعة جمعت خلال 7 آلاف سنة، وتحرق الكتب.. أي أمل يبقى في دولة مثل هذه ؟!

هذا جزء من البشاعة والوحشية الجديدة... ما علاقة متحف بغداد أو مكتبة الموصل بأسلحة الدمار الشامل ؟ أو بالإطاحة برئيس الجمهورية ؟ إنه فعل مقصود لإهانة شعب وقتل ذاكراته.

أتذكر دائماً كلام الفيلسوفة الفرنسية اسمها سيمون ڤيل، وأدرك حاليا قيمته بشكل أكبر، إذ تقول "تجسد أوربا نوعا من المعدل التناسبي بين أمريكا والشرق. ونحن نعلم جيدا أن أمركة أوربا بعد الحرب يمثل خطرا كبيرا. ونعلم جيدا ما الذي سنفقده إذا ما تحقق هذا الأمر، والذي سنفقده هو جزء منا وهو قريب من الشرق... إن أمركة أوربا سيؤدي إلى أمركة العالم وبالتالي فقدان الإنسانية لماضيها، والماضي إذا ما فقدناه مرة فإنه يستحيل علينا الحصول عليه من جديد. الإنسان لا يستطيع أن يصنع ماضيه، وإنما بمقدوره أن يحافظ عليه فقط".

إذن فالشيء المؤلم هو أن الذي حدث سبقه إنذار حين وجه وزير الثقافة العراقي يوم 3 أبريل رسالة لليونسكو يطلب من خلالها تنبيه أمريكا وجيوشها بخصوص طيرانها الذي يحلق على مستوى منخفض جدا، الأمر الذي أثر على نوافذ وأسوار عدد من البنايات من مثل ضريح الإمام علي والإمام الحسين والعباس... ومع ذلك لم تأت إدانة واحدة لأمريكا.

□ **القدس : الآن ما حدث قد حدث، فما الذي سيترتب عنه ؟**

■ م. م. : الذي سيشعر أكثر بفظاعة ما حدث هم العراقيون أنفسهم لأن هذا التراث جزء من هويتهم ووجدانهم.. وأظن أن محبي الجمال وعشاق الفن بالعالم أسره سيتأثرون، وهم والحمد لله كثيرون بغض النظر عن جنسيتهم وانتمائهم.

إنها حرب ضد الجمال، وضد الإبداع... والفن هو أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في الإبداع والابتكار، وهو معيار التقدم الحقيقي، وليست الطائرات والأسلحة الجديدة التي تمكنك من قتل الآلاف.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الذي مسّ، هو قداسة الحفاظ على التراث... وهذا ضمنيا سيستخدم كتهديد للدول الأخرى، فكأن أمريكا تقول إذا لم تخفكم أسلحتنا وطائراتنا، فلدينا وسائل أخرى، منها أننا سندمر تراثكم الثقافي، وهذا سلاح لم يستعمل من قبل... نعم هجموا على بغداد عام 1258 وحطموها، لكنهم احترموا بعض الأشياء وهي لازالت موجودة. وحتى في الحروب الصليبية لم يمسوا التراث الثقافي..

إن ممارسة الثقافة والحضارة شيء عضوي، والولايات المتحدة الأمريكية نظرا لتاريخها المعاصر القصير لا تجد لديها هذا الارتباط العضوي بالفن باستثناء بعض الأساتذة والنقاد والمختصين وبعض الهواة.. هنا تنعدم العلاقة العضوية بين القطعة الفنية والفرد، لأن هذا الأخير يراها من الخارج، ولا يشعر بها في دواخله.. أما العراقي حين يستمع مثلا إلى عزف على آلة العود فهو لا يرى فيه العود وفقط، وإنما يعيش حضارة بأسرها في داخله...

أمريكا تهتم بالفن في جامعاتها ومراكزها، ولكنها تجهل ما هو فن الآخر وتاريخ الآخر.

إن 90% من الـ 400 ألف جندي أمريكي المتواجدين بالعراق أنهوا دراستهم في مرحلة الثانوي.. لكن كم من بينهم سيفهمني إذا قلت من 1% من سيفهمني... إذن حتى الجهل له دور، والجهل حين يتزوج بالعجرفة والقوة العسكرية القاتلة العمياء تحدث أشياء مثل هذه.

ردود الفعل القليلة التي صدرت تجعلنا أمام حضارة الاهمال واللامبالاة والاهتمام بالنفس وفقط... وأعود إلى سؤالك وأقول إن أمريكا تظن أننا سنصبح نستهلك ثقافة سريعة كما تأكل هي الماكدونالدز، وتأتي وتبني لك متحفا سريعا..

أظن أننا نعيش أياما صعبة، والشعب العراقي أدى الثمن في 1991 ويؤديه الآن.. وأكيد أنه يستفيد من هذه الأحداث رغم كل شيء. لكن أين نحن ؟ أين المفكرون ؟ أين الفنانون ؟ قرأت بلاغا لاتحاد كتاب المغرب يتضامن من خلاله.. والتضامن أصبح هو اللغة السهلة للبيانات، لكن أين الإدانة ؟ أين وزراء الثقافة العرب ؟ لا أحد يدين... الوحيد الذي أدان هو شيراك.

ووفقا للقانون الذي يعاقب من لا يقدم المساعدة لشخص في خطر، يجب أن تعاقب اليونيسكو على عدم تقديمها المساعدة للتراث العراقي الذي داهمه الخطر الأمريكي وأتى بالفعل على جزء كبير منه.

14

اليونسكو تستحق التوبيخ لعدم مساعدة ملكية ثقافية إنسانية في خطر(*)

عندما سألنا الدكتور المهدي المنجرة قبل بداية حوارنا معه، هل أنت بخير، أجاب : "لا لست بخير يعصرني الألم على ما وقع لبغداد !"، ويتحدث هنا دكتور العلاقات الدولية وعالم الدراسات المستقبلية المغربي عن الدمار الذي لحق حضارة وآثار ومتاحف ومكتبات بغداد، ووصفها بالجريمة الإنسانية، ووصف اليوم الذي حصل فيه ذلك بأسوء يوم في تاريخ البشرية. وبنبرة الألم والغضب نفسها، تحدث المنجرة في حديثه المطول عن زياراته الثلاثين للعاصمة العراقية وما اكتشفه وأنجزه فيها، وتحدث عن أمد الحرب على العراق وعن الحرب الأخرى التي ستبدأ الآن، عن اللحمة التي جمعت الشعب العراقي في وقت الأزمة مقابل الموت العربي البطيء، وعن سلبيات الدكتاتوريات العربية وعجز الأمم المتحدة والجامعة العربية عن فعل أي شيء، وتخاذل اليونسكو عن رد قطعة تراث واحدة. ويؤكد أن الحرب حرب على الإسلام والحضارة، وأن ما يحصل الآن هو إهانة للكرة الأرضية، وهو بالمناسبة عنوان كتابه الذي سيصدر قريبا "الإهانة". في الحوار أيضا أرقام عن تكاليف الحرب وإعادة إعمار العراق وميزانية تسلح العرب ومقارنات رقمية تثير الألم والسخرية في آن واحد.

□ **الأيام :** في آخر تصريحاتك عند بداية اندلاع الحرب على العراق قلت إن الحرب على هذا البلد ستدوم خمس سنوات أو أكثر، بعد تسارع الأحداث على الأرض هل ما زلتم متشبثين برأيكم أم ترون أن الحرب انتهت الآن ؟

(*) أسبوعية الأيام، فاتح ماي 2003 (أجرى الحوار أنس مزور).

■ م. م. : ربما سأقول إن الحرب ستدوم أكثر من خمس سنوات، لأن الأهداف تبينت الآن على الأمد الطويل وكل يوم تأتينا تفاصيل إضافية، ثم العراق لم تحتل كلها إلى حد الآن. أمريكا ستنظم نفسها في المنطقة على المدى الطويل جدا لتبقى لديها قواعد جوية في العراق، فعندما احتلت بالطريقة نفسها اليابان وألمانيا سنة 1945، وبعد مضي 60 سنة نجد أن بعض قواعدها ما زالت موجودة هناك. إذن حتى خمس سنوات هو تقدير بسيط في نظري. المهم هو أن حرب العراق لم تسفر بعد عن عدد ضحاياها الحقيقيين، فلو نظرنا فقط إلى عدد الأسلحة التي تسقط يوميا على رؤوس العراقيين وبعض الأسلحة التي لم تستعمل من قبل فهذه الحرب كانت مناسبة لتجربة أسلحة جديدة، وساهمت في رواج الشركات الأمريكية الكبرى بنسبة 30 في المائة بالنسبة للسنة الماضية.

وكما قلت في وقت ما كانت تحوم ألفي طائرة في سماء العراق في وقت واحد، إذن الضحايا سيكونون بعشرات الآلاف. وهنا لا أتحدث عن الجرحى أو الأسرى الذين ما زالوا مجهولي المصير، أتحدث عن القتلى. أظن أن الحرب الحقيقية ستبدأ الآن، لأن الحرب كانت بين دولة ودولة وبين جيش وجيش، والأمريكان زيادة على سلاحهم العسكري الجديد والممنوع في القانون الدولي فهم الآن يتحاربون مع الشعب باستعمال الاستخبارات بدل المعلومات وشراء المسؤولين الكبار، ولتعلم أن كل جندي أمريكي له رخصة للكذب، ويمنح جوائز تصل إلى 2000 و3000 دولار لأي مواطن عراقي لديه معلومات حول النظام العراقي ويساعد على التعرف على مكان أو شخصية سياسية، ومستعد للإفصاح عنها. ومنذ أحداث 11 شتنبر تغير أسلوب المخابرات الأمريكية تماما، وأدركت أن الاعتماد على المخابرات بالطريقة التكنولوجية فقط والأقمار الصناعية وما إلى ذلك غير كاف، وأنها محتاجة إلى ما يسمى بالعنصر الإنساني.

□ **الأيام** : هل ترون أن تشكيلة المجتمع العراقي من شيعة وسنة وأكراد وتركمان وغيرها من الأعراق والفصائل أذكت أكثر فتيل هذه الحرب ؟

■ م. م. : العراق شعب جبل على النضال ليس بالأمس فقط ولكن منذ قرون. في القرن العشرين والواحد والعشرين ناهض ضد الاستعمار العثماني وبعده الاستعمار الإنجليزي ثم ضد ملكية إقطاعية كان لديها ديكتاتور الناس تنسى اسمه وهو نوري السعيد، وكان ربما من أكبر الدكتاتوريين في تاريخ، ليس العراق وحده، ولكن في تاريخ العالم العربي... والآن العراقي سيدافع عن نفسه بنفسه لأنه برهن أن لديه تاريخه، ومسألة التاريخ هذه أساسية لا يفهمها الجميع لأن التاريخ ينبني على قيم ليس هناك أي قنبلة يمكن أن تدمرها.

أمريكا استعانت في حربها بسياسة التفرقة وحاولت إشاعة العنصرية وحاولت أن تجعل الأكراد ضد العرب والشيعة ضد السنة، لكن شيئا لم يحصل بعد الدمار الذي لحق بغداد، هناك نوع من الوحدة ما بين التيارات، ورأينا ذلك ولمسناه يوم الجمعة حين التحم الجميع تحت كلمة الله أكبر. هذه الحرب ضد الإسلام، والإسلام ظهر دوره حتى عندما كانت القنابل تسقط فوق المنازل والرؤوس كنا نسمع الأذان والله أكبر في المساجد.

□ **الأيام** : وإلى م يعود سر هذه الألفة بين الفصائل والانتماءات سالفة الذكر ؟

■ م. م. : هذه من شروط البقاء... كلما ضاقت الظروف يصير البقاء هدفا اسمى. وأول شروط البقاء هو الاتحاد ولو مع الأعداء ضد عدو أكبر من الجميع. أمريكا برهنت أن عدوانها ضد الإسلام وأكررها ثلاث مرات، ضد الإسلام في كل حركة، في بلاد حزبها السياسي الوحيد هو حزب البعث منذ سنين وحزب البعث علماني ولم يؤمن يوما بالإسلام شأنه شأن ما نرى في تركيا، ولكن رد الفعل الحقيقي الآن وهو زيادة على أن صدام حسين اضطر أن يضع على العلم العراقي الله أكبر، نرى الآن الرجوع إلى الإسلام كقوة روحانية.

□ **الأيام** : كيف ترون السيناريوهات المتلاحقة والسريعة لسقوط بغداد وانهيار نظام صدام حسين ؟

■ م. م. : السرعة التي وقع بها صدام كانت متوقعة، رغم أنني لا أحب التحدث عن الأشخاص، أنا كتبت مئات ومئات المواضيع حول بغداد والعراق ولم أستعمل في واحد منها اسم صدام حسين. هذا الاختزال الذي فرضه علينا الغرب، حيث عوض أن نتحدث عن عراق العراق نتحدث عن عراق صدام حسين ومصر مبارك وسوريا الأسد... صدام حسين أحضره الغرب لغرض معين، لمحاربة المسلمين في إيران. ما يفعله الأمريكان مع صدام هو ما فعلوه مع ابن لادن، الذي أتوا به لغرض معين من أجل إشعال الحرب في أفغانستان ولما انتهت مهمته انتهى. المفاجأة في سقوط النظام العراقي هي في السرعة. فمن الناحية الاستراتيجية، استعملت أمريكا الطائرات بدون طيار، التي ضحت بعدد كبير منها، والدفاع العراقي أطلق النار عليها ظنا أنها تحمل طيارين حقيقيين، وبهذا الشكل كان يكشف عن أماكن دفاعه للعدو. من ناحية أخرى الجيش العراقي اتخذ المطار رمزا للدفاع فبقيت بغداد فارغة تقريبا مما سهل الدخول الأمريكي إليها.

أضيف شيئا آخر فمن سلبيات الدكتاتوريات، هو عندما يكون الحكم مركزا كلّية بيدّ رجل أو اثنين أو ثلاثة ولا تجد التفويض لآخرين، فإن هذه المركزية القصوى التي هي جزء من الديكتاتورية، إذا كانت تنفع عسكريا أحيانا فإنها لا تنفع عندما تأتي ظروف تحتم توزيع الأدوار وتفويض السلطة. وهذا ما لم يقم به صدام، وهو ما ترك فراغا في السلطة. وليس هناك أي توزيع أدوار في أي دولة عربية أخرى. لننظر إلى العكس في أمريكا، فالجيش الأمريكي كان مسيرا من البانتاغون من جهة ومن البيت الأبيض ومن القاعدة في قطر وغيرها، وما يتيحه هذا من تبادل للمعلومات، شأنه في ذلك شأن فريق لكرة القدم، كل واحد يفهم دوره جيدا.

□ **الأيام : وهل للعدو الإسرائيلي موقع في هذه العمليات ؟**

■ م. م. : طبعا الناس لا تعرف الدور الأساسي الذي لعبه الجيش الإسرائيلي لأنه كان يتدرب دائما في غزة وفي جنين على الحرب ما بين الجدران، ويقال إن أول دبابة دخلت إلى بغداد كانت إسرائيلية.

□ الأيام : في إطار الحرب الإعلامية والنفسية كان الجميع يظن في البداية أن العراق متفوق في هذه الحرب بالذات، خصوصا مع تصريحات وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحاف الحماسية والملتهبة والمرددة باستمرار أن الأمريكان لن يظفروا ببغداد أبدا! ألا ترون أن هذه التصريحات بالذات كانت عبارة عن تضليل إعلامي مبالغ فيه، أم ترون عكس ذلك رغم الانهيار البين لبغداد ؟

■ م. م. : اسمح لي أنا لا أريد أن أعلق على الصحاف. خلال الحروب الجانب النفسي يلعب دورا كبيرا، تضليل أو غير تضليل أظن أن الحقيقة هي أن جزءا كبيرا من الإعلام العراقي كان فقط تكذيبا لأقاويل الإعلام الأمريكي، والأمريكيون استعملوا الكذب بذكاء مرة أخرى لأنه كان يجر المسؤولين العراقيين من خلال ردود فعلهم إلى الكشف عن بعض الأسرار. والإعلام الغربي نجح في تفريق المظاهرات المهزلة التي تخرج في شوارعنا ونجح في تفريق الآلام الداخلية في كل بيت. في وسائل إعلامنا الوطنية الطريقة التي يقدمون بها الأخبار تؤلمني.

وهنا أعود إلى شق من سؤالك مرة أخرى بقصد التعقيب على أحد المفاهيم وهو ما نطلق عليه هزيمة العراق أو انهيار بغداد، لنقل مصيبة وليس هزيمة، لأن الهزيمة تكون لما يكون أمامك عدو متكافئ، ما ذنب الشعب العراقي حتى تلصق به الهزيمة ؟ أي قوة لديه لمواجهة تلك الوحشية ؟ فأمريكا برهنت أن بقية العالم كله هامش بالنسبة إليها. جاءت بقصد تحطيم حضارة ومحو دين، لنتساءل مع أنفسنا لماذا اختير العراق بالضبط من خريطة العالم العربي ؟ الجواب على هذا السؤال هو كلما أوغلنا نحن في الجهل ارتفع العراق في العلم والمعرفة. العالم العربي والمسلم صرف 600 مليار دولار على الأسلحة، أين هي، أين استعملت ؟ نحن نعيش بالخوف، والعراق تعلم كيف يتغلب عليه، ولا يمكن لأي جيش كيفما كان أن ينحني له الشعب العراقي، أنا لا أخشى على العراق، وإنما أخشى على بقية العالم العربي فهو منهار أكثر مما انهار العراق.

هذه إهانة للكرة الأرضية، وأنا كتابي الذي أُعدّه الآن عنوانه "الإهانة" لأننا أصبحنا نعيش في العالم الآن ونقبل الإهانة، لم يبق للجماليات والعاطفة والأسرة والعائلة والبيئة والحيوان مكان، وأظن أن هذه نقطة تحول أساسية في الحضارة الإنسانية. وأسوأ يوم في تاريخ الإنسانية هو ما حصل لتراث بغداد من محو وإبادة. العدو يمحو الكتاب ويحرقه ونحن من أهل الكتاب. ما حصل أكثر من كارثة وأكبر من زلزال.

□ **الأيام :** أريد أن أتحدث بشكل خاص داخل الموقف العربي عن الموقف الكويتي...؟

■ م. م. : (يقاطعني منتفضا من الغضب) والله من فضلك أنا أحاول أن لا أنطق اسم الموقف الكويتي على لساني، من فضلك، فهذا الاسم يساوي قمة الخيانة، المسؤولون الكويتيون متصهينون عشر مرات أكثر من الإسرائيليين، بانت الكراهية والعجرفة وبانت كل السيئات التي تأتي من المال السهل ومن الخيانة ومن التعامل مع من يحارب الإسلام والعرب. (يعود مستدركا بعد أن يهدأ) أود أن أوضح أنني أتكلم عن القيادات وليس عن الشعب الكويتي.

□ **الأيام :** مستوى الصحافيين العرب كيف بدا لك في هذه الحرب، وكيف بدا لك الهجوم الكويتي الشرس، مرة أخرى لو سمحت، على عبد الباري عطوان رئيس تحرير القدس العربي ؟

■ م. م. : أخبث ما يوجد في الكرة الأرضية الآن هم المسؤولون في الكويت، أنا لم أزر الكويت منذ عام 1991، وكنت وراء تأسيس الجامعة في الكويت وعدة مشاريع بها وأنا في اليونسكو. لكن هؤلاء المسؤولين ملعونون من الله. وأن يمسوا شخصا مثل عبد الباري عطوان فهذه قمة النذالة، وهو للإشارة شخص منحته هذه السنة جائزة المهدي المنجرة للشمال/جنوب. وعطوان عال عليهم والواقع أن شخصيته ومواقفه معروفة واستعصى عليهم شراؤه لأنه من القلائل الذين لا يباعون ولا يشترون. فأمريكا رصدت ميزانية

تساوي مليار ونصف المليار من الدولارات من أجل شراء الإعلاميين والصحافيين في العالم العربي المستعدين لذلك، ولا أظن أن جزءا منها مر إلى جريدة القدس العربي.

□ **الأيام** : هل نستطيع أن نصدق أن أعمال النهب والسلب التي طالت تراث ونفائس العراق الحضارية هي من صنيع العراقيين أنفسهم ؟

■ م. م. : ما نراه في القنوات ما هو إلا رواية. العراقي لا يمكن أن يمس تراثه، أنا أمضيت سنوات في اليونسكو وأعرف أن العراقيين لا يمكنهم فعل ذلك. أولئك الذين رأيناهم في التلفزات هم مسخرون ومرشيون للقيام بذلك ومرتزقة، ولكن الجيش الأمريكي هو الذي ضرب وهاجم قلب المتحف، وانتقى بعض النفائس والأشياء الثمينة من المتحف وهربها. وحين قال شيراك إنها جريمة ضد الإنسانية كانت الجملة الشجاعة الوحيدة. أنا أمضيت 20 سنة في اليونسكو وخمس سنوات في قطاع خاص بالثقافة وأقول لك إنها جريمة ضد الإنسانية تشارك فيها اليونسكو نفسها. وأنا لم أكن أتصور أن يكون موقف هذه المنظمة غائبا لهذه الدرجة التي تتذرع أنها لا يمكن أن تفعل شيئا، هذا عشته أنا معهم في حرب 1991. أما نحن في المغرب ففي عالم آخر من المهرجانات والأنشطة التي لا علاقة لها بالثقافة، وهذا هو التخلف الذي قلت عنه دائما إنه يظهر من خلال القيمة التي تعطى للذاكرة ونحن ليست لدينا ذاكرة ونعيش على النسيان والتخلف.

□ **الأيام** : هلا وضحت لنا لماذا تخاذلت اليونسكو عن عمل أي شيء لإنقاذ التحف العراقية ؟

■ م. م. : هناك اتفاقية وقعتها بنفسي سنة 1970 تقضي بمنع بيع وشراء القطع الأثرية المسروقة والتراث القديم، ولكن تغيرت بعض القوانين داخل البلدان لتسهيل إدخال هذه القطع. في سنة 1991 ضاع ما يقارب 10000 قطعة أثرية من العراق في حرب الخليج الثانية، لم يرجع منها إلى حد الآن سوى 5 في المائة،

وحينها كتبت رسالة للمدير العام لليونسكو بصفتي مسؤولا سابقا عن القطاع الثقافي ولكن دون جدوى. في هذه الحرب ضاعت 200 ألف قطعة أثرية، وبالضبط يوم 4 أبريل هممت وأنا قادم من باريس إلى كتابة رسالة أخرى إلى المدير نفسه وللغرض نفسه، ولكنني توقفت، لأنني اكتشفت أنه لا غاية ولا نتيجة يمكن أن أجنيها، لأن الشيء الوحيد الذي عملته اليونسكو للعراق هو أنها أرسلت إلى الولايات المتحدة الخريطة التي تضم كل النقط التي تضم حفريات في العراق !! هناك أكثر من تواطؤ لهذه المنظمة التي رجعت الولايات المتحدة إلى عضويتها فيها كما أعلن عن ذلك بوش في شتنبر الماضي، وبالتالي فليس باستعداد اليونسكو أن لا تذعن لأمريكا مثلها مثل الأمم المتحدة. فبغض النظر عن شخص شيراك الذي قال إن تخريب المتحف جريمة إنسانية واثنين من مساعدي المستشارين الثقافيين لبوش اللذين قدما استقالتهما، فإن العالم العربي والإسلامي جامد ميت.

□ **الأيام** : هل خسارة العراق في تراثه وحضارته يمكن أن يعوضها يوما ما؟

■ م. م. : هناك أشياء غير ممكن أن تعوض، ولكن إذا أحرقوا تراثا من المتحف فإن العراقيين لديهم نسخا من الكتب والجلود والمنحوتات واللوحات الطينية، ولكن ماذا حرق بالضبط ؟ هذا هو السؤال. الخسارة العراقية في الحضارة والتراث فادحة.

□ **الأيام** : كم كلفت الحرب أمريكا بتقديركم وهل ما يقع على الأرض هو بالضبط ما رسمته في سيناريوهاتها ؟

■ م. م. : لحد الآن الحرب كلفت من 150 مليار دولار إلى 200 مليار دولار، لكن أمريكا لن تدفع الفاتورة وحدها، فهي ستستغل ثلاثة أشياء. ستأخذ من ميزانية الدولة قبل أن يأتي مدخول الضرائب، وما أخذ من الميزانية يجب أن يعوض، كيف ذلك ؟ سيعوض أولا وقبل كل شيء من العراق نفسه، ومن السعودية والإمارات والكويت ودول المنطقة كلها، سيأتي أيضا من اليابان

واستراليا... وهذا سيدخل في الميزانية المسماة ميزانية البناء أو الإعمار، والنفط سيتكلف بتغطية كل المصاريف. وإذا كان المشهد هو نفسه مشهد 1991 فإن أمريكا ستدفع تقريبا 200 إلى 300 مليار دولار، ولكن عليها أن تربح، وعلينا أن لا ننسى أموال العراقيين في الخارج التي كانت مجمدة من قبل.

□ **الأيام**: بالنسبة إلى مهمة إعادة إعمار العراق، كما تحب أمريكا أن تسميها، وإصرار أوربا على تفعيل دور الأمم المتحدة في هذه المهمة، كيف سيتم إرضاء كل هذه المطامع؟

■ م. م.: إعادة الإعمار ستتكلف بها الشركات المقربة من الرئيس الأمريكي بوش وبعض الوزراء والمسؤولين الكبار حول البيت الأبيض والبانتاغون. وللإشارة فهذه المصاريف كلها ستأتي من مدخول عراقي محض أي من النفط العراقي. ولهذا رفعت الولايات المتحدة الأمريكية العقوبات على العراق لكي تغدو هي الدولة التي تحتكر جميع التحركات داخل العراق السياسية والعسكرية والنفطية والثقافية وغير ذلك.

الأمم المتحدة يمكن أن تستعمل كجثة لتغطية الأشياء التي تمر في الخفاء، أنا لن أتحدث عن الجامعة العربية ولا عن المؤتمر الإسلامي، هذه مؤسسات برهنت عن عدم وجودها وعدم تحركها بل أكدت تعاونها مع العدو، والأمم المتحدة طبعا كذلك وكوفي عنان اشتغل مباشرة مع وزارة الخارجية الأمريكية. القضية تجارية محضة والشركات التي ستسيرها جزء كبير منها مموِّل الحملة الانتخابية لبوش، وأخرون عبارة عن شركات يهودية. لكن المشكل ليس هو الإعمار فبعض الدول طلعت علينا بأن لديها ديونا على العراق. فإسرائيل الآن قالت إن لديها أسرى عند العراق، وأنها تريد تعويضا من العراق، في الكويت أيضا أطلقت أرقام خيالية تريدها من العراق، وفرنسا لديها اتفاقيات مع العراق...

ولكي يأخذ القارئ فكرة فإن ميزانية إعادة إعمار العراق التي تقدر بـ 100 مليار دولار، تساوي المدخول السنوي المغربي لثلاث سنوات، ويمكن أن

نضرب هذا الرقم في خمسة لنعرف مدى الدمار الحقيقي الذي لحق بالعراق، لأن الميزانية المتحدث عنها لا يدخل فيها ما حصل للبنايات والعمارات والوزارات والمؤسسات الحكومية. ولا تدخل فيها أيضا الكارثة العظمى لتدمير المتاحف.

□ **الأيام : سوريا تتربص بها الآن الولايات المتحدة الأمريكية، هل يمكن أن يحصل معها مثلما حصل مع العراق بالضبط ؟**

■ م. م. : سوريا تقع في منطقة استراتيجية، فهي جارة العراق. وأمريكا دائما تتكلف بالجيران. فكما فعلت مع أفغانستان، كل الدول المجاورة بدلتها وعقدت اتفاقيات معها لضمان المنطقة، وزيادة على كون سوريا مجاورة للعراق فهي تخلق مشكلا بالنسبة إلى إسرائيل التي تخشى على ما يسمى بأمنها من ثلاث دول في العالم العربي وليس أكثر، العراق وسوريا وإيران. إذن أمريكا ستقوم بكل ما في وسعها لتغيير الأنظمة المزعجة وفقا للسياسة الجديدة.

□ **الأيام : وهل تتوقعون تدخلا عسكريا أمريكيا في سوريا مثلا ؟**

■ م. م. : هذا صعب، فاليوم هناك عدة طرق كثيرة للدخول إلى الدول، لا أظن أن دولة ما يمكن أن تحارب عسكريا في عدة بلدان في وقت واحد.

□ **الأيام : وهل تتوقعون أن تلين سوريا أمام المطالب والمطامع الأمريكية ؟**

■ م. م. : ممكن، خصوصا أن اجتماعات الدول العربية الأخيرة، لم تأت بأي تأييد حقيقي لسوريا، وهي بأي حال لن تكون مستعدة للدفاع عن سوريا ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا متوقع، لو كانت سوريا تجد في جانبها ضمانة 20 دولة عربية يمكن أن لا تتغير. القضية الفلسطينية لمدة نصف ساعة ونحن نتحدث ولم نذكرها بكلمة، فشارون هو المقرر من يريد في الحكومة، مشاكل العراق مرتبطة ارتباطا عضويا بالقضية الفلسطينية. باختصار أي دولة عربية لها قليل من الكرامة عليها أن تنتظر تأديبا من إسرائيل وأمريكا.

□ **الأيام : هل فلسطين هي من الدول الأكثر خسارة من جراء الحرب على العراق ؟**

■ م. م. : فلسطين خاسرة منذ 1917، ولكن النضال الفلسطيني حي فيها منذ 1917، والحكام العرب هم الذين خانوها. فمنظمة التحرير نفسها، تحت ضغوط عربية قبلت اتفاقيات كامب ديفيد وغيرها، مثلما العراق قبل بالضغوط العربية من أجل السماح للمفتشين بتفتيش أراضيه. الملاحظ أن أغلب المصائب والكوارث العربية تأتي من مشورتهم على بعضهم البعض. وبالأخص مشورات الأخت الكبيرة مصر. وهي حليف لأمريكا ربما بعد إسرائيل، وهذا معروف.

□ الأيام : أمريكا تقول إنها أطاحت بنظام دكتاتوري ونصبت بدله أسماء من قبيل أحمد الجلبي بما يثيره هذا الإسم من جدل، هل بهذا نطمئن أن نظام الدكتاتورية انتهى ؟

■ م. م. : أمريكا لم تفكر أن صدام ديكتاتوري بالنسبة إلى شعبه، فالديكتاتورية لا يحس بها إلا الشعوب. ثم دعني أقول لك، هل هناك بلاد عربية أو مسلمة واحدة ليس بها نظام دكتاتوري ؟ أتحدى أي أحد أن يأخذ الخريطة العربية الإسلامية من مليار و600 مليون عربي ويشير بأصبعه قائلا هنا بلاد غير دكتاتورية !! وسنرى الآن السرعة التي ستتأسس بها حكومة في العراق، وكيف أن جميع الدول العربية ستعترف بها استجابة لتعليمات الولايات المتحدة. الديكتاتورية مفروضة علينا من الغرب، والغرب لا يسمح لأنظمة ديمقراطية حقيقية، لأنها إن وجدت فستبني نفسها بنفسها ولن تحتاج إلى مساندة من الخارج، ولا يمكن لنظام ديمقراطي عربي أن يبقى في الحكم سنوات طويلة في الحكم، ولا يمكن أن يأتي على يد الأمريكان إلا ما هو أكثر دكتاتورية. فاسم الجلبي معروف أنه لص نصاب محتال محكوم عليه بالسجن. الديمقراطية التي يصبو إليها العراق ليست هي ديمقراطية الأكل السريع مثل ماكدونالدز وبيتزا هت...

□ الأيام : قمتم بما يفوق 30 زيارة إلى بغداد. هلا حدثتنا عن بعض ما وشم ذاكرتك في العراق، وأنت تلمح الدمار الذي لحق متاحفها ومكتباتها وحضارتها ؟

■ م. م. : (يقول بكثير من الألم مشيرا إلى أحد المجلدات) هذا كتاب مهم أنجزناه معا أنا والدكتور "عقاشة" وزير الثقافة العراقي سابقا مع اليونسكو اسمه "الفن العراقي القديم : السومرية والبابلية والآشورية"... عندما تدخل إلى متحف في بغداد يحصل لديك شعور من الصعب وصفه، يحصل نوع من الاندماج، يجعلك لا تنظر إلى اللوحة ولا إلى الكتاب ولا إلى التمثال، تتراءئ لك أشياء أخرى من ورائها، ترى الصحاري والجبال والأزمنة. هناك تواصل بين العصور يبدأ من مخطوط عمره 7000 سنة وينتهي بتحفة تعود إلى سنة واحدة في نوع من التسلسل والمنطق، تماما مثل النحو الذي ولد في العراق والذي خضع للتركيب والتطور. كذلك شأن الآثار وشأن الموسيقى والفن والمقامات النادرة، وشأن أحسن مدرسة للفنون التشكيلية في الوطن العربي... هناك عواصم عالمية تحدث تجاوبا روحانيا خاصا لزائرها مع الخلق والإبداع. والأمريكي مهما وصل من التكنولوجيا والغنى والعلم لا يمكن أن يفهم الحضارة والثقافة، فهما جزء من الروح وليس من العقل، ومستوى الجنود الأمريكيين للإشارة في 90 في المائة منهم لا يتجاوز الدراسات الثانوية، فكيف يمكن لهم أن يفهموا الحضارة والتراث، وإذا سألت أي واحد منهم ما هي السومر فلن تجد جوابا طبعا، ويمكن أن لا تجد جوابا حتى عند رئيس الجمهورية. الجهل كان دائما أب المصائب.

□ **الأيام : هل يمكن أن نتلمس نقطة ضوء أمام الشعور بالإحباط والانهزامية الذي يعم الوطن العربي ؟**

■ م. م. : أولا لا أقبل أن نتحدث عن الإحباط، نقطة الضوء التي لدينا هي أننا نعرف جليا الآن من هو الكذاب وما هي مسؤوليات الحكام العرب، توضحت الصورة عن آخرها ولدينا كل عناصر التحليل، والأمل هو جزء من الحياة، والإحباط خلقه الإعلام، ولكن في جميع الأديان والحضارات والفلسفات هنالك حق، وهذا الحق سيأتي في وقته، لا ندري متى يحين هذا الوقت، وريثما يأتي لا يجب أن نقع في الإحباط، وألا نتوقف عن النضال من أجل الدفاع عن القيم والأفكار.

15

عولمة الفاشية(*)

لا يمكن الحديث عن انتهاء الحرب بالعراق، إنها بالأحرى حرب بدأت منذ عقود ولم تنته بعد. لقد أسميت ما يقع بعد انهزام الاتحاد السوفياتي ودخولنا في حقبة القوة الوحيدة ممثلة في الولايات المتحدة الأمريكية بالحرب الحضارية، إنها حرب ضد كل ما هو عربي مسلم، وإذا شئنا فهي ضد كل ما هو غير يهودي مسيحي.

فالحرب على العراق لا يمكن أن تدخل إلا ضمن مسلسل بدأ منذ بداية تسعينات القرن الماضي مع نهاية المعسكر الشيوعي ولا يزال مستمرا، وسيستمر على الأقل لمدة 15 إلى 20 سنة. بالتالي، فمن حيث المقاصد فإن ما حدث يوم 11 ايلول (سبتمبر) لا يغير شيئا في المسلسل المذكور، حيث كانت كل الأشياء مهيأة ووفق عدة سيناريوهات، والقصد الأساسي هو كيف سيمكن للولايات المتحدة أن تسيطر على العالم بأسره. وأحسن طريقة في سبيل ذلك هي أن تدخل الولايات المتحدة إلى منطقة عربية مسلمة استراتيجية من الناحية الجغرافية ولديها الموارد الطبيعية الغنية مثل النفط، غير أن هذا ليس سوى محطة ضمن مسار أوسع.

إننا بإزاء ما أسميه "الميغا امبريالية" ذلك أنه على عكس التعريف الكلاسيكي للامبريالية مع الرومان ثم المرحلة الاستعمارية في القرن التاسع عشر، إذا كانت الامبريالية توسعا استعماريا للاستيلاء على مناطق لأسباب اقتصادية، وبالأخص المواد الخام، وسوق بترولية ويد عاملة رخيصة، وهذا كان ضمن ما سمي

(*) جريدة القدس العربي، 9 ماي 2003.

بالثورة الصناعية، أما الآن، فإن المرحلة الصناعية انتهت وأصبحنا نعيش في عالم ما بعد هذه المرحلة، وهو المجتمع المعرفي.

إن الفرق ما بين الامبريالية الكلاسيكية والميغا امبريالية هو أن هذه الأخيرة لا تحتاج للجغرافيا، حيث لديها وسائل جديدة مثل التكنولوجيا المتطورة للسيطرة على العالم بأسره عبر تقنيات المراقبة، وبالتالي فإن هذه الوسائل أصبحت تغني عن الوجود في عين المكان. فثمة أقمار صناعية تنقل كل تفاصيل ما يجري في شتى مناطق العالم، وهو ما يكفل التحكم عن بعد. ثم أن المعلومات لم تعد محصورة في الاستخدام العلمي، بل إن الولايات المتحدة حولت العالم في السنين الأخيرة بكل وقاحة إلى عالم استخباري، حيث إن هناك شطرا من الميزانية الفيدرالية للولايات المتحدة بالخصوص تبلغ نحو مليار ونصف مليار دولار لشراء الصحافيين والكتاب بغرض توظيفهم للأعمال الاستخباراتية.

لقد أصبح للميغا امبريالية أسلوب جديد ولغة من تركيب جديد، والميغا حسب مدلولها تقتضي الانفراد بالقرار. فهي لا تقبل امبريالية أخرى منافسة على عكس ما كان في السابق، حيث كانت الامبريالية الفرنسية مثلا تقبل بوجود امبرياليات أخرى ألمانية وبريطانية وإسبانية أو غيرها.

العالم يتطور بسرعة أكبر بكثير مما يمكن أن يتوقعه المرء، وجوهر التخلف هو عدم التوقع، وغياب الرؤية على المدى الطويل، والمسؤولون في العالم الثالث الذي يعتبرون التخلف بعينه لا يفكرون سوى في الأربعة والعشرين ساعة المقبلة، مهووسون بسؤال واحد، هل سيبقون في الحكم أم لا ؟ أما الدول المتقدمة فتتوفر على المسؤولين الذين يفكرون في الانتخابات المقبلة التي ستكون بعد شهرين أو سنوات، وهناك أجهزة وشبكات معروفة متمثلة في جامعات ومعاهد للبحث المختصة بالتفكير على المدى الطويل. أما نحن فلا نملك من ذلك شيئا، وكم صعقت حينما جاء أحد سفراء الولايات المتحدة الأمريكية سابقا بالمغرب بكل وقاحة بوثيقة ليتحدث عن المغرب

بعد عشرين سنة أمام الصحافيين، ومعنى ذلك أن ماضينا وحاضرنا بل وحتى مستقبلنا ليس بأيدينا.

إن أهمية التوقع لا تخفى على أحد، فما رأيناه في العراق أخيرا كان مخططا له منذ أمد طويل. فقد كان ما بين 400 ألف و500 ألف شخص موجودين في المنطقة ناهيك عن الأقمار الاصطناعية والأطباء والمخابرات بكل أنواعها ليس في العراق فحسب، بل في مختلف أنحاء العالم لسبر أغوار ما يقع وله علاقة بالمعرفة التي كان يتم الإعداد لها ضد العراق فضلا عن بنك معطيات لا يمكن تصورها، شاركت فيها أجهزة المخابرات العربية حيث تساهم هذه الأخيرة بأهم المعطيات عن المنطقة، وهذا لم يحصل في التاريخ من قبل.

إن الدعاية الأمريكية تركز على الأشخاص. ففي حالة العراق تم اختزال كل شيء في صدام، مع تجاهل أن في العراق أمة عريقة، وأن 90 بالمائة مما رأيناه عن العراق هو كذب وبهتان. فالإنسان العراقي مهذب ولا يمكنه أن يقترف مثل تلك الأشياء. لقد جاء الأمريكان بأشخاص من مناطق أخرى ليقوموا بما قاموا به.

إنها الحرب النفسية التي عقبت الحرب العسكرية لتكون الهزيمة شاملة. الحرب لم تنته بعد.. فبالرغم مما حصل فإن الشعب العراقي سينهض، ويجب أن نستحضر هنا ما حصل في اليابان وألمانيا عقب الهزيمة، والبشاعات التي حدثت، لكن ماذا طلع من تلك البشاعات فيما بعد ؟ لقد حقق البلدان أعلى مستويات التقدم الصناعي.

إن أمريكا لا تاريخ لها يذكر، فوجودها لا يتعدى 300 سنة والجزء الأكبر من تاريخها القصير أتاها من أوربا، ويجب ألا ننسى أن الولايات المتحدة الأمريكية عمدت من قبل إلى محو حضارة 20 مليون هندي محلي في حرب إبادة، عقب اجتثاثها لما بين ثلاثة أوأربعة مليون شخص من افريقيا. وأنا أقول إن أمة بلا تاريخ لا تستطيع امتلاك نفسها أمام حضارات لها ستة أو سبعة آلاف

سنة. لذلك فهي تحاول قتل ذاكرة تلك الحضارات، لأنه عندما يتم القضاء على تلك الذاكراة يعتقد أن المغلوب انهزم.

هناك كتاب قديم مهما لأحد الأمريكيين يدعى تورنر قال فيه إنه لا يمكن فهم الولايات المتحدة الأمريكية إذا لم تستوعب مسألة الحدود، لأن الأمريكيين جاءوا في جلهم من أوربا، والأرض الأمريكية بالنسبة إليهم ليست سوى محطة في مسيرة طويلة لتخطي الحدود والهيمنة على العالم، حيث عقب استيلائهم على العالم الجديد، ذهبوا إلى ما وراء المحيط الهادئ وقالوا بعد ذلك إن هذا لا يكفي.

مقابل ذلك، فإن ما وقع بالعراق يشي ببداية نهاية الامبراطورية الأمريكية، لأن الذي ضاع من الإنسانية الآن هو القانون أي الجانب الشرعي، ولم يعد هناك من مرجعية في هذا الصدد سواء في البلدان أو المؤسسات الدولية، وهو ما يخلق فوضى خطيرة. فالمؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة أو اليونسكو لم يكن بمقدورهما منع دخول الجيش إلى المستشفيات وتدمير أهم المآثر في تاريخ الإنسانية، لقد كان المقصود أن يرى الناس الفوضى والتدمير والدوس على الذاكرة. لقد قضيت 20 سنة من عمري في الأمم المتحدة وكتبت كتابا قلت فيه بنهايتها لأنه لم تعد لها مصداقية، وعندما جاءت حرب الخليج الأولى وما تلاها قلت بأن ديكولار قتل الأمم المتحدة وبطرس غالي كفنها أما كوفي عنان فدفنها.

من ناحية ثانية يجب أن نؤكد على وجود علاقة عضوية بين قضية العراق والقضية الفلسطينية. فأمريكا تدافع عن مبدأ واحد مفاده أنه لا يمكن لأي أحد أن يمس بإسرائيل، كما لا يمكن لأي كان أن يصل لمستوى تكنولوجي يخول له الإضرار بإسرائيل.

إن الأساس ليس هو ماذا يفعلون، بل ماذا نفعل نحن... حيث نجد أن العرب أنفسهم خانوا فلسطين، وعلى رأس الخائنين حسني مبارك وعرفات،

وتتمثل خيانة الخيانات في تكوين ما يسمى بالحكومة الفلسطينية واعتبار بوش لاختيار أبو مازن بأنه اختيار ممتاز.

إننا بإزاء هزيمة منظور برمته عمّر لعقود طويلة. فالدول العربية والإسلامية بأنظمتها السياسية وبمثقفيها وبكل مكوناتها المجتمعية هي نموذج فاشل، والأسباب تتمثل أساسا في التخلف، إذ لم نستطع في ظرف خمسين سنة أن نتقدم في محو الأمية، ولم نعرف ما هي الدمقراطية لا من بعيد ولا من قريب، ولم نعرف الحرية العامة واحترامها ولا دور الابتكار ودور العالم والمبدع إذا لم يكن في خدمة نظام سياسي معين.. إننا نؤدي الآن ثمن هذا التخلف.. وما نعيشه الآن من هزائم ليس سوى البداية، ولذلك لا يمكن قبول سؤال ماذا بعد الحرب ؟ البداية هي أن تتحرك الشعوب وتنتفض ضد الذل. وأتذكر أنه بعد صدور كتابي حول الذلقراطية اعتبر البعض ذلك مبالغة، واليوم فإن المصطلح يعبر العالم والجميع يتحدث عن الذل المعمر، لذا فما بعد الحرب هو البداية.

إن لبغداد تجاربا وتاريخا عظيما في القرن التاسع وبعد القرن العاشر، مع دخول المغول.. الذين حطموا بغداد وكان عدد القتلى مليون شخص، ومع ذلك انطلقت فيما بعد. إننا لا نخشى على الشعوب التي لها ماض وكرامة ومقاصد ومفهوم حضاري. ليس ثمة شك أن الذي جرى شيء مؤلم، غير أن الاحتلال لن يتجاوز خمس سنوات لأن الاحتلال هو بداية الحرب، وأمامنا النموذج الصهيوني في فلسطين.

إنه لمدعاة صدمة حقيقي أن يسمع المرء في هذه الظروف وزيرا مغربيا يقول ما معناه إن منطقة البحر الأبيض المتوسط خسرت الكثير من السياح بسبب حرب الخليج، ومن المجحف أن نقرأ ونسمع بأن السفارة الأمريكية تعطي منحا لدراسة الديمقراطية في هذا الوقت بالذات.

إن أضعف الإيمان أن يحترم الإنسان نفسه ويرفض الذل، لقد كان مطلوبا كحد أدنى أن تقوم الدول العربية باستدعاء سفرائها في واشنطن للتشاور، ولو

لذر الرماد في العيون. لقد دفعت الدول العربية لحد الآن 600 مليار دولار في الأسلحة... أين هي هذه الأسلحة ؟

إن الأجيال المقبلة ستحاكم المسؤولين السياسيين ومسؤولي جامعة الصهيونية العربية، وما يسمى بالمؤتمر الإسلامي... لقد رأينا مصر الدولة العربية الكبرى التي هي الأساس كيف تصرفت.. مصر مبارك والسادات والدور الخطير الذي لعبته منذ كامب ديفيد إلى الآن، انظر إلى الصحف مثل الأهرام والصحافيين والمخابرات. مع ذلك يبقى الأمل لأن هناك الشعب المصري العريق الذي يدافع عن شرفه وكرامته وقوميته.

إننا أصبحنا نعيش في ظل عولمة للفاشية تشبه النازية على المستويات القطرية لكنها أضحت تتسع لكل بقاع الأرض.

وقصدي من هذا إنما القول بأن الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما لن تقبل أبدا بنظام ديمقراطي في أي بلد من بلدان العالم الثالث، لأنها محتاجة إلى بلدان تسير بطريقة إقطاعية ديكتاتورية وهو ما يوفر سهولة السيطرة على حكومة أو فرد، وهذه أشياء معروفة.

إن المطلوب الآن هو التركيز على المشاركة المجتمعية في الحياة العامة، ليس المشاركة الفلكلورية مثل التسجيل أو التصويت، بل المشاركة الحقيقية عبر النظام الدستوري والبرامج التربوية من خلال إعطاء الأولوية للإنسان.. إن أكره ما يمكن أن يكرهه المرء هو هذا اللغو الماسخ حول الحداثة. أنا لا أفهم المدلول الذي يعطى لهذه الكلمة من خلال المتشدقين بها. ماذا يريدون تحديثه ومن أعطاهم وكالة الحديث باسم المجتمع عن الحداثة ؟..

العالم يتطور بسرعة مذهلة بينما لدينا بعض المهرجين يقضون الوقت في الكلام عن حداثة لا وجود لها سوى في مخيلاتهم، مستغلين ذلك لمدة معينة بأساليب ديماغوجية وانتهازية مفضوحة.

قلت في أكثر من مرة ومناسبة إن الحرب على العراق ستدوم أكثر من خمس سنوات، وهذا مؤكد لأن الأهداف تبينت الآن على الأمد الطويل وكل يوم يأتينا بتفاصيل إضافية تزكي ذلك وتقويه. أمريكا ستنظم نفسها في المنطقة على المدى الطويل جدا لتقيم لها بالعراق قواعد عسكرية دائمة بالطريقة نفسها التي اعتمدتها باليابان وألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

إن الحرب على العراق لم تسفر بعد عن مجمل ضحاياها الحقيقيين. فلو نظرنا فقط إلى عدد الأسلحة التي كانت تسقط يوميا على رؤوس العراقيين في أحيان عدة من لدن أكثر من 2000 طائرة في وقت واحد لتبين لنا بجلاء ووضوح أن الضحايا هم حتما بعشرات الآلاف وأكثر ناهيك عن الجرحى والأسرى الذين لا يزالوا مجهولي المصير.

أعتقد أن الحرب الحقيقية لم تبدأ بعد، لأن الحرب كانت إلى حين التاسع من أبريل، بين دولة ودولة أو لنقل تجاوزا بين جيش وجيش، والأمريكان زيادة على سلاحهم العسكري الجديد والممنوع في القانون الدولي، فهم الآن يحاربون شعبا أعزل باستعمال الاستخبارات وشراء المسؤولين الكبار بدل مصادر المعلومات التقليدية، إذ منذ الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) تغير أسلوب المخابرات الأمريكية تماما، وأدركت هذه الأخيرة أن الاعتماد على المخابرات بالطريقة التكنولوجية المعتادة أو بأعتدة الأقمار الصناعية وما إلى ذلك غير كاف، وأنها محتاجة إلى ما يسمى بالعنصر البشري.

أمريكا استعانت في حربها بسياسة التفرقة وحاولت إشاعة العنصرية بل حاولت أن تجعل الأكراد أضدادا للعرب والشيعة أضدادا للسنة، لكن الذي حصل بعد الدمار الذي لحق بغداد، هو نوع من الوحدة عميق ولربما غير محسوب (من لدن الغزاة) ما بين التيارات، ورأينا ذلك ولمسناه يوم الجمعة الأول حين التحم الجميع تحت كلمة لا إله إلا الله.

ليس لدي ذرة شك في أن هذه الحرب هي حرب ضد الإسلام، والإسلام برز دوره برمزية أكبر لما كانت القنابل تسقط فوق المنازل ورؤوس العراقيين وكنا نسمع بموازاة ذلك الآذان والتكبير بالمساجد.

وأمريكا استعملت الكذب بذكاء كبير لأنه كان يجر المسؤولين العراقيين من خلال ردود فعلهم إلى الكشف عن بعض الأسرار تماما كما نجح الإعلام الغربي في تفريق المظاهرات المهزلة التي خرجت في شوارعنا بائسة غير صادقة.

وعلى هذا الأساس فيقيني أن أمريكا إنما جاءت بغرض تحطيم حضارة ومحو دين. لنتساءل مع أنفسنا : لماذا اختير العراق بالضبط من خريطة العالم العربي ؟ الجواب على هذا السؤال هو أن الماضي أبان بجلاء أنه كلما أوغلنا نحن في الجهل كلما ارتفع العراقيون في العلم وفي المعرفة. العالم العربي والمسلم صرف 600 مليار دولار على الأسلحة، أين هي ؟ لأي قضية تم استعمالها ؟ نحن نعيش بالخوف، والعراق تعلم كيف يتغلب عليه، ولا يمكن لأي جيش كيفما كان أن ينحني له الشعب العراقي. أنا لا أخشى على العراق، وإنما أخشى على بقية العالم العربي فهو منهار أكثر ما انهار العراق.

نحن اليوم نعيش حالات غير مسبوقة من الإهانة والذل لم يبق معها للجماليات أو العاطفة أو الأسرة أو البيئة أو الحيوان قيمة أو رمزية تذكر وهذه نقطة تحول أساسية في الحضارة الإنسانية. ولعل أسوأ يوم في تاريخ الإنسانية هو ما حصل في تراث بغداد من محو وإبادة. العدو يمحو الكتاب ويحرقه ونحن من أهل الكتاب. إن ما حصل هو أكثر من كارثة وأكبر من زلزال.

ما رأيناه في القنوات الفضائية من نهب وسلب ما هو حقيقة الأمر إلا رواية. العراقي لا يمكن أن يمس تراثه، أنا قضيت سنوات عدة في اليونسكو وأعرف العراقيين جيدا وأعرف أنه لا يمكنهم فعل ذلك. أولئك الذين رأيناهم على شاشات التلفزيونات هم مسخرون ومرتزقة ومدفوعو الأجر للقيام بذلك.

الجيش الأمريكي هو الذي ضرب وهاجم قلب المتحف، وانتقى النفائس والأشياء الثمينة منه وهربها بل سرقها في الجهر والعلن. وحين اعتبر شيراك بأنها جريمة ضد الإنسانية كانت الجملة الشجاعة الوحيدة التي صدرت بهذا الخصوص من الغرب.

هذه جريمة ضد الإنسانية بكل المقاييس تشارك فيها اليونسكو نفسها ولم أكن أتصور أن يكون موقف هذه المنظمة غائبا لهذه الدرجة تتذرع لتبريره بكونها غير قادرة على فعل شيء.

هناك تواطؤ جوهري بين هذه المنظمة والولايات المتحدة التي وعد رئيسها في ايلول (سبتمبر) الماضي بتجديد الانضمام إليها.

قد لا تهمني كثيرا مصاريف الحرب (ما بين 150 إلى 200 مليار دولار سيدفع العرب جزءا منها والباقي من بترول وودائع العراقيين بالخارج) ولا تهمني كثيرا خطابات إعادة الإعمار التي يتشدق بها هذا الطرف الأمريكي أو ذاك المرتزق العراقي (على خلفية من رفع الحصار) أو ما سوى ذلك، لكن الخطير في ذلك هو تحويل كل القضية إلى مسألة تجارية تتزايد الشركات الأمريكية والإسرائيلية للفوز بصفقاتها.

عندما تدخل إلى متحف في بغداد ينتابك شعور من الصعب وصفه، يحصل نوع من الاندماج، هناك تواصل بين العصور يبدأ من مخطوط عمره 7000 سنة وينتهي بتحفة تعود إلى سنة واحدة، تماما مثل النحو الذي ولد في العراق والذي خضع للتركيب والتطور، كذلك شأن الآثار وشأن الموسيقى والفن والمقامات النادرة، وشأن أحسن مدرسة للفنون التشكيلية في الوطن العربي.

هناك عواصم عالمية تحدث تجاوبا روحانيا خاصا لزائرها مع الخلق والإبداع. والأمريكي مهما بلغ من التكنولوجيا والغنى والعلم لا يمكن أن يفهم الحضارة والثقافة. الثقافة والحضارة جزء من الروح لا من العقل.

ما فعلته أمريكا بتراث العراق وحضارته لا يستوجب فقط التنديد أو

التحسر، إنه يتطلب إقامة محكمة دولية تتابع وتعاقب أفرادا وجماعات أبادوا البشر والحجر وفوق كل هذا وذاك جزءا كبيرا من الذاكرة الإنسانية.

وعلى الرغم من ذلك فأنا لا أعتقد بالمحصلة أن المشهد سوداوي بالمرة، فهناك نقط ضوء يفرضها التاريخ وتستلزمها الحياة. في جميع الأديان والحضارات والفلسفات هناك حق، وهذا الحق سيأتي في موعده، لا ندري متى يحين هذا الموعد، وريثما يحين لا يجب أن نقع في الاحباط، أو أن نتوقف عن النضال في الدفاع عن القيم والأفكار وأن ندفع بالمقاومة لأنها هي نقطة الضوء الكبرى.

16

أحداث الدار البيضاء : نهاية الاستثناء المغربي(*)

يرى د. المهدي المنجرة أن أسطورة المغرب البلد / الاستثناء قد انتهت، موضحا أن الذي جرى هو تشويش من أجل القول إنه لا وجود لاستقرار حقيقي، ومحذرا من اعتماد المفهوم الأمريكي للإرهاب الذي يربط بينه وبين الحضارة الإسلامية.

□ **الأيام : معظم الذين علقوا على عمليات الدار البيضاء لم يعالجوا الأسباب التي تقف وراءها، ولم يجيبوا عن سؤال لماذا، فهل لديكم جواب ؟**

■ م. م. : أولا إن المرء تحت تأثير ما حدث لهؤلاء الضحايا الأبرياء وأمام ردود فعل عائلاتهم يصعب عليه القيام بأي تحليل، وما يهم في البداية هو الوقوف عند هذه الواقعة.

ثانيا : يجب إبداء التعاطف معهم ومع أسرهم.

ثالثا : علينا أن نتوقف أمام مفهوم الإرهاب. فأنا متأثر بشكل كبير بغاندي وبمحاربته للعنف كمبدإ وكوسيلة أو غاية، ولكن في نفس الوقت يجب أن نعلم أن ما يسمى الإرهاب قد دفعت عليه الولايات المتحدة ملايير الدولارات لتفرض مفهومها الخاص حتى تربط بين الإرهاب وبين الإسلام والحضارة الإسلامية. وهذا ما ينبغي أن نتخوف منه من الناحية التحليلية.

الإرهاب جاء من الدول الكبرى، والإرهاب الأول الذي هو إرهاب الدولة جاء من فرنسا حين استهدفت الطائرة التي كانت تقل بن بلا وجماعته لما دخلوا المغرب كضيوف على محمد الخامس رحمه الله.

(*) أسبوعية الأيام، العدد 87، 22 ماي 2003 (أجرى اللقاء أنس مزور).

إرهاب الدولة هو ما شاهدناه مؤخرا بالعراق من خلال آلاف الموتى الأبرياء... هو ما شاهدناه بأفغانستان...

الإرهاب الحقيقي هو الإرهاب الصهيوني الذي نشاهده يوميا بفلسطين.. هو الإرهاب الروسي بالشيشان..

نحن دخلنا مرحلة تمت فيها عولمة العنف.. لكن من يقف وراء عولمة العنف ؟ ومن يقف وراء بيع الأسلحة ؟ ومن له المصلحة في الأعمال الإرهابية الحقيقية ؟

أظن أنه بالنسبة للمغرب لنا ماض وطقوس وأخلاق لم تقبل العنف كوسيلة وكحل منتهج..

□ **الأيام** : (أقاطعه) لكن المصادر الأمنية تؤكد أن منفذي الهجمات الانتحارية مغاربة؟

■ م. م. : يمكن أن يكونوا مغاربة، فأنا لا أتوفر على المعطيات.. وإذا صرحوا بكونهم مغاربة فهم كذلك.. وهذا يجعلنا نقف أكثر عند مسألة مهمة، فالشيء الذي نخطئ فيه دائما بالمغرب، وأنا أعتبره عجرفة وأنانية، هو أن بلدنا ليس كباقي بلدان العالم. وهكذا أقيمت حملة دعائية لم يسبق لها مثيل أساسها هو "المغرب أجمل بلد في العالم" نجدها في C.N.N والجزيرة...

وقبلها كانوا يتحدثون عن استثنائية المغرب، فهو بلد ليس كباقي الدول الإسلامية ولا كباقي الدول الافريقية... والمغرب ليس كباقي دول المغرب العربي ولا كبقية دول العالم العربي...

الآن يجب أن ينتهي هذا الاستثناء في التحليل، فنحن جزء من الكل، والتحليل الشمولي ضروري...

كانوا يقولون إن المغرب لن يتأثر بما حدث في العراق.. ولن يتأثر بما يقع في تلك الدول.. يجب أن ندرك من الناحية العملية ما هي المنظومة... نحن

جزء من منظومة أكبر منا هي إما إفريقيا، وإما العالم العربي، وإما العالم بأسره، ونحن الآن نعيش في مرحلة لم تبق فيها أخلاق. فالولايات المتحدة برهنت في أكثر من مرة أنها لا تحترم الأخلاق وتخرق القانون الدولي كيفما شاءت.. فهذه دولة كبيرة تعطي المثال .. هناك علاقة بين العنف وبين الظلم.. وبين العنف وبين غياب الديمقراطية، وبين العنف والجهل..

إذن قضية العنف هي أمر معقد جدا وله علاقة بالمرحلة التي تمر منها أية دولة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، وله علاقة كذلك بالنخبة... فالنخبة لدينا لم تقم بدور يشجع العلاقات بين مكونات مجتمع مدني حقيقي.. الأسباب كثيرة، وأنا أؤكد مجددا أن أسطورة استثناء المغرب خطأ يجب أن ينتهي.

فالمغرب جزء من افريقيا ومن العالم العربي.. وإشكالياته هي إشكاليات هذا العالم، فنحن أفارقة وأمازيغيون ومسلمون ولسنا جزء من اسكندينافيا...

ما أركز عليه الآن، هو أن ما حدث لا علاقة له لا بالإسلام ولا بأي أخلاق أو دين..

□ **الأيام** : المغرب بالفعل كان دائما بمنأى عن أعمال مثل هذه باستثناء عملية أطلس أسني، ألا تعتبرون أن للأمر علاقة بالولايات المتحدة على أساس أن المغرب من المتعاونين معها ؟

■ م. م. : نحن نتابع تصاعد أحداث الظلم والعنف من طرف الولايات المتحدة وإسرائيل، ونحن يوميا نرى ما يقع بفلسطين. والناس تقول اللهم إن هذا منكر...

أنا لا أتفق مع العنف ولا أبرره، لكن المحلل يجب أن يذكر ما هو موجود في الواقع، وما تطرحه بخصوص المخابرات الأمريكية وغيرها، أنا طرحته قبل شهور وقلت إن هذا يؤثر على ما يحدث بالمغرب...

الآن أصبحنا أمام عالم استخباري، وأضحى الاستخبار هو الأساس في كل مكان... بالشارع، بالحي، بالمدينة، بالقطر...إلخ.إذن العنف يولد عنفا مضادا، والاستخبار يولد استخبارا مضادا..

لم تبق هناك حياة عادية حيث يصبح التشكك سائدا.. يجب أن نعترف بأن الأوضاع بالمغرب ليست هي تلك التي نسمع من تصريحات الناطقين باسم الحكومة.. فالفقر يزداد يوما بعد يوم، والوضع الصحي في تدهور مستمر.. ومع ذلك أقول إن كل هذه الأمور لا تبرر ولا تسمح بأي حال من الأحوال بالقيام بعمليات من مثل ما وقع بالدار البيضاء.

□ **الأيام** : قد نتفق أنه لا يوجد مبرر من أجل القيام بعمل كهذا، لكننا أمام أناس لم يقوموا بأعمال عنيفة فقط وإنما قاموا بتفجير أنفسهم، فكيف تفسرون هذا الأمر ؟

■ **م. م.** : هذا سؤال يجب أن يجيب عنه اختصاصيون في علم النفس. لكن أتساءل إذا قمنا بقياس للرأي العام ماذا سنجد ؟ سنجد أن الأغلبية الساحقة هي ضد العنف وضد ما حدث، لكن أعتقد أن هناك جزءا من هذا الرأي سيتفهم الأسباب التي أدت إلى هذه العملية رغم كونه لا يدافع عنها ولا يوافق عليها وهذا هو الفرق.

أنا أدين الحدث وأتمنى من الله ألا يتكرر في بلادنا، وأن ينهج الجميع الطرق الحضارية والسلمية في التغيير. ولكن في نفس الوقت يجب أن نكون واعين بما هي المشاكل الحقيقية.. وهذا الكلام الفارغ الذي نسمعه صباح مساء في المجال السياسي وحتى في جزء كبير من المجتمع المدني يجب أن ينتهي..

□ **الأيام** : في حدود المعلومات المتوفرة لديكم، هل ترجحون أن تكون العمليات مدبرة من طرف جهات بداخل المغرب أم من طرف شبكات دولية ؟

■ م. م. : أظن أنه حين تعتمد التحليل المنظومي، لا يبقى هناك فرق بين الأمرين، فهناك ظروف وأحداث لا تبقى فيها حدود بين ما هو وطني وبين ما هو محلي وأجنبي. لهذا قلت يجب أن ننسى مقولة إن المغرب استثناء.

□ الأيام : وهل لديكم قراءة لطبيعة الأماكن المستهدفة ؟

■ م. م. : لا أدري بالضبط طبيعة هذه الأماكن، ربما هذه رموز لها علاقة بالسياحة والأجانب.. لكن لا أدري بالضبط فيصعب معرفة السبب الحقيقي.

وما هو واضح لحد الآن هو أن المقصود من هذا العمل هو إحداث نوع من التشويش.. لكن ما هي الارتباطات القائمة بين كل مكان استهدف ؟ وهل هناك فلسفة ربط معينة ؟ الله أعلم.

الذي تبين الآن هو إرادة التشويش والقول إن الاستقرار المتحدث عنه لا يوجد. إنه مس بمفهوم الاستقرار وهذا أهم من الحديث عن تفاصيل لماذا قنصلية أو غيرها، فبالنسبة إلي هذه أمور ثانوية.

ويبقى في الأخير أن أسجل أنه بجانب مطالبتي بالموضوعية والتحليل الشمولي، يجب ألا ننسى الضحايا الأبرياء الذين لم تكن لهم أية علاقة بالأسباب التي قد تكون وراء ما حدث.

17

الحرب الحضارية ومستقبل العالم الإسلامي(*)

□ رؤى : مقولة صراع الحضارات وقد كنتم أول من أطلق هذه المقولة قبل هانتنغتون ولكن بصيغة الحرب الحضارية وليس بصيغة الصدام لهانتنغتون، كيف تحددون الفارق بين الصيغتين ؟ وهل لازلتم متمسكين بهذه المقولة في ظل المتغيرات الدولية الجديدة ؟

■ م. م. : أنا وقائي، بينما هانتنغتون يقول إن الخطر سيأتي من العالم غير اليهودي ـ المسيحي، وهذا خطاب يستند إلى الدفاع عن النفس ويمكن فهمه على الأمد الطويل ضمن الدراسات المستقبلية. فحين حدث التدخل ضد العراق، وليس العراق الهدف ـ فلنقل الأشياء كما هي ـ وإنما كان التدخل ضد الإسلام، صار الغرب في الحقيقة في موقف الدفاع عن نفسه، الشيء الذي دفعني أكثر في نفس السنة التي أصدرت فيها كتابي "الحرب الحضارية الأولى" إلى المشاركة في الندوة التي نظمت في الجزائر عن "المستقبل الإسلامي" وكانت ندوة مهمة ومرجعية وأظن أنها لا تزال كذلك، وحضرتها شخصيات عديدة ومتنوعة من جميع التيارات، كما حضرها علماء دين من مثل الغزالي والقرضاوي.

وقد قدمت وثيقة أثرت فيها مشكلة انعدام مؤسسات التوثيق وتحقيق المعلومات تخص العالم الإسلامي، وبينت أن الإحصاء الوحيد الموجود فيما يتعلق بعدد المسلمين في العالم قام به الفاتيكان من خلال مكاتبه في العالم وذلك منذ عشر سنوات وتحديدا سنة 1978، توصل إلى أن عدد المسلمين يفوق الكاثوليكيين إذ بلغ 965 مليونا بينما عدد الكاثوليكيين 950 مليونا (وأنا

(*) مجلة رؤى، العدد 16، باريس 2002.

أتوقع أن يتضاعف عدد المسلمين بعد أقل من عشرين سنة). فلما أبانت هذه الفجوة بأن الانشقاق الذي خلقه الغرب حين بدأ يتكلم عن الإسلاميين لكي يجد فرصة للتفريق بين المسلمين والإسلاميين ويقول إنه ليس عنصريا ولا يعادي الإسلام دينا وعقيدة بل الإسلاميين المتطرفين، الإرهابيين...، وأستطيع أن أبرهن على هذا بدراسة علمية كاملة قد لا يسعها هذا الحوار.

وللأسف وجد خطاب الغرب هذا صداه الإيجابي في العالم الإسلامي، ولا أزال أحتج عليه باعتباري مسلم أعرف القرآن والسنة النبوية والأحاديث، فهناك المسلم والمؤمن ولم أجد كلمة "إسلامي" في القرآن الكريم ولا في أي حديث نبوي أي كان تصنيفه، فتحول هذا الخطاب إلى نوع من البدعة التي استغلها الغرب للتقسيم والحفر في الإسلام بهذه الطريقة. كان لي بحث بعد ذلك عن كلمة "إسلامي" ووجدت أن من استعملها من أمثال الإمام الشافعي والأشعري إنما بمعنى يفيد المنتسب إلى المدرسة الأدبية والفكرية في الإسلام. وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ظهر استعمال islamist في الموسوعة البريطانية ويعني من كان يدرس الدول الإسلامية أي المستشرق.

في المغرب وجدنا كلمة "إسلامي" من جديد في بداية القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر في مخطوطات بمدينة تطوان وبشمال المغرب حيث كانت تطلق كلمة "إسلامي" على اليهود الذين أتوا من إسبانيا ثم أسلموا حتى يتم التفريق بين المسلم الأصلي والذي اعتنق الإسلام حديثا. إن من بين الأخطاء الكبيرة التي ارتكبها الغرب في تعامله مع الإسلام وتناقلها عنه المسلمون، وهو أمر يفصلني عن هانتغتون كذلك، هي استغلال القيم وتوظيفها للحضارة والتقدم. فأنا أرفض أن يتدخل أي كان وكيفما بيني وبين الله، فحسابي مع الله مادمت لم أعتد عليه وإن كان كذلك فيمكن حينها للقضاء البشري أن يتدخل. فهي الحرية التي كفلها الله للمسلم فوجب أن نستمتع وأن نحارب كل من يقف ضدها. كذلك أرفض نقل النموذج الغربي مباشرة كما هو إلى بلداننا تماما مثلما لا يمكن نقل نخلة من جنوب تونس إلى موسكو وننتظر أن تنبت.

وهذا لا يعني أن أقطع اتصالي مع باقي العالم، لكن يمكنني أن أستقل في كياني. الحضارة روح، والأزمات التي نعيشها هي حضارية ثقافية بالأساس قبل أن تكون تنموية. يمكنك أن تتجاوز بعض الصعوبات في التنمية بأن تذهب إلى البنك الدولي وتأخذ ما تحتاجه من نقود، ولكن لا يمكنك أن تستلف ثقافة. ولدينا مشكل آخر قد أسميته ما بعد الاستعمار، فنحن الوحيدين الذين نعيش مرحلة ما بعد الاستعمار، فالاستعمار قد ذهب لكنه رجع بطريقة أخرى حيث استغلنا بأنفسنا. ولدينا في المغرب مثل يقول : "بزيتو اقليه" (يعني اللحم). فهذا استعمار جديد، لا يحتاج لجيوش لأنه يستعمل الجيوش المحلية، ويستعمل المخابرات المحلية وأيضا المفكرين المحليين فيمكن شراءهم بإعطائهم مقاما في السوربون مثلا أو بمنحهم جائزة ما..!

فرغم أني أومن بالتعاون الثقافي إيمانا عميقا يجعل منه الأساس لبناء السلام، ومداخيل كتبي التي تذهب إلى صندوق خاص اسمه التواصل الثقافي الحضاري شمال/جنوب تشهد على ذلك، إلا أني لم أجد في تجربتي كلها تجاوب جاد وصادق. والكثير ممن يدعي فهمي إنما يفعل ذلك لفائدة مخابرات بلاده أو لينقص من ديني ويكتب عني في الصحف ليصبح خبيرا أو كما يقال : Islamologue. وأنا أعجب لمثل هذه التسميات، فما ذا تعني هذه الكلمة ولماذا لا نرى مثلا Judeologue أو Christanologue ؟

إن موقفي المتعلق بالحرب الحضارية ليس موقف آني، فهو نتاج تجربتي الفكرية والميدانية كلها. لقد هاجرت نحو بلاد الغرب وعمري خمسة عشر سنة. ثم مكثت أربع سنين في إنجلترا حيث أعددت الدكتوراه، واكتسبت خلالها ثقافة عن تاريخ الغربيين وماضيهم وجغرافيتهم، وهو ما جعلني منفتحا على جميع الحضارات، وهو عنصر القوة في تكوين الشخصية الإسلامية التي لا تؤمن بالحدود الجغرافية أو الثقافية في التواصل بين الناس، ولكن للأسف الشديد نجح الغربيون في أن يقسمنا أطرافا وشيعا، وهم اليوم يعودون إلى الفكرة الإسلامية ليوحدوا بجوهرها صفوفهم كي يصيروا أمة، كمثال الأمة الأوروبية.

حين كنت في اليونسكو عينت نائبا عاما لها ومسؤولا عن العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية والثقافة والفلسفة، فعاينت طبيعة التعامل والتعاون والتواصل الثقافي، وازددت قناعة بفكرة ابن خلدون في أن القوي ينطلق دائما من قيمه، والحقيقة تحتاج إلى القوة، وعندما تخسر قبيلة ما النزاع يكون أول رد فعل عندها هي أن تقلد القبيلة التي تفوقت عليها. والرغبة في قيادة الإنسان كثيرا ما تحرك ما يسمى بالحضارة الغربية في علاقاتها مع الآخر. من ثم كان من العسير جدا لأي منتم للحضارة الغربية أن يتكيف مع أية حضارة أخرى من غير حضارته بطريقة مباشرة أو بإدماج. من جهتي لا يعترضني أي حرج في التعامل مع الحضارة الغربية وإنتاجها الفكري والأدبي والفني والفكري، فأنا أعيش في زمنها وبيئتها، ولكن الإشكال أننا نتعامل معها بينما هي لا تتعامل معنا بل تحاول إخضاعنا لقوانينها وقيمها.

يذكر طاغور الشاعر الهندي الكبير في سيرته الذاتية أنه لما زار برلين سنة 1930 التقى اينشتاين، فأثنى طاغور على الموسيقى الكلاسيكية الغربية على اعتبارها حمالة لخيال وروح عميقين، واستدل بالسعادة التي تنتابه حين يسمع السمفونية التاسعة لبتهوفن، فجاء الرد جافا من صاحب العبقرية الرياضية والفلسفية وخاصة أب النسبية بأنه يصعب عليه فهم الموسيقى الهندية والتعامل معها لصعوبة أحكامها !

لقد تركت الأمم المتحدة وتركت اليونسكو عندما فهمت أن دور قيم التواصل الحضاري أساسي، فكتبت تقرير نادي روما عن التربية ومستقبلها واستخلصت فيه بأن كل ما أنجزناه في التحليل والمنهجية في العلوم الاجتماعية وغيرها غير ممكن التنزيل والتحقيق دون التوصل إلى الاتفاق على تحديد معنى القيم المشترك والمختلف حولها.

ومباشرة بعد ذلك كانت صدمتي تجاه الهجوم على العراق فأصدرت أطروحتي عن الحرب الحضارية الأولى في كتاب.ولكن لماذا الحديث عن الحرب الحضارية وأنا رجل ضد العنف على وجه الإطلاق ومتأثر بغاندي وأفكاره ؟ لقد تبين لي أن الغرب أحس بالخطر على حضارته وسيادة قيمه

فأعلن الحرب دون اكتراث بالقيم الحضارية والثقافية للتواصل بين الشعوب ولبناء السلام، فلا يمكن أن نبني السلام دون احترام قيم الآخر.

□ رؤى :إذن المواجهة الحضارية من جهة المسلمين تحتاج إلى الاستناد إلى قيم، ولاحظت في حديثكم عن القيم إلى محاولة التفريق بين استعمال القيم الإسلامية، أوالاستناد إلى الدين لغرض استعمالي، وفقه الدين وفقه القيم، فأعتقد أن الحد الفاصل بينهما يمثل إشكالية منهجية خطيرة في الفكر الإسلامي المعاصر، ما الحد الفاصل بين فقه الدين واستعمال الدين في نظركم ؟

■ م. م. : لما تحدثت عن القيم كأي باحث في العلوم الاجتماعية وغيرها، إنما قصدت معنى لا يحمل استقرارا، فالقيم التي لا تتطور ليست قيما بل تصير للحفريات وللرجعية السياسية أقرب. ولما أتحدث عن القيم بهذا المعنى لم أقصد الأركان. فالإسلام جاء بخمسة أركان لا تمس، وباقي المسائل يتصرف فيها بطرق وبمناهج اجتهادية متنوعة. إذن لما أقول "قيم" لا يعني ذلك الرجوع إلى الكتب الصفراء أو الرجوع إلى الوراء، فهل لدينا ابتكار واجتهاد الفقهاء قبل خمسة أو ستة قرون، وهل هؤلاء الفقهاء إذا وجدوا في عصرنا هذا سيقولون بنفس الفتاوى ؟ الإجابة حتما بالنفي، فقضية القيم أمر ديناميكي وأمر يتكيف مع المجتمع ومع الضرورة، وليس مجالا ضيقا بل فيه نوع من الحرية والإجماع الحقيقي والديموقراطية أي الشورى بمفهومنا نحن.

فالمفهوم القيمي ينبع من صلب بناء المجتمع وفيه إنتاج وابتكار وتجديد ما دمنا لم نمس بالأركان. هذا من جهة ومن جهة أخرى أقول لو لدينا ثقة في أنفسنا وفي حضارتنا لرفضنا المعنى المعاصر لكلمة دين، فالدين بالنسبة للمسلمين ليس بمعنى Religion وأنا أرفض هذه الترجمة لدين الإسلام، يمكن أن يصح ذلك على العقيدة Foi، لكن الإسلام لم يأت عقيدة فقط بل فلسفة حياة وتركيب عقلاني ومعاملات وأخلاق. لماذا هذا التحجيم لدرجة أن نحول جميع قيم الإسلام إلى دين ؟ لماذا اللجوء لقيم الغرب الخاضعة لمفهوم دين يعتمد في تسيير مشاكله على سلطة البابا ممثل الإله فوق الأرض؟ فأنا مسلم لا

أعتمد مثل هذه المرجعيات، فحتى مفهوم العلمانية لم يطبق عندنا فنحن علمانيون من دون أن نكون علمانيين حيث لكل حريته ومجاله وزمنه، فتارة زمن الصلاة وحينا زمن الحكم وحينا آخر زمن الإدارة. فيجب إذن عند قيامنا أن ننطلق بعباراتنا أولا حيث أننا محتاجون إلى ثورة لغوية للمفاهيم بمفهوم حضاري، فحين نطور الكلمات يجب أن ندرك كيف يكون ممكنا أن نركب بينها لكي تصير جملا، ثم نكوّن نحواً أي قواعد نُسير بها أنفسنا في عالم جديد. ولا بد حينئذ أن نكون منفتحين على الآخر حتى لو لم ينفتح علينا، لكن حتى ندرك الثقة في أنفسنا واعتمادنا على أنفسنا يجب ـ وهذه كلمة أساسية يمكن أن تُقلق بعض الناس ـ أن نحترم أنفسنا، إذ يصعب علينا أن نطلب من أجنبي أن يحترمنا بينما نحن لم نحترم أنفسنا، فرؤساء دولنا لم يحترموا شعوبهم، والمثقفون لم يحترموا شعوبهم كذلك، وشرط الاحترام الذاتي هو الالتزام بمبدأ الحرية في التواصل وتبادل الآراء بمساحات فكر واسعة وتركيب عقلاني واسع يمكن أن يشكل قاعدة للتقدم.

ونحتاج أن هذا نبدأ عملنا هذا من المفكرين، فنسبة المرتزقة منهم والانتهازيين ليست بالهينة سواء داخل بلداننا الإسلامية أو خارجها. ولدى هؤلاء قابلية لأن ينصب نفسه أو تنصبه جهة غريبة Islamologue أو خطيبا أو اختصاصيا في شؤون الأسرة والمرأة، ففي هذا عدم احترام النفس وشعوب المليار و500 مليون من المسلمين والإسلام وخصوصا إذا أخذنا الإسلام الذي لا يجوز لأحد أن يتكلم باسمه ويتقول عليه. فمفهوم الحضارة يمكن تركيزه على ما يسمى بالقيم، والديموقراطية يمكن أن تكون وسيلة وطريقة للاتفاق على طبيعة هذه القيم المشتركة التي يجب أن نلتفّ حولها لبناء مجتمع جديد.

❑ رؤى : الحديث عن الحرب الحضارية هو إذا حديث عن مواجهة ثقافية قيمية، ولكن واقع الأرقام التي تستشهدون بها في كتاباتكم، حول ضحايا المسلمين في مواجهة الغرب في الفترة الصليبية كلها لم يتجاوز مائة ألف بينما عدد ضحايا المسلمين الذين خلفتهم حروب وأزمات الغرب المعاصر خلال العشر

سنوات الأخيرة بلغ عشرة مليون ! ألسنا نواجه هنا حربا مباشرة بالمعنى التقليدي العسكري ؟

■ م. م. : هذه الأرقام صحيحة وحديثة تستند إلى دراسة لخبيرة وأستاذة جامعية يابانية، قامت بها منذ سنة تقريبا، لكن يجب أن نعترف بشيء آخر، وهو أنه خلال الحروب الصليبية كان الإسلام من جهة والمسيحية من جهة أخرى، ولم تجد المسلمين يقتلون بعضهم بعضا. ففي تقديري معظم ضحايا المسلمين في العشر سنوات الأخيرة، سقطوا داخل دول إسلامية، فلولا مواقف الخيانة الرسمية العربية والإسلامية لما رأينا ما حصل في البوسنة أو في الشيشان. لقد أسسنا منظمات رسمية عربية وإسلامية لتحارب المسلمين بصمتها ليس بوسعها إلا أن تعد بلاغات ومؤتمرات قمة، لكن ماذا فعلت ؟ هل أخذت مواقف ؟ هل استعملنا ما نملك من نفط وخيرات ووسائل لتوجيه القرار الدولي؟ طبعا لا، فإذن نحن لدينا مسؤولية كبيرة في العشرة ملايين ضحايا مسلمين، والله أعلم بذلك من الجميع.

ما هو موقف الباكستان وما هي مسؤوليتها أمام ضحايا أفغانستان ؟ وما هو دور الدول الخليجية كلها في ملايين الموتى في العراق ؟ يجب علينا أيضا أن نوجه لأنفسنا نقدا ذاتيا صريحا، فالإسلام لديه قيمة عظيمة وهو أنه جاء لمحاربة القداسة، فلا قداسة لغير الله، لكي نتحرر من جميع الضغوط ونتحلى بروح كافية للنقد وحرية التعبير. قريبا سيحصل هجوم جديد على العراق وستذهب آلاف الأرواح من جديد، فمن سيكون المسؤول ؟ أين موقف الجامعة العربية، وقد درست لمدة أربع سنوات ضمن أطروحتي للدكتوراه قضية الوحدة العربية والجامعة العربية قبل أكثر من أربعين سنة، وفي ذلك الوقت كتبت أن هذه الجامعة آلة وجزء من وزارة الخارجية المصرية والتي هي بدورها جزء من وزارة الخارجية البريطانية التي صارت الآن أمريكية. إذن هذا النقد الذاتي مهم، ورحم الله علال الفاسي الذي كتب عنه كثيرا، ويجب ألا نرمي كل شيء على الآخر ونقول الغرب فعل وأمريكا فعلت، يمكن أن يكون

ذلك صحيحا ولكنها وجدت وسائل ووجدت أرضية وهيأتها يوميا، فمن الذي يزودها بالمعلومات ؟ ألسنا شركاء في ذلك ؟! فهذه مرحلة النقد، ولا زالت الطريق طويلة وهو توجه حضاري شامل في عالم المسلمين اليوم.

❑ رؤى : يشهد العالم تناميا كبيرا لمنطق الهيمنة العسكرية والهيمنة الرأسمالية، ولمنطق الحروب والإبادة الدينية والعرقية، هذا من جهة الأنظمة، وفي الآن نفس ، من جهة المجتمع المدني أو الأهلي، يشهد العالم امتدادا لنزعات الحوار بين الحضارات والثقافات. إذن هناك صدام بين دعوتين : اتجاه حقيقي ملموس نحو الصراع وتزايد الصراع، واتجاه رغبة وإرادة على مستوى المجتمع المدني، نحو الحوار. كيف تنظرون إلى مستقبل هذه الثنائية ؟

■ م. م. : بصفتي رئيسا مؤسسا لمنظمة مغربية لحقوق الإنسان، عشت داخل هذا المجتمع المدني ووجدت نفاقا كبيرا. يجب أن نفرق بين مفهوم المجتمع المدني باعتباره حركة وقوة وجدت لكي تواجه ما يسمى بالقوة الحكومية بغرض الدفاع عن مصلحة الناس، فهذا أمر إيجابي جدا وضروري، وبين الطريقة التي يتطور بها المجتمع المدني التي قد تعبر في ذاتها عن هيمنة. إذا نظرنا إلى الميدان الحقوقي مثلا في تنوع مناطقه وأشخاصه ومنظماته، لا نلاحظ داخله كثيرا الإيجابيات المبدئية التي ينص عليها تعريفنا السالف للمجتمع المدني. فالغالب عليها عدم الحياد، وغياب الرسالة، وضعف الجانب الديني. أما في الميدان الفكري فنلاحظ تفشي ظاهرة استعمال الخبرة العلمية لخدمة المخابرات. وهذه مشكلة تعاني منها جميع ميادين العمل بالمجتمع المدني في العالم بأسره حتى داخل الغرب.

فجزء لا يستهان به منه ممول من مؤسسات مشبوهة تخدم أغراضا معادية للشعوب، وهذا الأمر منتشر في إفريقيا أو في البلدان العربية وداخل الغرب ذاته. ولكن يظل المجتمع المدني ضروريا لمواجهة الهيمنة المباشرة والكلية للأنظمة، ولكن يجب أن نعي بأننا لن نحارب أية هيمنة بهيمنة أخرى. وهنا

أيضا يجب أن تتصف مبادراتنا بالحرية الذاتية حتى نبني مجتمعا مدنيا مناسبا لنا ولطموحاتنا. لقد قدمت استقالتي لمنظمات مغربية لحقوق الإنسان لأن في ميادين كثيرة لا يسمح لك أن تنظم نفسك على مستوى القطر الوطني إلا إذا بايعت وكانت لديك صلة مع من يشرف عليك من الخارج. إذن يجب أن نتحرر أيضا من مركب النقص وأن نفرض على أنفسنا مجتمعا مدنيا خاصا بنا وبذلك يمكنه أن يتعامل مع المجتمع المدني الدولي. وتبقى ميادين البيئة ومواجهة العولمة وميادين الطب والطفولة غير معنية بهذه المشكلات، لكن حين يتعلق الأمر بمجتمع مدني يدافع عن فكرة ويدافع عن الحرية يجب أن نحذر وأن نسير وفق اختياراتنا.

□ رؤى : المشهد الأساسي للهيمنة اليوم هي العولمة، والفكر العربي والإسلامي عموما لا يزال مترددا في اتخاذ موقف منها وفي التعامل مع هذا العنوان الجديد للغرب، هناك محاولات للأسلمة أو للاستفادة المحلية من العولمة، وهناك محاولات للرفض الكامل الراديكالي للعولمة والالتحاق بحركة مناهضة العولمة. كيف تنظرون إلى مستقبل التعامل مع هذه الإشكالية ؟

■ م. م. : كنت شاركت في نقاش علمي عميق عن العولمة نظم في بيرمنغتون بمناسبة الذكرى الخمسين لاتحاد جمعيات العلوم السياسية في بريطانيا جمعني مع دافيد هيلد وهو أستاذ كبير ومعروف في جامعة هارفرد، وقد نشرت كلا المداخلتين في الجامعة، ونشرت تدخلي في كتيب اسمه "عولمة العولمة" Reglobalization of globalization بيعت منه حوالي أربعين ألف نسخة في المغرب. كنت قد أشرت إلى أهمية الكلمات حيث يقال إن الحروب القادمة ستكون حروبا لغوية، ومثال ذلك فيما يتعلق بموضوعنا أن أطلق على فنجان القهوة الذي أمامي فنجان شاي وأفرض عليك هذه التسمية بكل الضغوط، كذلك الأمركة التي هي إرادة أن يصبح العالم كله أمريكيا، ولكن تحت اسم العولمة.

ولنكن صريحين، ما هو النظام المسلم في العالم الإسلامي كله الذي يمكن للمسؤولين عنه أن يبقوا في الحكم ثلاثة شهور دون مساندة من القوات الغربية؟! فالعولمة أن تتبنى نظامي وتدخل معي في "نادي العولمة"، وأنا أضمن لك مقابل ذلك مكانك. هذا ثمن تؤديه باعتبارك عضوا في نادي، وبما أن مسؤولي بلداننا ليسوا في انسجام تام مع شعوبهم صارت هذه العولمة طريقة لتمويل حاجة الولايات المتحدة بالخصوص إلى الإبقاء على واقع الأزمة من خلال الحروب أو التأييد الكامل، من أجل استغلال أفضل لهيمنتها الاقتصادية. أنا من المدافعين عن استعمال العولمة، فالإسلام عولمة وأول حركة عولمة هي الإسلام وممكن أن نقول إن الأديان كلها عولمة، فالبوذية عولمة واليهودية عولمة ولكنها عولمة لم تؤذي.

ولكن أن تستعمل مصطلح عولمة كي تسلبني حريتي حتى في العبارات التي أستعملها فتلك تبعية مرفوضة بدأنا نشهد احتجاجا كبيرا ضدها من داخل أوروبا. في سنة 1976 في الإمارات استدعيت لمحاضرة في جامعة أبو ظبي. كانت مداخلتي عن مستقبل العالم العربي، وقلت بكل وضوح وأمام وزراء الإمارات العربية أن الله سخط على الدول حين أعطاها النفط، فثلثي النفط موجود في البلدان المسلمة ولكننا لا نحسن استعماله. وهنا يعتبر السخط اختبارا ونجد هذا في كل الأديان، كأن أعطيك شيئا وأراقبك كيف ستتعامل معه، فإذا تعاملت معه بطريقة إيجابية فسيأتيك بالخير وإذا تعاملت معه بطريقة سلبية فسيأتيك بالسوء، ونحن ندفع ثمن سوء استعمالنا من خلال ما حدث في أفغانستان وغيرها من مناطق الأزمة في العالم الإسلامي. ومن الوهم أن تقول إن ليس هناك موجة عولمية ضد الإسلام فيوميا نرى في الصحف الصورة التي تعطى عن الإسلام.

ولكن كيف سنواجه ذلك ونحن نعاني من الانفصال الموجود بين ما يسمى بالنخبة، بما فيها من حكام ومفكرين، وبين الشعوب المسلمة. فالرقم القياسي في الأمية لا يزال من نصيبنا وسيظل إذا لم يطبق المسؤولون عن دولنا الآية

الأولى التي نزلت من القرآن : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. فهذا هو أساس الديموقراطية، وهذه الآية تعطيك قوة للتحرر من الآخرين، لأن الجهل والأمية مصيبة، وهو مولد لاحتقار الشعوب وهذا ما نشاهده يوميا في معاملة المسؤولين منا وكل من لديهم سلطة مع شعوبهم الإسلامية، وأحيانا كثيرة نتهم شعوبنا بضعف المستوى، ولكن من المسؤول، أليست هذه النخب الحاكمة والمثقفة ؟!

هذا العجز عن التواصل مع الشعوب لمواجهة تحديات العولمة إنما يعود إلى مركب نقص كامن في نخبة معينة فشلت في عملها السياسي والإيديولوجي والخلقي والتربوي. لهذا نفهم مهزلة الديموقراطية والانتخابات. فالانتخابات الحقيقية تبدأ في بنية التفكير، من خلال القناعة بضرورة تيسير التواصل وتقنينه مع الشعوب ولم ألاحظ أبدا خلال زياراتي لأمريكا اللاتينية ولآسيا وإفريقيا الوسطى وغيرها مثل هذه الفجوة وهذا التركيب الموجود بين فئة معينة في الحكم وبين مفكرين، فنحن قد صار عندنا مفكرون يخدمون الحكم بل هم جزء منه.

□ رؤى : النخبة العربية والإسلامية جربت التأثير من مواقع عديدة، من داخل الأحزاب الحاكمة ومن داخل الأحزاب المعارضة فاستهلكت في لعبة السياسة من حيث كانت تريد توجيهها، كما حاولت التغيير داخل هامش مؤسسات المجتمع المدني، واصطدمت بوهميته إذ ليس هناك نسق متكامل ومستقل لمجتمع مدني يعبر عن توجهات وطموحات الشعب، وهي تجرب الآن التواصل مع حركات مناهضة العولمة والتواصل مع دعاة الحوار بين الأديان والثقافات، ولكنها تظل تبحث عن وزن فاعل لها في حركة تغيير مجتمعاتنا دون أن تدرك الوزن الذي تحظى به النخبة الغربية في أوطانها وحتى في العالم. ما هو مستقبل الدور الذي يمكن أن تقوم به في مواجهة التحديات التنموية المتراكمة ؟

■ م. م. : النخبة التي تتحرك في الغرب لها أرضية ولها تواصل داخل مجتمعها، فإذن لها قوة : قوة الفكر وقوة العلم والمعلومات وقوة الالتزام. ولا يحدث هذا من فراغ بل هو مبني على علاقة متينة مع الأرضية الشعبية الموجودة مهما كان توجهها يمينيا أو يساريا أو دينيا أو غيره. فهي نخبة تتحلى في غالبها بشيء من الشعبية والدمقرطة. وهذا ما لا تجده في بلداننا، فالنخبة عندنا التي تتقدم إلى ميدان التغيير كثيرا ما لا تأبه في مبادراتها بربط الصلة مع القاعدة الشعبية حتى تلك المتعلقة بالحوار الديني. إذن أكبر حوار نحن محتاجون إليه هو حوار داخلي مع شعوبنا وداخل شعوبنا. فلازلنا نلاحظ سيادة خلفية الاحتكار المعرفي الموروثة للاحتقار من خلال المعاملات الدونية التي يصطدم بها رجل الشعب في علاقته بنخبة الفكر أو السياسة. فأولوياتنا لا تزال سياسية تقدس السلطة وتهمش التنمية التي طالما تطالب بها شعوبنا للنهوض بوضعها الاقتصادي والتعليمي وغيرها من مجالات البناء الاجتماعي. يصعب علي إذن أن أنقد الغرب فقط بل الأولى أن أنقد نفسي والدائرين من حولي، فأية مصداقية لدينا سواء لدى شعوبنا أو على المستوى الدولي ؟

كما يصعب علينا أن نقارن أنفسنا بالغرب الذي وصل إلى مستوى ضمان الحرية والديموقراطية وحق التعبير داخله دون أن يسمح لنا به في بلادنا. نحن محتاجون إلى حوار داخلي حقيقي يحس فيه كل فرد منا بأنه مواطن له حقوق وله وجود وإلا لن تكون لنا مصداقية. والمصداقية تحتاج إلى مرجعية أخلاقية أي إلى الاستناد إلى معايير وموازين أخلاقية. فنحن لدينا أزمة رؤية في الأخلاق وهي أكبر أزمة يعرفها العالم الإسلامي. فالحركات الكبرى في العالم بدأت رؤية، ولسنا هنا بصدد الحديث عن رؤيا الأحلام التي يستند إليها بعضهم في نظرتهم إلى قضاياهم فالحمد لله أن في الإسلام النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء ولا يسمح لأي أحد أن يدعي رؤيا الوحي بعده، ولكن الرؤية هي التي تلازم استفاقة المجتمع ووعيه.

وبدون الرؤية لا يمكنك أن تبني استراتيجية وبدون استراتيجية لا يمكنك

أن تبني سياسة وبدون سياسة لا يمكن أن تتقدم في أي من ميادين الحياة. إن الشرط الأساسي للوعي بقيمة الرؤية هي الديموقراطية التي تهيأ السبيل لكي يعبر كل فرد في المجتمع عن ذاته حتى يبلغ مستوى المشاركة ويصبح جزء من صناعة القرار. إن عدم الثقة في النفس يمثل عائقا أمام أصحاب السلطة والنفوذ السياسي في بلادنا أمام تشكيل رؤية بعيدة المدى لأن التعلق بالحكم يجعلهم أميل إلى الرؤية القصيرة التي تجعل من المحافظة عل سلطة القرار سؤالا مركزيا. فهي رؤية آنية ارتزاقية لا يختص بها السياسي فقط بل والمفكر كذلك، بينما جاء الإسلام معبرا عن رؤية شاملة للحياة وللغيب. إذن يجب أولا أن نتحرر من عقد النقص والخوف الذي أطلقت عليه الخوفقراطية. فالخوف أصبح وسيلة للحكم، وعندما تحكم بالخوف فهدفك هو الذل بأن ترى إخوانك يتجرعون الذل. ولهذا فنحن نعيش أيضا في الذلقراطية وليس الديموقراطية.

إن مشاكلنا متراكمة ويجب أن نقوم بعملية الفرز، فهناك جزء داخلي يصل بين بلدان المنطقة ونسميها العالم الإسلامي وجزء خارجي يتصل بباقي أنحاء العالم. ولقد كان سنغر، وهو من الأكاديميين الكبار في العلوم الاجتماعية، قد كتب مقالا من أهم المقالات من حيث النموذج التفكيري في العلوم الاجتماعية والمنهجية، سماه "إشكالية مراتب المعرفة". ففي أحيان كثيرة عندما نحلل تركيبة بناية ولم نكن قد فرقنا بين الطبقة الأولى والثانية وغيرها، رغم أن موضوع الإشكالية واحد وهو البناية، فإننا نعجز عن رؤيتها في وحدتها. فزاوية النظر في الطابق الأول تؤدي إلى نتيجة مغايرة لرؤية من طابق آخر. فيجب أن نحلل الإشكال في مراتبه حتى يتسنى لنا رؤيته في شموله.

❑ رؤى : أزمتنا إذن شاملة، تشمل الأنظمة والمعارضة والنخبة، وهي أزمة فكرية وذوقية واجتماعية، أي أزمة إبداع حضاري شامل. ولكن تأسيسا على فكرة مراتب البناء، كيف تتصورون أولويات النهوض، خاصة وأنتم دعوتم إلى تجاوز مرحلة الخروج من الاستعمار الثقافي إلى مرحلة النهضة، فما هي أولويات هذا التجاوز ؟

■ م. م. : لدي دراسة عن "العالم العربي في سنة 2020" كتبتها منذ عشر سنوات ولها علاقة بهذا الموضوع. التغيير يمكن أن يتحقق عبر ثلاثة مشاهد : الأول وهو ما يسمى ببقاء الأشياء كما هي والثاني هو الإصلاح والثالث هو ما يسمى بالتغيير الشامل. أظن أن بقاء الأشياء كما هي غير ممكن لأن من غير الممكن أن ننزل إلى أسفل مما نحن فيه. وأظن أن الإصلاح انتهت فترته فكان ممكن أن يحصل إلى حدود الخمس أو الستة سنوات الماضية، فأي إصلاح الآن سيكون جزئيا ولا يمكن أن يؤثر على الكل المأزوم.

إذن يمكن أن يتحقق التغيير بالتغيير الشامل حسب مشهدين واحتمالين اثنين : إما وعي حقيقي ومسؤولية كاملة من قبل أصحاب القرار تجاه مستقبل بلادهم، والإيمان بأن أساليب مثل الإصلاح الجزئي والانتخابات المحدودة غير كافية، فإذا ما سلكوا هذا المنهج نأتي إلى الخيار الثاني وهو اللجوء إلى ما يسمى بالقطيعة La rupture. فلا بد من الأخذ بزمام الأمور لبناء مستقبل آخر مبني على الوعي بأن الإبقاء على الأمور كما هي عليه غير مقبول وأن الإصلاح الجزئي لا يكفي، وأن رأس هذه الأولوية هو التحرر الثقافي إذ لا يمكن لأحد خارج البلاد أن يحل مشاكل البلاد، بل يمكن الاعتماد عليه في التعاون والخبرة لكن على أساس تخطيطي وليس على أساس أن اختياراته هي الأولوية. يمكن الاعتماد عليه باعتباره آلة ووسيلة وليس في المقاصد وفي الغايات.

□ رؤى : التحرر الثقافي مما ؟ هناك في مدارس الفكر العربي والإسلامي المعاصر تيارات عديدة، يدعو بعضها إلى التحرر الثقافي من التغريب، ويميل بعضها الآخر إلى القول بالتحرر الثقافي من التراث...الخ. فما هي عناصر الوحدة الثقافية المستقبلية في تصوركم ؟

■ م. م. : التعددية هي أساس الوحدة الثقافية المتحررة، إذ ماذا يعني التوحيد أو الوحدة إذا لم تكن هناك أجزاء متعددة ؟ والمهم هو ما هي الطريقة التي تجمع ما بين هذه العناصر المختلفة، وما هي الوسائل الواجبة للتدبير وللتحاور فيما بين بعضها البعض؟ وأصعب عمل هو التحرر من أنفسنا من داخلها، وأن

نستدرك من نحن، وأن نستعمل التحليل النفسي من داخلنا، حتى نعرف من نحن. هل نحن عرب أو بربر أو أمازيغيين أو أمريكان...؟! فالتعددية واجبة ويجب من خلالها على الأقل أن نعرف من نحن، وأن نجد وسائلا لهذه التعددية تحدث التحرر، الذي هو أن أنطلق أساسا من نفسي وأن تكون لدي الوسائل الكافية لتحليل مشاكلي كما أنا، وبعد هذا يمكنني أن أتعاون مع الجار ثم مع المدينة والدول الأخرى ثم مع الكون والقمر، ولكن كل هذه الخطوات تقطع وفق أهداف محددة.

□ رؤى : حول سؤال : من نحن ؟ أي سؤال الهوية، كيف يمكن إعادة طرحه برؤية استراتيجية اليوم خاصة بعد مراكمة الأزمات خلال العشرية الماضية، من حرب الخليج الثانية إلى أزمة الجزائر وأفغانستان وتنامي أزمة هوية الأقليات الإسلامية الكردية والبربرية وغيرها ؟

■ م. م. : لو ألقيت علي هذا السؤال قبل عشر أو خمسة عشر سنة لأجبتك لأنه كان الشعور بالهوية الثقافية قوي ومتعاظم، أما اليوم فالأمر أصبح صعبا وحساسا، إذ تراجعت المعركة الأساسية من معركة هوية إلى معركة وجود وبقاء. فبقاؤنا اليوم في خطر ونحن السبب في ذلك. سؤال الهوية : من نحن ؟ تحول إلى سؤال ترفي، يحق لنا أن نلقيه لما نخرج رؤوسنا من الماء، فنحن في حالة غرق قاتلة، ونحتاج عاجلا أن نطرح سؤال البقاء، إذن فلنُخرج أنفسنا من الماء ثم نسأل من نحن ؟ فالسؤال سؤال بقاء، وحين تصل إلى البقاء تتحرك بطريقة أخرى.

□ رؤى : ذكرتم في كتاباتكم أننا ننتمي إلى حضارة عريقة وأنها يمكن أن تمثل حضارة المستقبل وأن الإسلام هو دين المستقبل من حيث أن المسلمين سوف يمثلون أكثر من أربعين في المائة من سكان المعمورة في نهاية القرن. اليهود في الكونغرس الأمريكي يمثلون حوالي ستة بالمائة ولكن يتحكمون في السياسة الأمريكية وفي السياسة الدولية، فهل يمكن الآن بمنطق المستقبليات، اعتبار القوة العددية وقوة المسلمين العددية تحديدا قوة حاسمة لقلب موازين القوى ؟

■ م. م. : لما كتبت عن الإسلام عقيدة وطريقة للتفكير العقلاني وحضارة إنما تحدثت عن الإسلام الدين باعتباره قوة مستقبلية وحضارة المستقبل، لكن مسلمي اليوم ليسوا هم مسلمو المستقبل، كما أن الإسلام اليوم ليس له مسلمون في مستوى قيمه. إذن فحديثي عن المستقبل للإسلام يعني حين يكون عدد المسلمين المائة مليون أو الألف مليون في مستوى حضارتهم وفي مستوى الرسالة التي أتى بها الإسلام. وحين أتحدث عن الرسالة لا أقصد ما يتعلق بالعقيدة والصلاة والصيام بل الرسالة الحضارية. فالإسلام جاء رسالة حضارية ورسالة حوار، وكان لديه التزام كوني وهذا الذي أقصده حين أبشر بأنه المستقبل. ولكن قبل أن يكون له المستقبل يجب على المسلمين أن يكونوا أهلا لهذا المستقبل، فنحن آلة متأخرة ليس لنا الإمكانيات ولا الطاقة البشرية ولا العلم، فماذا يصرف المسلمون من أجل البحث العلمي ؟!

ليس هناك مجتمع فيه فرق هائل بين الأغنياء والفقراء مثل ما نجد في العالم الإسلامي، وليس هناك عدد مفجع من الأميين كما هو الحال في واقعنا، ولكن عندما يستلهم المسلمون المعاني من "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، وعندما يطبقون مفهوم العدالة الاجتماعية في الإسلام، أي عندما يحملون صفة الإسلام عن استحقاق سيكون لهم مستقبل، أما الإسلام، فبهم أو بدونهم، هو مستقبل فكرة للبشرية. ووضع المسلمين والحمد لله تدريجا في تقدم علمي وفكري مرتفع، فإذا أخذت مثال الأدمغة والباحثين الموجودين في الغرب وفي كل مكان فإن إمكانيتهم وطاقتهم تحمل مصداقية كبيرة ولكن ليس لهم السبيل لكي يوظفوها في بلدانهم.

❏ رؤى : هذا يقودنا إلى الحديث عن مستقبل المسلمين في الغرب، إذ تختلف النظرات داخل النخب العربية والإسلامية حوله، بين نظرة تدفع نحو الاعتراف بالإسلام وبالمسلمين على قاعدة الأقليات، ونظرة تستند إلى فكرة المجموعة القوية الضاغطة واللوبية، وأخرى تدعو إلى توقف المسلمين عن وهم أن يكون لهم وزن مؤثر

داخل الغرب لأن الغرب في سياساته الاستراتيجية لا يسمح بذلك فضلا عن التأثير السلبي للوبيات الرافضة لاندماج المسلمين، كيف تتفاعلون مع هذه الاتجاهات ؟

■ م. م. : لا أجد تناقضا بين الاتجاهين الأولين بل تكاملا. يجب أن تكون لدينا نظرة شمولية في التكامل بين الاثنين في بعض الأمور، فهم أقلية والقانون العام في كل البلدان يعطي حقوقا لما يسمى بالأقليات، وأنا هنا أفهم الأقليات بالمفهوم القانوني لمحاربة العنصرية وغير ذلك، وذلك حق. وهذا يعني أن يُعترف بالمسلم ضمن أقلية وفي نفس الوقت يمكنه أن يطمح في أن يكون ضمن جزء أشمل وأن يكون قويا ويشارك في المجتمع بقطع النظر عن دينه وأفكاره، فيمكن له أن يُبدع في المكان الموجود فيه.

التكامل ضروري ولكن لا يصل بنا إلى مستوى أن ننكمش على أنفسنا ونبقى في هذه الأقلية. لي حق أطالب به، فالبند كذا من القانون الدولي لحقوق الإنسان يسمح لي بذلك، لكن لا أتمسك بذلك بصفة ثابتة لأن "أرض الله واسعة" في تصوري الإسلامي.

أما فيما يتعلق بوجهة النظر الثالثة فأقول بأن الوزن مبني على الإنتاج، إذا كنت تشتغل مثلا في معهد باستور واكتشفت اختراعا فسيكون لك وزن، فلا يجب أن نعتزل على أنفسنا، فهذا نوع من العصبية غير المحمودة.

فلنترك اللوبيات تقوم بعملها ولنقم نحن بعملنا، هناك دائما عراقيل في الحياة ولكن إذا بدأت بالعراقيل لن تصل، وهذا هو الجانب السلبي في تحليلنا حيث نبدأ دائما بالعراقيل. سيأتي زمن يفرض فيه العلم نفسه، فلنكن من أصحابه بالجدية والمصداقية، ولنفكر كذلك في إيجاد مكان فاعل لهذا العالِم المسلم، الموجود في معهد باستور، سواء في القاهرة أو الرباط أو تونس أو غيرها، ولنوفر له الإمكانيات ليتكلم ويتحرر ويعمل، سيعود في الحين ليخدم وطنه الأصلي.

☐ رؤى : عودة أخيرة إلى موضوعنا الرئيسي، وتحديدا لما أسميتموه بالحرب الحضارية الثانية أي الحرب ضد الإرهاب ومن أجل العدالة بلا حدود، وهو تقريبا ما يسميه ميشيل سير بنهاية التاريخ الجديد وبدايته من مجتمع الإنتاج إلى مجتمع المعرفة، هل يمكن أن يكون مجتمع المعرفة هذا قادرا على مواجهة الحرب الحضارية الثانية ؟ وهل هناك فعلا اتجاه نحو مجتمع معرفة ؟

■ م. م. : في مقدمة كتابي "الحرب الحضارية الأولى" قلت إن هذه بداية لمسلسل حرب في البوسنة والشيشان وغيرها. و"الحرب الحضارية الثانية" تدخل ضمن هذا المسلسل. ولكنها عبارة عن سلسلة محاضرات وبرامج في التلفزة ألقيتها في اليابان في أكتوبر الماضي، وفكرة "الحرب الحضارية الثانية" أخذت صدى هناك لدرجة أنه بعد شهرين أو ثلاثة من إلقاء محاضراتي صدر كتاب باليابانية لا يوجد لا بالإنجليزية ولا بالعربية ولا بالفرنسية، لأن اليابانيين سجلوا المحاضرات وترجموها وانفردوا بنشرها في كتاب بعنوان : "الحرب الحضارية الثانية ونهاية الإمبراطورية التي أطلقتها" (La fin de l'empire qui l'a déclenché)، أي الإمبريالية الأمريكية الغربية. فأمام محاولة الإبادة للعالم المعرفي، أقف موقف المؤمن بدور المعرفة، وأظن أن رسالة الإسلام الأساسية كما أتت وكما أفهمها هي معرفية وعلمية، ويكفي أن نلاحظ تكرر كلمة "علم" في القرآن الكريم، فهي إذن رسالة تفتح فكري، رغم أن واقعنا يشهد على عكس هذه الصورة القرآنية.

أنا أؤمن بالمعرفة باعتبارها وسيلة أساسية، ولهذا فإن الحرب الحضارية ستبقى لمدة طويلة إذا بقينا على نفس المستوى في الميدان المعرفي. التغيير آت لا محالة، وقولي بنهاية الإمبراطورية الأمريكية يمكن أن يثير الاستغراب. ففي ديسمبر 1999 استضاف البرنامج التلفزي الشهير (Sixty minutes) على قناة CBS، الرئيس الأمريكي السابق كلينتون فقال : "أنا أعلم أننا بعد عشر سنوات أو أكثر لن نبقى القوة الاقتصادية الأولى في العالم، ستأتي الصين ثم الهند الخ". إذن بدا من كلينتون نوع من الذكاء. وأظن أننا لا يمكن أن نفهم بعض ما يحصل في

أمريكا الآن وتعاملها مع باقي العالم إلا إذا فهمنا الزلزال الذي حصل لها فكريا والذي لم يكن فقط في البناية، لأن العالم كان يظن أن الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن يمسها شيء. لقد كان زلزالا نفسانيا، أضيف إليه الزلزال الاقتصادي الذي تشهده أمريكا الآن.

وحين ترى أمريكا أن باقي العالم يتطور علميا في غنى عنها سيحصل لها نوع من الاندفاع والدفاع عن النفس، وهي التي اعتقدت أنها بلغت القمة. فتتحول معركتها إلى معركة لا تخضع كثيرا للتعامل العقلاني. وأنا أتفق مع ميشيل سير في كثير من تحاليله وهنا مثلا في قضية النسبية، فالحضارات لا توزن بعشر سنوات، إذا قارنا أنفسنا بالنسق الحضاري الحالي فنحن جزء من الزمان الكوني، أي من ملايير السنين ؟ الإيمان بقوة أعظم منك تدفع بك إلى التواضع. وأظن أن الذي حصل لأمريكا في 11 سبتمبر، حتى لو حصل لها ذلك بطريقة أخرى فستواجه تدريجيا الحقيقة والواقع بأنها لا يمكن أن تبقى للأبد كما هي باحتياطها وبجيشها وبمخابراتها وبتعاملها مع المرتزقين في العالم الثالث.

إذن الإسلام مستقبلي وليس رجعيا وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمن بالذاكرة، فكلمة "ذكرى" و"ذكّر" ومشتقاتهما موجودة في القرآن الكريم أظن ذلك أكثر من 168 مرة، ولكن لم يكن ينظر في حياته إلى الخلف بل إلى الأمام، وجاء بكلمة عظيمة لم نستعملها حتى في المعلومات : الاستبصار La prospective وفي الإسلام كان النبي صلى الله عليه وسلم يستبصر. إذن يجب الاعتماد على الفكر ويجب الاعتماد على المعرفة ويجب الاعتماد على العمل، فنحن لا نعمل. وقد يسر الله لي أن أتيحت لي الفرصة لأسافر كثيرا إلى اليابان كأستاذ زائر، فالياباني إذا لم يعمل أكثر من 15 أو 16 ساعة في اليوم يمرض وهذا ليس دليل العبقرية بل المصداقية والعلم والعمل والفكر الواسع والمسامحة مع النفس. وليست المسامحة أن تقبل الذل، ولكن على الأقل أن تعطي للآخر حق التعبير وتدخل معه في حوار، وهذا الذي منعنا منه الغرب. فلحد الآن لم يعطنا

الحق في التعبير : كنا مستعمرين فلم يكن لدينا الحق في التعبير، أعطانا شيئا من الحرية فأتى بأشخاص في الحكم ليتكلموا بنفس لغته. إذن ليس لدينا حق التعبير لحد الآن فيجب أن نعترف بأن حق التعبير مبني على المعرفة وعلى الرؤية على بعد وأن نتفاءل، وهذا غرامشي يقول :

"Il faut avoir le pessimisme de la raison et l'optimisme de la volonté".

يعني عندما نحلل الأمور كما نفعل الآن لدينا الحق أن نكون متشائمين، ولكن بالإرادة والالتزام الحقيقي على مدى طويل ثم بالأساس بالتفاؤل لأن التفاؤل مبني على الإيمان بالإنسان كيفما كان، فإذا آمنا به مخلوقا له رسالة خاصة به لا يمكن أن نعتبر أن المستقبل ستحكمه نفس القطبية وأن ليس فيه شرق ولا غرب ولا شمال ولا جنوب. وهذه مراحل سوف تحتاج إلى أجيال. ففي تقديري لا يمكن لأية منطقة في العالم العربي والمسلم أن تتحرك حقيقة قبل جيلين أي خمسين أو ستين سنة. فلما يحصل التطور سيكون تدريجيا، ونحن في تصورنا على وشك قفزة نوعية ويجب بعدها أن نشكر ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية وما تفعله إسرائيل على الضربات التي توجهها لنا حتى نتحرك وتتحرك أمورنا وقد بدأت وستتحرك أكثر.

18

انتهى زمن الأنبياء(*)

وجدنا الدكتور المهدي المنجرة منشغلا بموضوع الاتصال، حيث لم يتورع عن وصف ما يقع في هذا المجال "بالفوضى العارمة، فلا وجود لأية بنية تحتية، ولا أية استراتيجية إعلامية". وأبدى تخوفا من "الاعتداء الممارس على الصحة العامة للمواطنين من خلال الهوائيات التي تنصب فوق البنايات دون مراعاة العوامل الوقائية الضرورية لتشكل بذلك خطرا دائما وخطيرا، ودون طلب للإذن من المعنيين". الدكتور المهدي المنجرة نفسه واجه هذا الخطر، حيث نصب هوائي لاتصالات المغرب قرب مسكنه ـ كما قال ـ وعندما تحرى في الأمر قيل له : بأنه لا وجود لأي قانون يمنع ذلك !

إن هذه الفوضى ـ في نظر الدكتور المنجرة ـ هي نتيجة لعملية الخوصصة المتسرعة لقطاع الاتصالات، حيث إن بلادنا لم تتخوصص فحسب بل "تفيْفندات" ! كان هذا هول المدخل العاصف لحوارنا مع عالم المستقبليات الدكتور المنجرة، لنعرج على أكثر من مجال ملتهب يطاله تأمل هذا الرجل : من المسألة الدستورية إلى المشهد السياسي الراهن بالمغرب ومقارنته بالماضي، إلى ما بعد أحداث نيويورك وبين هذا وذاك لا يكف الرجل عن توجيه سهام النقد لكل المسؤولين السياسيين محليا ودوليا.

□ الصحيفة : من موقع معاصرتك للسياسة في المغرب، بين ما قبل الاستقلال ثم بعده إلى غاية اللحظة الراهنة، ما هي الحصيلة التي يمكن أن نخرج بها في رأيك ؟

■ م. م. : هذا السؤال مهم، ولا يمكن أن نجيب عنه في عجالة، وبطبيعة الحال كان هناك استعمار وظلم واستغلال، لكنه كان مطبوعا بالشفافية. ليوطي

(*) أسبوعية الصحيفة، العدد 54، 22-28 فبراير 2002 (استجوبه مصطفى حيران وأحمد بوز).

كان يقول بأن لديه مغرب نافع ممتد على فضاء مستطيل : منطقة القنيطرة، الرباط، الدار البيضاء، لقد كانت الأمور واضحة، إذ كان ينتزع منك أرضك، كنت ترى ما يقع أمام ناظريك. إن الاستقلال الذي ناضلنا من أجله ودخلنا بسببه للسجن ليس هو ما جاء فيما بعد. عقب الاستقلال كان ممكنا القيام بتقييم للرصيد الذي بقي من الاستعمار وما يمكن أن ينجز به وأن نتحرر من السلبيات، تلك المرحلة التي تمتد على أربع أو خمس سنوات بعد الاستقلال كانت هناك أشياء إيجابية لا يمكن تصورها، حيث ظلت عدة أمور بدون حل، مرحلة بناء أهم ما طبعها بالأساس هي الرؤية. فقبل الاستقلال كان الهم هو محاربة الاستعمار، أما بعده عندما أصبح بين أيدينا لم نعرف ما الذي يجب أن نفعله به، لقد فقدت تلك الرؤية وذلك البرنامج العلمي الذي أنجز ما بين 1934 و1955 في إطار الحركة الوطنية، برنامج يهم الاقتصاد والمالية والتربية إلخ... إن تلك الرؤية هي ما نفتقده اليوم.

❑ **الصحيفة** : لماذا فشل ذلك الطموح الذي واكب السنوات الأولى للاستقلال في جعل المغرب بلدا مستقلا ؟

■ م. م. : إن الأمر كان متعلقا برؤية تنطلق من نموذج تنموي ذاتي، وهي مرحلة كان ممكنا أن يتم تنفيذها بشكل تدريجي، سيما خلال فترة ما بعد الاستعمار...

❑ **الصحيفة** : ما هي العوامل التي أفشلت تلك الرؤية ؟

■ م. م. : إنها بالأساس نوع من النخبة...

❑ **الصحيفة** : (نقاطعه) ماذا تقصد بالنخبة ؟

■ م. م. : الأشخاص الذين أصبحوا في الحكم وبين أيديهم زمام الأمور في القطاعين العام والخاص، ومعهم الذين أصبح لديهم بطريقة ضمنية، بوعي أو بدونه، تحالف مع مصالح الاستعمار في طبعته الأخرى.

□ الصحيفة : ذكر أحمد البوخاري في كتابه الصادر أخيرا بفرنسا إن مخابرات هذه الأخيرة هي التي هندست مفاوضات إيكس ليبان لنيل الاستقلال بالشكل الذي يرضيها...

■ م. م. : (يقاطعنا) لست محتاجا للبوخاري، ففي اليوم الذي أنجزت فيه اتفاقية إيكس ليبان قلت آنذاك بأن الأمر يتعلق بخيانة، وقلت أمام أناس مازالوا أحياء في مكان قريب من جامعة السوربون بباريس إن فرنسا غدرت بنا، وبعد الاستقلال أنجز برنامج إعلامي عن اتفاقية إيكس ليبان شارك فيه عبد الهادي بوطالب وآخرون لم أعد أتذكرهم وكنت قد شاركت فيه أيضا، قلت نفس الكلام. ذلك البرنامج لم يبث أبدا، إن إيكس ليبان كانت خيانة، هل كان ذلك بوعي أو بغير وعي ؟ هذا هو السؤال، إن الحركة الاستقلالية التي كانت في المغرب كان هدفها تحقيق الاستقلال الحقيقي وبناء كل شيء من جديد، لم تكن حركة للإصلاح بل للتغيير ؟ اتفاقية إيكس ليبان جاءت بنفس إصلاحي ومن هناك تسرب الاستعمار من جديد، حيث زرع حلفاءه في كل مرافق الدولة، الوزارات والإدارات.. إلخ، حيث أصبحت هناك مصالح متبادلة على كل المستويات، بما فيها المستوى الدولي.

لم تكن هناك فجوة ثقافية بين النخبة والشعب مثلما هو عليه الحال اليوم، لأن الإطار الإداري أو التربوي كان يعرف أنه لولا الشعب لما كان في مكانه أو منصبه. لم تكن هناك هوة في المدخول بين النخبة وعامة الناس، يجب أن نعود لنرى المدخول الذي كان للمغاربة بين سنوات 1956 و1960. إن الهوة المذكورة ازدادت بشكل مضاعف من 1 إلى 15 منذ الاستقلال إلى الآن. حينما تتسع الهوة على هذا النحو وينتشر الفقر إلى درجة وصل عدد الفقراء إلى 5 ملايين و500 ألف حسب تصريح في الآونة الأخيرة للوزير عباس الفاسي، ليكون لنا بحمد الله 10 بالمائة من الأغنياء والباقي من الفقراء، ولتأتي طبقة نخبوية يوجد بيدها كل شيء توزع الأحكام على الناس، وتقول هؤلاء متطرفون وأولئك راديكاليون إلخ... إن هذا ما حللته في كتابي "نزع الاستعمار الثقافي".

لقد قلت هذا غير ما مرة في عدة صحف، ولا يمكن لأي كان أن يأتي ليقول لي بأنه لدينا مسؤولون عمليا في مجال الثقافة غير السفارات والمؤسسات الثقافية الأجنبية، وعلى رأسها الفرنسية. فلا توجد عندنا متاحف، فمدينة كالرباط لا تتوفر على قاعة للعروض، وإذا عثرت على حركة فكرية وبحثت فستجد أن المعهد الفرنسي هو صاحبها. إن التسرب الذي حدث يجب ألا نلوم عليه الأجنبي، بل الفراغ الذي سمح له بالوصول إلى ما وصل إليه.

□ **الصحيفة** : أنت تعتبر أن النخبة التي استوزرت هي المسؤولة، منذ نحو ثلاث سنوات كانت هناك نخبة أخرى تم استوزارها، والمعروف عن هذه الأخيرة أنها هي التي كانت في واجهة المعركة من أجل الاستقلال، بعد الثلاث سنوات المذكورة أي تقييم يمكن أن تقدمه لحصيلة عملها ؟

■ م. م. : إن هذه النخبة أصبحت أفدح من التي سبقتها. فالنموذج الاستعماري الثقافي والسياسي هو أكبر من الناس أو الشخصيات. إن من يأتي إليه يدخل فيه أراد أو لم يرد، سواء كان تقدميا أو غير تقدمي، حينما يدخل إلى هذا النموذج الاستعماري يصبح أمام أمرين : إما أن يعلن عن عجزه في إحداث تغيير أو يفتش عن البقاء، فيختار البقاء حيث هو. فحتى معارضة الأمس لم تعد موجودة، إنها ساكتة الآن، أما معارضة يوم التي أكلت العجينة فتنتظر أن تتساوى في أكل "العجين" مع المعارضة السابقة. إن هذا واقع، هل نستحضر مستويات بعض الأجور التي تقبض والعلاوات مما ينشر في الصحف كل يوم، وهل يجب أن نستحضر مستويات حياة الذين دخلوا الآن إلى الحكم من الاشتراكيين وغيرهم، ما الذي فعلوه، لقد باعوا البلاد بالصولد، إنني أقول بأن المغرب يباع الآن بالمزاد.

لقد أخذوا قطاعات استراتيجية مثل اتصالات المغرب باعوها، فأين ذهب ثمنها ؟ وما زالوا يبيعون.. إن جزءا مما تم تحصيله من هذا البيع يمكن أن يكون قد ذهب إلى الخارج، والجزء الآخر ذهب لتعويض عجز ميزانية الدولة، لقد تم إدخال الاستعمار الاقتصادي بهذا البيع لقطاعات حيوية، فبدلا من أن يعمل

المسؤولون بمبدأ "البس قدك يواتيك" هاهم يفوتون ثروات الشعب للأجنبي للحصول على مداخيل التبدير، فإذا كان لابد من الخوصصة فالأولى بها أبناء البلد وليس أن يتم إدخال استعمار اقتصادي ثان بعد الاستعمار الثقافي.

□ **الصحيفة** : إن النخبة حاليا تقول بأنه من الصعب تغيير ما تراكم من سلبيات طيلة أربعين سنة في مدة تتجاوز ثلاث سنوات ونصف ؟

■ م. م. : هناك ما قبل التراكم، وعلى المرء أن يعرف شيئا عن علم الجيولوجيا، حيث للوصول إلى طبقات الأرض الأكثر عمقا، يجب نفض الطبقة الأعلى وليس أن نزيد عليها تراكما إضافيا. إن التراكم السلبي الذي حدث وبالأخص فيما يتعلق بالطريقة التي تمت بها الخوصصة، ومستوى الحياة الذي نسير عليه، والبريمات التي تعطى على المستوى الحكومي، ومساعدات الصحف التي تمنح على أساس عدد الأعضاء في البرلمان... إن هذه الأشياء تفيد أن التراكم السلبي مازال مستمرا، فكيف يتم الادعاء بأن اليوم يختلف عن الأمس القريب. لقد قلت سابقا، إن الفقر هو الشيء الوحيد الذي له مستقبل في هذه البلاد !

□ **الصحيفة** : قرأنا في الأيام القليلة الماضية في استجواب للوزير الأول أنه من كثرة المساعدات التي قدمتها الحكومة للعالم القروي وللمعوزين أصبح الناس يتمنون لو تكرر الجفاف سنويا، ما رأيك ؟

■ م. م. : جفاف الأدمغة أصعب من جفاف الطبيعة ! كيف نصل بالديماغوجية إلى هذه الدرجة ويكون مثل هذا التنويه بالجفاف ؟ في كل بلدان العالم، الجفاف له علاقة بالطقس وبقيم حضارية، إن الجفاف ضد الطبيعة الإنسانية، ولا يمكن لأحد يعرف النفس الريفية وعلاقتها بالطبيعة أن يقول كلاما مثل هذا.

□ **الصحيفة** : بالإضافة إلى الجفاف الطبيعي ألا نشكو أيضا من جفاف سياسي، فمنذ بضع سنوات قبل التجربة الحكومية الحالية، كان للمغرب نوع من

الحصانة السياسية التي احتضنت بعض مطالب الإصلاح السياسي، أما الآن فهناك تراجع عن تلك المطالب كيف تفسر ذلك ؟

■ م. م. : أتفق معك، وإذا عدت لبعض الصحف في أعدادها للثلاث سنوات التي خلت، فستجد أنني لم أومن بالتجربة الحكومية الحالية لأسباب بسيطة، فهناك من يحلل الأشياء بالأشخاص وهذا غير ذي موضوع الآن، فزمن الأنبياء انتهى وانقضى منذ أمد بعيد. إن الأشخاص جزء فرعي مما هو كلي، أي قواعد النظام "système"، فإذا كان المرء يشكو من مرض في حلقه فإن فهم المرض يجب أن يكون ضمن الأداء الكلي للجسم، لذلك فإن التغيير إذا لم يأت بجديد على مستوى النظام وقواعده ككل فلن يكون هناك تغيير بالمعنى الحقيقي، لذلك فإن تغيير أشخاص بأشخاص سيبقي على النتائج التي جاءت من قبل. فعلى سبيل المثال لا يمكن لأقلية ديمغرافية من كبار السن أن تحل مشاكل قاعدة سكانية أغلبها من الشباب.

إن الأمر أشبه بقواعد لعبة كرة القدم، فالقواعد التي تمنح ضربة خطأ معروفة، وكذلك التي تمنح ضربة جزاء إلخ...، إنها القواعد التي تسير نظاما معينا مثل الهاتف النقال الذي تستعمله أو المصعد، فهذه أشياء مضبوطة بقواعد تشغيل معينة محسومة سلفا، وفي داخل المنظومة الاجتماعية هناك قواعد وقيم تؤطر الحياة. أنا أقول بأن التغيير في التجربة الحكومية الحالية جاء في الأشخاص ولم يأت في النموذج أو في الرؤية، وأتحدى أيا كان في الحكومة أن يقول لي إن لديه رؤية استراتيجية فيما يعمله الآن. لقد كانت لدينا رؤية إبان الحصول على الاستقلال، رؤية كان حولها الإجماع، لا أقصد الرؤية التي يفهمها شخص يجلس في مكتبه ويتكلم مع خبراء من البنك العالمي أو السفارة الأمريكية ثم يقول ها هي رؤيتي لمغرب سنة 2020 مثلما فعلوا أخيرا في السفارة المذكورة، الرؤية التي أتحدث عنها ناتجة عن تعامل مباشر مع الشعب وعن اندماج تام يكون الإحساس به مثل صلة النبض بالقلب.

□ الصحيفة : إذا أردنا أن نحدد الحصيلة السياسية في مغرب اليوم بنوع من الضبط ما الذي يمكن أن تقوله ؟

■ م. م. : سأعود بكم إلى أيام مبكرة لفجر الاستقلال في عام 1960تحديدا، كان محمد الخامس رحمه الله قد استدعاني كما استدعى عبد اللطيف الفيلالي وأحمد عصمان والخطيب (ليس الدكتور الخطيب)، استدعانا بحكم الاختصاص في المجال القانوني، بالإضافة إلى المعرفة بالعالم الفرنكوفوني بالنسبة للفيلالي وعصمان والخطيب بالعالم الإسبانوفوني وأنا بالعالم الآنجلوساكسوني.. اجتمعنا مع محمد الخامس في الرباط وقال لنا بأن المغرب في حاجة إلى دستور وهذا يتطلب أناسا لديهم تجربة ويعرفون جميع أنواع الأنظمة لتكون هناك مقارنة وتهييء مشروع دستور.

لم يسألنا عن رأينا في الموضوع بل اكتفى بطلب خبرتنا، خرجت من ذلك الاجتماع وذهبت عند السيد محمد عواد الذي كان آنذاك مديرا للديوان الملكي، وهو ما زال حيا، وقلت له أنا لا أومن بالدساتير التي تأتي من فوق، فالدستور هو أهم شيء لأنه هو العين، وحتى في الشريعة الإسلامية نجد العين والمقاصد، والعين هي السيادة، وإذا كانت السيادة للشعب، فإن هذا الأخير هو الذي يجب أن يقرر مصيره بنفسه ويختار دستوره، وهذا بالأساس هو الهدف الذي كان من وراء محاربة الاستعمار الذي أخذ السيادة من الشعب وجعلها في خدمته. وقد كان هناك رد فعل قوي في القصر الملكي على الموقف الذي أعلنته، ولذلك السبب قضيت سبعة عشر عاما في اليونسكو.

□ الصحيفة : هل نفهم من كلامك أن المغرب يحتاج الآن إلى إصلاح دستوري ؟

■ م. م. : إننا نحتاج فقط إلى إصلاح الدستور، لماذا لم أسجل نفسي أبدا في أي تصويت ؟ لأنني لا أومن بالديمقراطية التي تأتي من فوق.

□ الصحيفة : وما هو الحل في نظرك لنتوفر على الدستور الحقيقي ؟

■ م. م. : يلزمنا مجلس دستوري تأسيسي ليحرر دستورا باسم الشعب، لتكون السلطة من الشعب إلى الشعب ولصالح الشعب، وأن يوافق الشعب على هذا الدستور.

□ **الصحيفة** : إن هناك من يخشى أن يكون الإصلاح الدستوري مدخلا للمطالبة بإصلاح النظام الملكي لبلدنا ؟

■ م. م. : إن على الملكية أن تصلح نفسها بنفسها، أي أن عليها أن تقرر مصيرها، أن تعطاها فرصة لتواكب زمنها، وذلك بمساهمة عوامل داخلية، وليتم التطبيق التدريجي للإصلاح المطلوب. إن هذا النوع من التفكير يجب أن يأتي من داخل المؤسسة الملكية، يجب أن تأتي التغييرات من داخل هذه المؤسسة مثلما حدث الأمر في المؤسسة الملكية ببريطانيا. إن التغيير لا يأتي من خلال نقاش داخل البرلمان، بل إن العائلة الملكية هي التي حللت وقيمت بعض الأشياء الأساسية وتدريجيا أدخلت عليها ـ أي المؤسسة الملكية ـ تغييرات أدت إلى تحسين العلاقة بين الملكية والشعب..

□ **الصحيفة** : (نقاطعه) على غرار ما ينادي به الأمير مولاي هشام ؟

■ م. م. : لا.. لا أعرف ما يقوم به مولاي هشام.. إنني أقول بأن المؤسسة الملكية يجب أن تأخذ زمام الإصلاح من داخلها، إن ما يهمني هو المؤسسة.

□ **الصحيفة** : إذا سلمنا معك بأن المغرب ليس له تجربة دستورية في المستوى المطلوب، فإننا نريد بالمقابل أن نسألك لماذا تخلفت النخبة السياسية عن القيام بمبادرات في اتجاه الإصلاح ؟

■ م. م. : لأنه تم شراؤها (يقصد النخبة)، لأنها أخذت مديريات ووزارات وقروض وسفارات. لأنني حينما أقول بوجود إفلاس في تدبير الشأن العام، فإنني أقول ذلك من منطلق الحكم على تجربة برمتها، أما الأشخاص فلا يهمونني. خذ أي وزير واطرح سؤالا عنه بعد عشرين أو خمسة وعشرين سنة لن يتذكره أحد، بخلاف أن فنانا مثل محمد فيتح أو الحسين السلاوي

وغيرهما فستظل تذكرهما الأجيال. إن مشاريعي منذ ثلاثين عاما في الدراسات المستقبلية لها منهجية بسيطة من ثلاثة أوجه : أولا وضع "الستاتيكو" أي بقاء الأشياء على ما هي عليه، وهذا حل بسيط لا دوام له، وإذا تم فإنه ينطبق عليه قانون البيولوجيا الذي يعني الاستقرار بمعناه البيولوجي أي الموت. وهناك ثانيا مسألة الإصلاح، وهذا حل لا يمكن أن يكون مجديا حينما تصل الصورة إلى أسوأ حالاتها. ثم هناك في الأخير التغيير الحقيقي من خلال تغيير قواعد نخبة والتركيبة العقلانية، وتغيير يمس مسألة العدالة الاجتماعية من خلال إعادة توزيع المداخيل، وتغيير مسار التبعية العمياء للغرب..

إننا وصلنا إلى مرحلة يجب فيها الاعتراف بأن بقاء أو استقرار الوضع على ما هو عليه غير ممكن، مثلما أن مطمح الإصلاح المطلق ممكنا. فخلال أربعين سنة تراكمت الأخطاء على النحو الخطير الذي يستدعي تغييرا جذريا. فالإفلاس الذي تواجهه إحدى الشركات مثلا يقتضي استدراكا وتغييرا شاملا وجذريا في طرق العمل ومناهجه والمصداقية... إن كل الكلام الذي قلته لحد الآن يمكن تلخيصه في هذه الكلمة، أي المصداقية. هذه الأخيرة انعدمت في الحكومة والأحزاب والأبناك وصندوق الضمان الاجتماعي والمستشفيات والنظام التربوي والإفساد التربوي الذي أطلق عليه اسم الإصلاح.

□ **الصحيفة** : تحدثت في كتابك الأخير عن الأضلع الخمسة، وتنبأت بانتفاضات اجتماعية قريبة، أين نحن الآن من ذلك ؟

■ **م. م.** : الكتاب صدر منذ ما يقرب من سنة ونصف أو سنتين، حيث تحدثت عن مستقبل وعن آلية وتيارات. فحينما قلت عن حرب الخليج سنة 1991 بأنها حرب حضارية، فهناك اليوم مجلة في جينيف تعترف بأن المنجرة هو المرجع في الحديث عن هذا الموضوع. لنأخذ فلسطين كتجربة إنها ستنتفض على غرار ما يصنعه حجر إذا ما ألقيته في بحيرة حيث تنتشر الدوائر. أذكر منطقة واحدة الآن تعرف زيادة في الاستقرار، إن عدم الاستقرار في حد ذاته انتفاضة، الولايات المتحدة الأمريكية، نفسها تعيش انتفاضتها. لقد قضيت عشر سنوات في أمريكا وهي أسوأ حالا مما كانت عليه في السابق، أما

في العالم الثالث فإن الحكام اضطروا للتعاون مع عدة جهات لضمان البقاء في السلطة، فلو تصورنا العالم العربي مثلا بدون مساعدة عسكرية ومادية أجنبية فكم ستبقى حكوماته في مكانها ؟

□ **الصحيفة** : كيف تفسر مسألة ما يمكن أن نسميه استقرار الأوضاع بالرغم من وجود أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية خانقة، واتساع الهوة بين القمة والقاعدة؟

■ م. م. : إن خمس أو عشر سنوات ليست بالشيء الكثير في تاريخ الشعوب، فعلى سبيل المثال لقد بدأنا نفهم الحرب الحضارية الأولى بعد عشر سنوات من إثارة الحديث عنها، وخذ أيضا كمثال أنابيب المياه في البيت، فحينما يحدث ثقب في أحدها تصلحه ثم إثنان فتصلحهما، لكن عندما يفسد الجهاز برمته فلا يبقى هناك مجال للإصلاح، إنها مسألة وقت.

إن الدراسات المستقبلية إيجابية ووقائية. إن الفرق مثلا بيني وبين صامويل هنتنجتون، هو أنني حينما كتبت كتابي عن "الحرب الحضارية الأولى"، قلت للنخبة السياسية والفكرية في العالم إنه في حالة عدم احترام القيم الإنسانية والثقافية، فإن الحروب القادمة ستكون حروب قيم وثقافة، والآن فإن لغة الرئيس الأمريكي بوش كلها، بقطع النظر عن ميزانية الدفاع الأمريكية البالغة 340 مليار دولار، هي دفاع عن قيم يهودية مسيحية معينة. إن كلامي هنا كان إيجابيا في الحديث عن المستقبل، أما صامويل هنتجتون فقال لأصحاب القرار : خذوا حذركم، إن الخطر كل الخطر سيأتي من العالم غير اليهودي المسيحي.

□ **الصحيفة** : ضمن المنظور المستقبلي إلى أين يتجه المغرب ؟

■ م. م. : الشيء الصعب الآن هو أنه لأول مرة لم يعد بالإمكان فهم المؤشرات أو معرفة الماسك بزمام القرار، أو الذي يمكن أن يؤثر على اتجاه الأمور، إن هذه العناصر كان يسهل علينا من قبل، فهمها نسبيا، أما الآن، وبالنسبة لي، فلا نتوفر على الحد الأدنى من الشفافية لفهم المؤشرات ومدى تأثيرها على اتجاه الأمور.

□ **الصحيفة** : يقال عنك في بعض الأوساط التي تنتقدها إنك ترفض وتنتقد كل شيء دون أن تقدم قرائن لذلك ما ردك ؟

■ م. م. : لقد رفضت عدة مناصب سامية على المستوى الوطني والدولي، أما فيما يخص تقييم أعمالي وأبحاثي فهذا ميدان مفتوح للجميع ليصل التقدير الذي يريده. إنني اخترت أن أركز أعمالي في الميدان المعرفي، ونتائج تلك الأعمال موجودة وقادرة على الدفاع عن نفسها.

هناك خلاصة للكاتب الفرنسي فرانسوا مورياك تعود إلى سنة 1941 أثرت في كثيرا، ويقول فيها : "الدخول في السياسة كان دائما يعني التخلي عن المعرفة، والوزراء المثقفون الذي حاولوا الرجوع إليها، بين وزارة ووزارة، أنتجوا كتبا عقيمة".

لقد علمني أبي رحمة الله عليه شيأين في الحياة. الأول ألا أطأ مكانا تكون حلقته مغلقة، مثل التنظيمات التي لها شروط، علمني ألا أدخل للأمور التي لا تكون مفتوحة للجميع، حزب أو جمعية إلخ، وذلك تجنبا لنوع من الزبونية والميز دون بقية عباد الله، حيث تقفل عليك الأبواب وتنزل هوائياتك !

والنصيحة الثانية هي : الله ينجيكم من المخزن !

□ **الصحيفة** : ماذا تقصد بالمخزن ؟

■ م. م. : المخزن بالمعنى الذي استخدمه والدي هو السلطة التي تتحكم في الأشياء، ومبنية على نوع من الماسونية بشكل يخدم بعضها البعض، وهي السلطة التي استخدمها ليوطي بطريقته ليستولي على النخبة، وبعد الاستعمار كانت البنية الموجودة متسمة بنوع من المحافظة والاستقرار. لذلك فبعد الاستقلال تم تغيير أشياء بأشياء، إن المخزن بهذا المعنى هو السلطة غير المتحررة.

□ **الصحيفة** : وإذا أردنا عقد مقارنة للمخزن بين الأمس واليوم، فماذا يمكن أن تقول؟

■ م. م. : المخزن بين الأمس واليوم وحتى الغد يظل هو نفسه، لأنه ليس له قانون، هو تركيب ذهني، وهو مستمر طالما يجد من لا يزال يتعامل معه في الصباح وينتقده في المساء.

إن مقاصد المخزن واضحة هي فرض الحكم وتطبيقه، وهو كل ما يعاكس المشاركة والاستشارة. إن المخزن لا يمكن أن يخدم المجتمع.

□ **الصحيفة** : بهذا المعنى فالمخزن ضد المجتمع ؟

■ م. م. : لا، المخزن ليس ضد المجتمع، إن المخزن يحكم المخزن، يخدم نفسه، وهذه حلقة مفرغة، إن عقلية المخزن توجد في الأحزاب، لقد أصبحت هذه الأخيرة توجد في الأحزاب، لقد أصبحت هذه الأخيرة أيضا جزءا من المخزن. وإذا أردنا اللعب بالألفاظ، فإننا نعيش الآن فترة ما بعد المخزن.

□ **الصحيفة** : هل للمخزن مستقبل في المغرب ؟

■ م. م. : إن له حاضر !

□ **الصحيفة** : كيف قرأت ما حدث في العالم عقب أحداث نيويورك ؟

■ م. م. : لنفرق بين شيئين، فبخصوص سقوط ضحايا أبرياء، ففي يوم وقوع ما حدث، كنا بإزاء تنظيم مؤتمر علمي في أوكسفورد، وكان أول ما فعلناه هو أننا أرسلنا برقية تعزية. إن الجانب الإنساني يبقى هو الأساس، إنه إذا قتل خمسة أشخاص فهو حدث يماثل مقتل خمسة آلاف شخص، إن الروح عزيزة عند الله. إن تعاطفي مع ما وقع في أمريكا يتحكم فيه الجانب الإنساني. وفي المقابل لقد مات أضعاف أضعاف هؤلاء في العالم الإسلامي (عشرة ملايين في العقد الأخير)، إني لا يمكن أن أقبل كل هذا النفاق في التعامل مع ضحايا وضحايا. وأحداث نيويورك استعملت لمحاربة مفتوحة ضد الإسلام، وبذلك دخلنا في ما سميته الحرب الحضارية الثانية، وهو عنوان الكتاب الذي صدر لي خلال هذا الشهر في اليابان.

19

لا يوجد بلد عربي وإسلامي مستقل(*)

□ النهار : هل عاود أمريكا الحنين من جديد لإعادة سيناريو حرب الخليج ؟

■ م. م. : لم يسبق لي أن اعتبرت الضربة العسكرية الوشيكة على العراق خبرا أو مفاجأة، لأن حرب الخليج كانت بداية مسلسل سيدوم كما قلت سابقاً، 15 أو 20 سنة، وهذا المسلسل يؤكد أن الحرب ضد العراق لم تتوقف.. وهي حرب في عمقها حضارية ولها مقاصد حقيقية، وهي منع النموذج العراقي من الانتشار لأنه سيخلق بيئة سياسية وحضارية في العالم العربي ستنتقل عدواها إلى دول العالم الثالث.. وهي بكل وضوح نوع من الحروب الصليبية المعاصرة، ونحن نستعمل هنا مفهوم الحرب الصليبية لأن بوش استعملها في مقال له بـ "Le Monde" الأحد الماضي.

وعموما، فهذه الحرب تندرج في إطار الصراع العالمي الحضاري حول القيم، ولعل ما يثبت صحة هذا الطرح هو قول بوش الأب سابقا "لا يمكن لأحد أن يمس بنوعية حياتنا وقيمنا".. وهذا يعني أن النزاعات المقبلة ستكون مبنية أساسا على القيم، حتى النزاعات الداخلية.. والدواء لإخماد هذه النزاعات هو التواصل الثقافي والحضاري...

□ النهار : كيف تقيم موقف الحكام العرب من قضية مصيرية كقضية العراق ؟

■ م. م. : العالم العربي والمسلم كله محتل، واتحدى أي أحد يقول لي إن هناك دولة عربية أو مسلمة مستقلة، لا وجود لها بدون سيطرة أمريكية فيها..

(*) النهار، أسبوعية، الرباط، 21 مارس 2003.

ونلمس ذلك من خلال كوميديات مؤتمرات القمة العربية مثل قمة الدول المسلمة أو الدول العربية، التي تجسد إلى أي درجة كلهم مسيّرون من بعيد من طرف أمريكا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة... فليس هناك دولة عربية لم نجد فيها تصرف أمريكي عن طريق وجود جيوش أو قواعد عسكرية أو وجود استخبارات قوية في عين المكان..

وإذا حللنا أوضاعنا بنوع من النقد الذاتي نستنتج أن قوة أمريكا أو قوات الغرب جزء كبير منها منطلق من ضعفنا.. الحكام والحكومات العربية لم تتحرك ولم أسمع تصريحا رسميا واحدا إلى حد الآن من مسؤول عربي أو رئيس حكومة يدين هذه الحرب التي ستودي بحياة الملايين من الأبرياء.. يقال إن الجامعة العربية صرحت أنها ضد الحرب، لكن الجامعة العربية هي جزء صغير ملحق للرئاسة المصرية التي تعد ملحقة بالبنتاغون والبيت الأبيض.

إذن، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وبنقد ذاتي، واقع الشعوب العربية المخزي رغم تحركاتها "الكوميدية" لتجسيد تضامنها مع العراقيين.

□ النهار : ألا تعتبر المظاهرات الاحتجاجية نوعا من التعبير العفوي عن التضامن مع الشعب العراقي ؟

■ م. م. : الملايين خرجوا إلى الشوارع بأوربا وغيرها.. في البلدان العربية ماذا رأينا ؟ رأينا في مصر عدد رجال الأمن أكثر من المتظاهرين، في تونس جرح 20 شخصا في المظاهرات، الجزائر تمنع تنظيم أي وقفة، في المغرب استغرق الأمر 3 أسابيع من التفاوض بين الأحزاب وما يسمى بالمجتمع المدني، لتحديد ملامح المظاهرة، ستكون على الطريقة "الفلانية" وفي الشارع "الفلاني". وهنا أود أن أشير أن ضعفنا هو السبب، وهو نابع أساسا من الحكومات العربية وأيضا مما يسمى بـ "النخبة" التي جزء منها لا يعرف حياة الشعوب التي يعيشونها.. فهناك فجوة كبيرة اقتصادية، اجتماعية خصوصا وأن 80% من الشعوب يعيشون الفقر بالمقابل فئة صغيرة تشكل نخبة إما فكرية أو

تجارية تسيطر على الخيرات... بعض هؤلاء النخبويين يلعبون أدوارا كوميدية، فهم يخرجون إلى الشوارع، أحيانا أخرى... فقد وجدت أن هناك مسيرين يستغلون هذه المسيرات لأغراض أخرى.. ففي مسيرة نظمت سابقا، وجدت نفسي صحبة بعض المتظاهرين محاصرين في الطريق، لكون "القيادة" ستقرأ بيانا.. تركت المسيرة، وذهبت إلى المسؤول الذي وضحت له أن بينكم وبين النضال الشعبي، ما بين السماء والأرض خصوصا وأن هناك وجوها نافذة حرصت في هذه المسيرة على إطلاق تصريحات لقنوات "MBC" و"الجزيرة"... كي لا نذهب بعيدا.

فليلة الاثنين الماضي، نظم الفنانون والإعلاميون وقفة تضامنية مع العراق بمسرح محمد الخامس... وقفة جسدت بصراحة عمق التعاطف الشعبي مع العراق.. لكن المقدم قطع عفوية ومصداقية هذه الوقفة، لما تدخل الوزير الأشعري لقراءة بعض الأبيات الشعرية.. تدخل أثار استياء بعض الحاضرين الذين غادروا القاعة... وكنت من بينهم... هذه الواقعة جسدت أنه ليس لنا حتى قداسة لبعض الأمور المصيرية، وهنا أستحضر العفوية والتلقائية التي طبعت وقفتنا في عام 1991 حيث لم تكن هناك تعليمات في الشوارع، كما أن المتظاهرين وصل عددهم إلى المليون.. للإشارة فالتلقائية مؤشر على الديمقراطية... لكن نحن بعيدون عن التلقائية مادام ما يسمى بالمجتمع المدني جزء منه مخزني ومسير من أعلى...

□ النهار : ما رأيك في من يحصر الأزمة العراقية في دكتاتورية الرئيس صدام حسين.

■ م. م. : أحتج على كل اختزال... فنحن هنا نختزل شعبا كله في شخص واحد.. مصر : حسني مبارك... التركيز على الشخص هو إهانة لكل الشعوب.. المشكلة ليست في صدام أو غيره.. وأنا هنا لا أدافع عن صدام.. لأن نوعية النظام العراقي التي يصفها الغرب بالديكتاتورية العسكرية، أصلا من صنع الغرب.. فالواقع هو أن هناك يقينا بالانقطاع بين الحكومات والشعوب،

والغرب أدرك هذا الانفصال، لذا وقع التحالف الضمني بين الحكومات العربية وحكومات الشمال، ونرى تحالفا شديدا بينها للدفاع عما أسميه عهد ما بعد الاستعمار أو الامبريالية الجديدة، وقد كانت 1991 أول حرب حضارية بين الشمال والجنوب أبرز مظاهرها التدخل بسرعة في الشؤون الداخلية لدول العالم الثالث لمنع أي محاولة تغيير جذري... وأنا أستغرب تعجب الناس من قيام الحرب الجديدة ضد العراق، فهذا يدل على تخلف في الرؤية. فما يحصل للعراق اليوم هو رؤية وسيناريو موضوعين منذ عهد ريغين.. وقد وجد بوش الابن نفسه في مسلسل لا يمكن له أن يوقف حلقاته أو أن يبدل السيناريو من جديد.. فالمسألة عموما ليست مسألة أشخاص.. وقد أثبتت استطلاعات الرأي الأخيرة أن 54% من الشعب الأمريكي تؤيد الضربة الأمريكية على العراق.. وعندما ستكون الضربة أكيد أن الرقم سيصل 60% إلى 66% من المؤيدين لأن الصراع في عمقه صراع حضاري واستراتيجي.

❑ **النهار** : كيف ستكون ملامح العراق بعد الحرب ؟

■ م. م. : بغض النظر عن الثمن العظيم الذي سيدفعه العراق، لا أقول الثمن الذي سيدفعه العالم العربي لأنه لم يدفع شيئا، صحيح أن الشعوب العربية خرجت إلى الشوارع تأييدا للعراق.. لكن الحكومات العربية كلها دون استثناء لم تفعل شيئا، بغض النظر عن حجم الضحايا والدمار، فالعراق شعب الحضارة له إرادة من الصعب قتلها.. أو قتل فكرة أو إبداع.. أو خلق... العراق برهن منذ سنين على إرادته المستميتة التي تحصنه.. والقضية العراقية وأستغرب كيف أن كوفي عنان يعطي الأمر للمفتشين بمغادرة العراق ومع ذلك يدعي أنه يحرص على سلامة العراقيين، وهذا يؤكد أن كوفي عنان آلة للبنتاغون.. تحركها كما يشاء فعلا سيؤدي العراق ثمنا باهظا جدا.. وكل صورة تصلنا عن الحرب الأمريكية العراقية لنا دور فيها.. وهنا أستحضر دولا عربية كالسعودية التي لم تفعل ما فعلته في 73 (قطع النقط) واتفاقية التبادل الحر بين المغرب وأمريكا.. فالتعاون مع كامل الأسف مستمر مع أمريكا رغم حرب الدمار..

وهذا يؤكد أن هناك تحالفا ضمنيا بين الحكام العرب وأمريكا "احميني نحميك" لكن إذا كانت أمريكا قد استأنست بالديمقراطية العربية التي أنعتها بالذلقراطية فالصين قادمة كقوة عسكرية واقتصادية... محل أمريكا والأكيد أن أول ما ستقوم به أمريكا بعد الحرب هو تغيير الحكومات والحكام الذين مهدوا لها الطريق والأكثر قربا منها.. كالسعودية، الأردن.. ولا يمكن أن نسامح هذه الحكومات اليوم أو غدا على تواطئها مع أمريكا لمصالحها وللحفاظ على استمرارها في كراسي الحكم.

□ النهار : قلت أنا لا أخاف على العراق.. لأن هناك شعبا وإرادة... هل هذه الثقة في القوة العراقية على الصمود والتحدي مازالت إلى الآن ؟

■ م. م. : حتى الآن أنا لا أخاف على العراق، لأن هناك شعبا والشعوب لا تموت... فالعراق من بين البلدان القليلة في العالم الثالث والوحيد في العالم العربي الذي كانت مجهوداته في البحث العلمي تتمتع بنوع من الاستقلالية والاعتماد على الذات وهو ما لا يسمح به الغرب، لأن هذا التقدم العراقي موجه ضد اسرائيل وهذا ما لا يحتمله الغرب. الذي يجرؤ على المساس باسرائيل معرض للإبادة.. فإسرائيل هي المفتاح الرئيسي لفهم كل ما يجري باعتبارها الدركي في المنطقة الذي يحرص على تنفيد بنود التخطيط الغربي في المنطقة منذ 1917 لدرجة أن اسرائيل ستكون أول من سيعرف متى ستكون الضربة على العراق... وهنا أود أن أشير أنه لأول مرة في التاريخ يحصل تطرف ديني عنصري يهودي مسيحي، بمعنى وجود قيم مسيحية يهودية مشتركة لها نفس الأهداف والاستراتيجيات تتوحد كلها في الحفاظ على الذل والهوان العربي..

العراق يشكل الاستثناء لجهة اعتماده على نفسه وسعيه لبناء قوّة معتمدة على التقدم العلمي والتكنولوجي.. والتقدم العلمي والتكنولوجي في العراق ترافق مع محو الأمية ليصبح من أقل دول العالم الثالث بنسبة الأمية، مما خلق شعبا متعلما يملك قدرة على التحكم بثرواته وإذا أضفنا للعلم، التكنولوجيا وإلغاء الأمية كمظاهر حضارية، وأجذنا بعين الاعتبار أن للعراق حضارة عمرها ستة

آلاف سنة في حين لا تتجاوز حضارة الولايات المتحدة الأمريكية 200 سنة، نجد أن الرؤية الغربية للعراق مبنية على الخوف من هذا المد الحضاري الذي سيشكله العراق كأساس حضاري للأمة العربية... لأن العراق إضافة إلى ذلك يمتلك ثروات طبيعية هائلة وضخمة لذلك كان لابد من ضربه والقضاء على كل مقومات قوته وحتى يخاف الآخرون ويبتعدوا عن كل ما يزعج الغرب...

ولقد توقعنا كمختصين ومستقبليين عرب ما حصل في 1991، لكن للأسف، ليس هناك من العرب من يقرأ ويستفيد من هذه الدراسات، لأن المسؤولين في بلادنا يعتمدون في دراستهم المستقبلية على الأجانب وتقارير البنك الدولي... دون البحث أو الاهتمام بالقدر الكافي بما يكتبه الخبراء العرب... فالحكام العرب لهم رؤية واحدة وهي البقاء في السلطة لأطول فترة ممكنة...

20

الإهانة المزدوجة(*)

ليس بالأمر الغريب أن يكون مصطلح "الإهانة" عنوان الكتاب الأخير للبروفيسور المهدي المنجرة عنوانا مستفزا ومعبرا عن أوضاع الساحة اليوم، سواء تعلق الأمر بالصعيد القطري، مع مهزلة نتائج الانتخابات الجماعية الأخيرة، أو الصعيد العربي مع مستجدات الأوضاع في العراق وفلسطين. التقينا بالمنجرة إذن، وسألناه عن تقييمه لسر ديمومة هذه الأوضاع وهو الذي طالما تحدث عن انتفاضات بصيغة الجمع، وعن "الذلقراطية" و"الجهلقراطية".

□ الأخبار : لا يمكن لأي مثقف ينخرط في قضايا تهم العالم بأسره، أن ينعزل عن القضايا التي تمس القطر الذي ينتمي إليه. من هذا المنطلق، كيف قرأتم الخلافات التي دبت بين الأحزاب السياسية المغربية على هامش نتائج الانتخابات الجماعية الأخيرة؟

■ م. م. : قالوا لنا إن المشاركة تجاوزت نسبة 54 في المائة، وشخصيا، أعتقد أننا لم نتجاوز 30 في المائة. والعملية الانتخابية عندنا تذكرني بما يجري اليوم في الشيشان !

لقد تمخزنت الأحزاب، وبالتالي فقدت مصداقيتها عند المواطن المغربي. لاحظ كيف اندلعت المعارك بعد الانتخابات. أين هي مصداقية السياسيين وأين هي مصداقية هذه الانتخابات إذا كنا نشاهد مثل هذه التخريجات ! صحيح أننا سنسمع دائما بأن مرور هذه الانتخابات في هذه الظروف يبقى أفضل من الانتخابات في العهد القديم، وأننا في بداية الطريق.. ولكن، أقسم أنني لا أرى أي فرق بين هذه وانتخابات عام 62.

(*) أسبوعية الأخبار، الرباط، 10 أكتوبر 2003 (استجواب منتصر حمادة).

أؤكد من جديد على مصطلح المصداقية : ما هي مصداقية هذه الانتخابات أمام الرأي العام المغربي ؟ الملايير أنفقت في الرشوة، ولا من يندد بهذه الممارسات.

لهذه الأسباب وغيرها، لم أشارك في الانتخابات الأخيرة لأنني أساسا لا أشارك في انتخابات تقوم على دستور ممنوح. الدستور لم يأت من الشعب. هناك مصدر وهناك مقاصد. المصدر واضح والمقاصد واضحة للجميع.

□ الأخبار : وماذا عن تقييم المحاكمات التي شهدها المغرب خلال الأشهر الأخيرة، قبل وبعد أحداث 16 مايو ؟

■ م. م. : هناك مبالغة كبيرة في طريقة هذه الأحكام، والشارع يشعر بذلك ويعرف أن الأمر ليس بأيدينا، وأن هناك تدخل أجنبي، وأن هناك تشويه مقصود لغايات معينة يعرفها الشعب جيدا.

□ الأخبار : مع أنه سبق لكم أن تحدثتم عن انتفاضات وعن ذلقراطية وجهلقراطية، ومع ذلك، لم نشهد هذه الانتفاضات، باستثناء الجالية الفلسطينية ؟

■ م.م. : أرى أن مفاهيم علوم الأرض أفضل المفاهيم التي قد تساعدنا على فهم الأوضاع في المغرب وفي العالم العربي، وأتحدث بالتحديد عن الجيولوجيا التي تقر أن الأرض تعيش على إيقاع تحركات مختلفة المدى زمنيا، على المدى القصير والمتوسط والطويل.

فالزلزال مثلا يندرج ضمن المدى الطويل. هناك العديد من البؤر الأرضية التي من المتوقع عند علماء الأرض أن تشهد في يوم من الأيام زلزالا كبيرا، ويبقى عدم التدقيق فقط مع تاريخ الزلزال، ولكن هناك اتفاق على أن الزلزال قادم.

لقد سبق لي أن تحدثت عن انتفاضات بالجمع في العالم العربي على الخصوص، وحتى العالم الإسلامي، كل هذا العالم الإسلامي معرض بالضرورة لزلزال كبير إذا استمرت الأوضاع كما هي عليه اليوم. لماذا ؟ لأن الأرض غير ثابتة، ولا يوجد هناك وضوح في العمل، وهناك الزيف، ولا توجد هناك عدالة اجتماعية، وتزداد الفوارق الاجتماعية بين الغني والفقير يوما عن يوم، وهناك

أيضا الكذب والنفاق، إلى حد أننا هنا في المغرب نجد وزارة التربية والتعليم تقوم بحملات دعائية عما يسمونه الإصلاح.

وهو في الواقع إفساد وليس إصلاحا. وتأكد أننا جميعا سوف نؤدي الثمن غاليا على هذا الإفساد.

❑ الأخبار : إذا كنتم تقرون بأن الأمر يتعلق بإفساد للتعليم بالمغرب وليس بإصلاحه، فكيف نفسر بقاء إرادة الإفساد التعليمي : هل حقا ثمة ضغوط خارجية، أم هناك تواطؤ من قبل المسؤولين في الداخل، أم ماذا ؟

■ م. م. : الاثنان معا. هناك فعلا ضغوطات خارجية، وخاصة من البنك الدولي ومن بعض السفارات الغربية التي لا تريد تكوينا تعليميا معينا يقلقهم، ولا يريدون أن ننافسهم، وحتى إن تجرأنا على المنافسة، فيجب أن تكون لصالحهم، وأن يتم تهجير العقول، وأن يستفيدوا هم فقط من التطور العلمي... من جهة ثانية، وهذا أمر أكدت عليه مرارا وأؤكد عليه من جديد، وهو أننا نعيش حقبة أصفها بـ "الجهلقراطية"، والجهل هنا يصبح وسيلة لتسيير البلاد، حيث يخشى المسؤولون من المعرفة ويخشوا الكفاءة. المسؤول المغربي يفضل كفاءات متواضعة عوض الكفاءات الحقيقية التي سوف تزعجه في تسيير الأمور بالطريقة التي يريد. هذا هو التخلف.

❑ الأخبار : اليابان التي تعتبر ثاني قوة اقتصادية في العالم اليوم، انطلقت من الاستثمار في المعرفة والبحث العلمي وما يجاورهما، ونحن نتحدث عن التنمية والانخراط في العولمة والشراكة.. ومع ذلك نجد هذا الخذلان اتجاه المعرفة والبحث العلمي. ألا يجسد هذا المنطق مفارقة فاضحة ؟

■ م. م. : النموذج الياباني نموذج ناجح، مع أنه يبدو بسيطا في المبادئ التي انطلق منها مع ثورة "الميجي" في عام 1868. فقد تم محو الأمية في ظرف 25 سنة، أي أنهم طرقوا بوابة القرن العشرين في ربع قرن. كما أنهم بالرغم من معوقات اللغة اليابانية، بدأوا مشروعا ضخما لترجمة العلوم. هناك أيضا الانطلاق من اللغة الوطنية، وهذا أمر هام جدا.

ونضيف فوق هذه المعطيات الهامة، أنهم حافظوا على قيمهم. وأخيرا تبنّوا نهج البحث العلمي، مقرونا بروح الابتكار.

أين نحن المغاربة والعرب من هذا النموذج ؟ عوض أن نحارب الأمية، نقوم بمحاربة المعرفة، وعوض تعميم استعمال التعليم باللغة الوطنية، نقوم بالعكس، وأتحدى أي مختص في هذه النقطة بالذات : ليست هناك أي دولة في العالم ذهبت بعيدا في ميدان البحث العلمي وصارت قوة تكنولوجية بدون الانطلاق من لغتها الوطنية. لا تهمني هنا التفاصيل، اللغة العربية أوالأمازيغية في الحالة المغربية، هذه مجرد تفاصيل ولن نختلف حولها، والمهم هو الانطلاق من اللغة الوطنية للبلد. أما التأسيس انطلاقا من لغة أجنبية، فهذا أمر لا يستقيم لأنك تسبب تناقضا مفاهيميا خطيرا بين الذات واللغة.. وحتى إسرائيل تستعمل اللغة العبرية، والبرازيل تستعمل لغتها الوطنية والهند كذلك. هذا أمر لا خلاف عليه إلا عندنا.

نحن نعيش تحت إيقاع الاستيلاب اللغوي والفرنكفوني، ومع ذلك يتحدثون عن التنمية والتقدم. أما ما يسمى البحث العلمي! هذا غير موجود، فكيف نتحدث عن بحث علمي والدولة تتبنى "مخزنة التنمية" ؟

□ **الأخبار : هل تقف الأوضاع المغربية والعربية السيئة للغاية وراء وضع عنوان 'الإهانة لمؤلفكم الأخير ؟**

■ م. م. : عندما أتحدث عن الإهانة، فأقصد الإهانة المزدوجة : إهانة الغرب لنا ومعها إهانة الاستعمار، وهناك إهانة ذاتية تأتي ممن يقبلون بالإهانة الخارجية، وهي تسقط على المسؤولين عندنا جميعا. والخطير أن بعض المسؤولين يقومون بترجمة الإهانة التي يتلقونها من قبل الغرب ويعكسونها على شعوبهم. الشعوب العربية تشعر بإهانة مضاعفة، سواء من قبل الغرب أو من قبل المسؤولين، وقد أضيف إهانة أخطر وتصدر عن تلك الفوارق الاجتماعية السائدة.

الإهانة التي نعيشها أصبحت جزءا أساسيا في التركيب العقلاني لهذه المجتمعات، وأهم سبب وراء هذا التطور يكمن في أننا نقبل بها. هناك قابلية للإهانة بفعل تكريسها باستمرار، ونقبل بمسؤولين يقبلون بها. لنتذكر ما حصل

في حقبة المقاومة الصادرة عن الحركات الوطنية في بلدان العالم الثالث.

ما يحصل اليوم هو عكس ما حصل بالأمس. ولو توقفنا عند نموذج التعليم فقط كما أشرت إليه من قبل، فكيف لا نشعر بالإهانة عندما نعلم أن "إصلاح التعليم" منبعه الضغوط الغربية وضغوط السفارات الأجنبية.

□ الأخبار : لو تأملنا الأوضاع القائمة في العراق في حقبة ما بعد صدام، سنجد أطرافا عربية تتحدث عن محتل من قبل الأمريكيين، ونجد في المقابل من يتحدث عن عراق مستقل، وحر،... ألا يجسد هذا المثل المبسط دليلا ماديا على أزمة شيزوفريفيا نعيش على إيقاعها في العالم العربي ؟

■ م. م. : خطأ كبير أن نحلل الأوضاع بالتركيز على الأسماء والأشخاص، فنتحدث عن صدام ومبارك وعرفات.. هؤلاء مجرد أسماء عابرة، ولكن الشعوب باقية، والتيارات الشعبية كذلك. الشعب العراقي شعب مناضل عبر التاريخ، ولديه مستوى ثقافي وعلمي متميز، ولو أن أمريكا بمساعدة بعض الدول العربية تعمل على تحطيم هذه الإرادة. هذا هو المقصود من الحرب والاحتلال. هناك فرق بين محاربة زعيم سياسي ومحاربة إرادة شعب بأكمله. لقد تواطأ صدام مع الغرب في الحرب العراقية الإيرانية لأنه كانت هناك مصالح مشتركة. علينا أن ندافع عن الشعب العراقي، ويكفي أنه تصدى لإسرائيل في حرب الخليج التسعينية، وها هو اليوم يؤدي ثمن ذلك الاندفاع وثمن تهديد إسرائيل، وبتواطؤ الدول العربية الإسلامية. كما أنه يؤدي ثمن الرغبة في النهوض العلمي المحرم علينا. غير مسموح لأي بلد عربي مسلم من الوصول لمستوى راقي من البحث العلمي والتطور التكنولوجي. لاحظ أن إسرائيل تحتل الرتبة الرابعة أو الخامسة في نسبة امتلاك الأسلحة النووية ولا حديث عن التفتيش، ومع ذلك، هناك مسؤول عربي مثل محمد البرادعي مديرا عاما للطاقة الذرية، وهو مصري يحمل الجنسية الأمريكية.

□ الأخبار : أحد المفكرين المصريين (رفعت سيد أحمد) نشر مقالا في يومية لندنية تحت عنوان : "لماذا أخجل من كون البرادعي مصريا ؟"، وتحدث فيه عن كون

البرادعي يقوم بتنفيذ مطالب الولايات المتحدة الأمريكية تجاه البلاد الإسلامية، وبعض البلدان النامية التي تحاول الحصول على الطاقة الذرية ولو لأغراض سلمية.

■ م. م. : محمد البرادعي يعمل بأوامر أمريكية وبالتحديد أوامر البنتاغون، وللأسف، هذه نتائج منتظرة، لأننا مازلنا نعيش في عهد استعمار من نوع أخطر، ولا يمكن توقع زواله إلا بعد عقود من الوعي والنضال.

□ الأخبار : بمعنى أن التغيير لن يطال العالم العربي إلا بعد عقود تكريس هذه الأوضاع ؟

■ م. م. : المسألة ليست في بعضة عقود فقط. هناك أولا هذا النوع الجديد من الاستعمار، وهو كما أشرت أخطر من الاستعمار القديم، وأكاد أقول إنه استعمار جيني يمس الجينات العربية. لاحظ كيف يتغلغل مثلا إلى الجهاز التعليمي الذي يؤثر في أجيال بأكملها، وليس في سنة إعدادي أو ثانوي !! يتحدثون عن إصلاح تعليمي، وهو إفساد تعليمي، ولا شك أننا سوف نؤدي ثمنه على الأقل جيل من المغاربة. انظر تجليات هذا الاستعمار الثقافي والقيمي في المهرجانات الثقافية والفنية والسينمائية وغيرها من المبادرات التي تستغل من أجل تحسين الصورة وتجميل الوجه. لست ضد المهرجانات، ولكن ضد هذا الاستغلال وهذه المزايدات التي تعرقل التنمية الحقيقية التي نريدها نحن، وليس الغرب والاستعمار الجديد.

□ الأخبار : وصف سوداوي لمشهد قاتم، فهل من بديل حقيقي وعملي للإسهام في الحد من هذا النزيف ؟

■ م. م. : البديل الحقيقي هو ولله الحمد، أن هناك وعيا، والأهم أن هذا الوعي يزداد كلما ارتفع خطاب الديماغوجيا وتجميل الوجه، أي خطاب "العام زين".

21

الثلاثاء الأسود والدفاع عن الكرامة(*)

بالرغم من مرور عام ونيف على أحداث الثلاثاء الأمريكي الأسود، ما زال الحدث يطغى على اهتمامات العديد من الأقلام المحسوبة على العالم بأسره، وليس على المجال الأمريكي أو العربي الإسلامي، وذلك بحكم التداعيات الجمة التي خلفها، والتي تهم عن قرب الرقعة العربية بالدرجة الأولى.

تستضيف "القدس العربي" في هذا المقام عالم المستقبليات المغربي، المهدي المنجرة، وتسأله عن بعض تداعيات "القيامة الأمريكية"، أسباب الوهن العربي اتجاه ممارسات الإدارة الأمريكية، مصداقية الحديث عن "حرب حضارية" أو "صدام حضاري"، وملفات أخرى، فكان هذا الحوار.

□ القدس : من يتأمل أوضاع العالم العربي والإسلامي اليوم، يتهيأ له أننا مازلنا نعيش في مرحلة الاستعمار، بالرغم من تحصيل الاستقلال... أين مكمن الخلل من وجهة نظركم؟

■ م. م. : كتبت كثيرا عن التحرر الثقافي، وتحديدا التحرر الثقافي من الاستعمار الذي عرفه العالم الثالث بصفة عامة والعالم العربي والإسلامي بصفة خاصة.

المشكل اليوم، وبعد التعبير عن كل هذه القناعات في مؤلفات ومحاضرات، اصطدم اليوم كون المسألة لم تصبح التحرر من الاستعمار..

□ القدس : ماذا تقصدون بالتحديد ؟

(*) القدس العربي، 5 شتنبر 2002.

■ م. م. : نحن مدعوون إلى البحث عن وجودنا، عن كينونتنا، نحن في حاجة إلى حركة نهضوية تساعد العرب والمسلمين والعالم الثالث لأن يستعمروا أنفسهم بأيديهم، ما دمنا لم نعد نملك ذاتنا اليوم. عندما تقول إنك ترغب في تحرير نفسك، فهذا يفترض أصلا أنك موجود أو أنك كائن حي، ولكن ينقصك شيء جوهري لتفعيل هذا الوجود، وهو التحرر من شيء دخيل هجم عليك، ولكن الأمر مختلف عندما تكون كلك مأكولا، كما هو حالنا اليوم في العديد من الأقطار الإسلامية، أي أقطار لا تملك نفسها. علينا أن نعيد استثمار أنفسنا (se réinvestir en soi-même).علماء النفس يؤكدون أننا نعيش عصر استلاب لا يتعلق بالفرد وحده في المجال العربي أو الإسلامي، ولكنه استلاب جماعي. لا أعتقد أنه يوجد واحد منا كان يتخيل في يوم من الأيام أننا سنصل إلى درجة الابتعاد عن الذات إلى هذا الحد الذي وصلنا إليه اليوم، من خلال مسخ الهوية والذات، وهذا يسهل عمل الاستعمار.

□ **القدس** : لننقل تحصيل جرعات كبيرة من القابلية للاستعمار إذا استعرنا عبارة المفكر الجزائري مالك بن نبي..

■ م. م. : نعيش اليوم مستويات خطيرة من الذل والخوف. الإشكالية تكمن كما أشرت من قبل في ضرورة مراجعة الذات أولا، ضرورة العودة إلى الذات، وأرجو ألا يفهم كلامي من خلفية رجعية، فالمسألة لا تختزل في رجعية أو أصالة.

علينا استثمار أنفسنا للوصول إلى أرضية يمكن الانطلاق منها آنذاك من أجل التفكير في الحداثة وإكراهات الساعة.

□ **القدس** : أين يكمن الخلل بالتحديد ؟ هل نلقي بالمسؤولية على السياسيين، أم على المثقفين، أم ننصت لأطروحات الإسلاميين أم التقدميين أم ماذا بالضبط ؟

■ م. م. : نحن اليوم نعيش عصر القوة، لا يوجد أي تفكير ينطلق من خلال الأخذ بعين الاعتبار المعطيات الميدانية التي تحيط به. ولا يمكن لأي حركة

اليوم أن تنطلق وتتفاعل دون أن تنتبه لهذه المعطيات الميدانية. المسؤولون في أقطار العالم بأسره اليوم يستوعبون أننا أمام قوة مهيمنة، وأنهم مطالبون بمسايرة هذا المعطى، ونحن نشهده مثلا في التعاطي الأوربي مع التهديدات الأمريكية ضد العراق، بحيث إن هناك حكومات أوروبية لم تتردد في معارضة رأي الشارع بخصوص هذا الموضوع حتى لا تخسر تبعات العلاقة العضوية التي تجمعها مع الأمريكيين.

❑ القدس : تقصدون النموذج البريطاني ؟

■ م. م. : مثلا. هناك ظروف خاصة، وما يعقد الأمور أكثر، أن الحكام في دول العالم الثالث يفكرون بعقلية الوقت الحاضر فقط، بالفكر الآني أو فكر اللحظة، ولا يهمهم ما سيقع في المساء أو في اليوم الموالي.

❑ القدس : هناك عقلية براغماتية تطغى على الممارسات السياسية عموما.

■ م. م. : العقلية البراغماتية تدفع بهؤلاء نحو اللجوء إلى التلاعب، سواء تعلق الأمر بالعلاقة الرسمية بين الأنظمة العربية والعملاق الأمريكي بصفته المهيمن على الساحة العالمية، أو فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الأنظمة العربية مع ما يسمى بالنخب، من أحزاب سياسية، مثقفين، مجتمع مدني، وغير ذلك. عقلية الفكر الواحد إذن التي تفرضها الإدارة الأمريكية لم تكن لتجد كل هذا الرواج والتأييد والانتشار لو لم تكن هناك قابلية لتحصيل هذا التلاعب والبراغماتية، والنتيجة هي ما نلمسه في التعاطي العربي مع ما يتم في فلسطين والعراق، دون أن تكون هناك ردود أفعال عملية تحد من هذا النزيف.

❑ القدس : ما هو البديل إذن في ظل هذه المعطيات القاتمة ؟

■ م. م. : هناك حل من اثنين : إما تحصيل حد أقصى من الوعي والصبر والتوعية، حتى نشرع جميعا في إحداث تغيير تدريجي، وللأسف، هذا أمر غير وارد في الحالة العربية، لأن التغيير بالنسبة لنا سيأتي من النسق الحاكم، أي عندما نصل إلى ذروة التناقض بين الطاقة البشرية وإرادتها في مقارنة مع إرادة المسيرين.

وإما انتظار تغيير على شاكلة "انتفاضات"، ولهذا عنونت آخر مؤلفاتي بـ "انتفاضات في زمن الذلقراطية"، (وليس الديموقراطية) وإن كان الكتاب قد تطرق لموضوع "انتفاضة الأقصى" على اعتبار أنها أهم حدث عربي إسلامي في الوقت الراهن. إضافة إلى أن الانتفاضة موجهة ضد تخاذل العرب والمسلمين وموجهة بالطبع ضد الصهاينة. لكن الحديث عن انتفاضات بالجمع كان موجها إلى باقي الأنظمة العربية.

☐ **القدس** : أنتم تشتغلون في حقل الدراسات المستقبلية، هل يمكن تحديد مجال زمني قد نتوقع فيه صدور هذه المتغيرات؟

■ م. م. : المسألة لا تكمن في الحديث عن خمس أو عشر سنوات، أقل من هذه المدة أو أكثر، لأنه بالنسبة للدراسات المستقبلية، هذه أمور ثانوية، لأن الأهم هو تفكيك هذه الآليات والكشف عنها، وبالطبع التنبيه إلى ما نؤول إليه إذا أصررنا على تبني نفس السياسات.

☐ **القدس** : كيف يقرأ المنجرة أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ؟

■ م. م. : هذه العملية إعلامية ولحد الآن المعلومات حول ما حصل محدودة، وأي باحث يحترم نفسه ويتوفر على نزاهة فكرية لا يمكنه التعامل مع هذه الأحداث كما يتم التعامل معها من خلال ما تتعمد وسائل الاعلام ترويجه. كنت بإزاء مؤتمر بأكسفورد ببريطانيا يوم حدوث الاعتداءات، وقمت بإرسال برقية في الحين كتعزية موجهة لهؤلاء دون معرفة المقصود من التوابع، لا أنكر أنني تأثرت كثيرا بهذا العنف، انطلاقا من مبادئي، فيوما ما، كان لي شرف تنظيم الذكرى المئوية لميلاد المناضل المهتما غاندي في دلهي.

في نفس الوقت حين تتأمل وضعية العالم من الصعب أن تمنع على إنسان لم يبق أمامه أي طريق أو باب لكي يدافع عن نفسه للبقاء أن يعطيك أهمية أو قيمة، وأعتقد أن المحرك الأساسي لأحداث 11 أيلول (سبتمبر) هو الدفاع عن الكرامة.

تم التعامل مع ما حصل مثل ما يتعامل الإنسان مع وسائل الإعلام الدعائي، واستغل الحزن والخوف كوسيلة للتحكم في الناس وهذه إشكالية أحداث نيويورك وهي للدراسة في المستقبل وثورة إعلامية قبل كل شيء.

□ القدس : لأننا نعيش عصر الثورة المعلوماتية من جهة، وعصر الصورة بتعبير الفيلسوف الفرنسي ريجيس دوبريه...

■ م. م. : منذ سنين وأنا أكتب عن ثورة الإعلام والمعرفة وعن البحث العلمي وعن الخلق والإبداع الثقافي وغيره. وكان من مجالات اهتمامي التطورات التي شهدتها الثورة التكنولوجية في الإعلاميات والاتصال. إلا أن البنية التي قامت على استعمال المعلومات والآلات والجهاز الإعلامي لتحسين التواصل ما بين الأشخاص واستغلال المواد التربوية والعلمية تطورت بسرعة صارت معها هذه الوسائل تستعمل لغاية واحدة والمعلومات صارت إخبارية بالدرجة الأولى، وتركنا المجتمع، وخاصة المجتمع الإعلامي الحقيقي الثقافي وأصبحت المعلومات الموجودة والشبكات والتقنيات الحديثة (الأقمار الصناعية) تخدم شيئا معينا، مرتبطا بالاستخبارات. فالمعلومة خاصة بالاستخبارات، وحتى التركيب الهيكلي الدبلوماسي الأمريكي لم يعد له أي دور.

كلنا نعلم أن مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف. بي. آي) من حيث المبدأ، ليس له الحق أن يشتغل خارج الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه اليوم يتوفر على فروع في جل البلدان العربية، وهذا ما خلق نوعا من الخوف، ويكفي تأمل ما حصل لـ 60 ألف عربي أو 60 ألف مشبوه، فقط لأنهم عرب أو مسلمون في الولايات المتحدة وفي بلاد تعد ديموقراطية.

هذا الاهتمام الاستخباراتي كان له تأثير على الذات في تفكيرهم وأدخل الخوف على الدول، فلأول مرة أمريكا تشك في نفسها وينتابها الخوف في كل دقيقة.

□ القدس : لماذا الخوف على أوضاع الجالية العربية والإسلامية في أمريكا أكثر من أوربا، هل ذلك راجع لكون الأحداث طالت الأمريكيين بالدرجة الأولى، أم لطبيعة العلاقة المرنة نسبيا بين الأوربيين والمسلمين ؟

■ م. م. : أمريكا صارت اليوم إشكالا عنصريا، فحتى داخل أمريكا تجد بعض وسائل الإعلام وكذا أوساط معينة مناهضة للسياسة الأمريكية. إذن النزاع مع ما يسمى بالأقليات بأمريكا ليس اقتصادي بل وسياسي أيضا.

في أوربا هناك سوابق مع الدول، علاقات استعمارية فيما قبل، الأزمة الاقتصادية الكبرى، أزمة البطالة. قبل عشر سنوات اقترحت على المسؤولين المغاربة تأسيس مركز التعاضد المغربي تساهم فيه دول المغرب العربي من أجل تقديم مساعدات للمهاجرين بالخارج الذي يتم طردهم. ولو أنه بعد مدة قليلة سنرى أن أوربا نظرا لضعف النمو الديموغرافي، وارتفاع الشيخوخة ستكون قطعا في حاجة لهذه اليد العاملة.

في النهاية لا يجب أن نلوم الآخر، فهل كان بإمكان أمريكا أن تتعامل بالطريقة التي تعاملت بها الوسائل الأمنية والإعلام مع ستين عربيا لو كانت السفارات والقنصليات العربية الموجودة اتخذت مواقف أو مقاطعة. وأضرب مثلا على ذلك، وهو قيام الأوربيين والأمريكيين والفرنسيين بمظاهرات ضد إسرائيل في مشاهد لم نشهد لها مثيلا بالدول العربية، وذلك راجع أساسا إلى تحريمها من طرف الأنظمة السياسية والعسكرية العربية.

□ القدس : ما هي خلفيات المعارضة الأوربية لأمريكا بخصوص ضرب العراق ؟ هل ترجع لتخوف أوروبا على مصالحها أم أن أوربا بدأت تعي أن أمريكا الأسد الجريح قد يرتكب حماقات تجهز على الأخضر واليابس في المنطقة ؟

■ م. م. : هذا يصعب تفسيره. لكن أصول التنبيه الأوربي لخطورة الغطرسة الأمريكية تعود لحقبة الأربعينات، أي في الوقت الذي كان ديغول في لندن

وكان من بين الناس المساعدين في حركة التحرير الفرنسية في لندن السيدة سيمون فاي (Simon veil) (السياسية الشهيرة آنذاك وليس سيمون فاي الثانية التي عاصرت فرانسو ميتران). منذ تلك الفترة بدأ التخوف الأوربي من أمريكا نظرا للصلة الثقافية، لأن الجزء الكبير من الثقافة الأمريكية جاء من أوربا والبلدان الاسكندنافية وألمانيا وغيرها.

أوربا كان لها غرض أساسي بأمريكا وهو ما يسمى بالمظلة النووية، قبل أن ينتهي الخطر مثل ما حصل باليابان وغيرها. ثم أن أوربا أدركت إمكانيات عسكرية واقتصادية وغيرها، وبالرغم من ذلك لم يسمح لأية دولة أوربية كيفما كانت أن تتخذ موقفا حقيقيا ضد أمريكا في الحرب. إنهم مضطرون للتبعية، فوسائل الضغط كثيرة على ألمانيا واليابان وعلى غيرهما.

سبق لي أن أشرت في حوار مع قناة يابانية أننا سنشهد نوعا من الانفصال الأوربي على عدة مستويات. ففي حركات بسيطة ضد العولمة أكبر منطقة وجدنا فيها مجتمع تحرك ضد العولمة في أوربا (بلجيكا ـ ألمانيا ـ الدول الاسكندنافية...) أو لأنهم أناس واعون بعناصر إيكولوجية وللأسف تحليلنا في العالم العربي لهذا العنصر للدراسة والتنمية الحقيقية لم يدخل في أذهاننا استعمال الطاقة.

هناك جملة لابن خلدون مفادها أننا نعيش وقت انتقال من شيء لآخر ووصف هذه الطفرة بالمرحلة الانتقالية الأساسية في تاريخ الإنسانية. أظن أننا نعيش فترة مثل تلك الفترة في التغيير، وكما جاء في مقال لميشيل سير في "لوموند"، يمكن أن نقول نحن لسنا في نهاية التاريخ بل على وشك بداية التاريخ، التاريخ الجديد.

الأشياء أصبحت واضحة والناس أصبحوا واعين أكثر اليوم، هناك إشكال بسيط ما بين أوربا وأمريكا وسيأتي في داخل أمريكا شيء، الجهاز الأمريكي والمواطن الأمريكي شيء وترجمة هذا الإحساس وهذا التفكير من مستوى

الأشخاص إلى السياسة الخارجية شيء آخر، والتغيير الذي حصل بعد 11 أيلول (سبتمبر) وهو أن العالم أكبر من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا تغيير جذري يمس عمق تفكيرهم. من ناحية ثانية، إن الطريقة التي سارت عليها الحكومة الحالية والنظام القائم بأمريكا بقطع النظر وستر المشاكل الأساسية والاقتصادية، التماطل في إفراز نتائج الانتخابات، استفحال قضايا الفساد المؤسساتي الذي يهم شركات اقتصادية عملاقة، الأزمة الكبيرة في كاليفورنيا بخصوص الطاقة، وهي بالمناسبة أهم ولاية في أمريكا اقتصادية بعد نيويورك، عندما قررت أربع شركات مالكة للطاقة عدم توزيع الطاقة وأقروا بوجود عطب ولهذا السبب ثمن الطاقة ارتفع وأصبح مفروضا على الشركات إعادة المال للولاية... كل هذه مؤشرات على أزمة عميقة تمر بها أمريكا اليوم، وليست تبعات أحداث 11 أيلول (سبتمبر) إلا فرصة من أجل التغطية عليها.

لقد أمضيت 10 سنوات داخل أمريكا واقتنعت بأن الشعب الأمريكي مثل باقي الشعوب، سيقع مع الوقت تغيير يكشف ما هي الشبكة الصغيرة التي تحرك المجتمع الأمريكي في السياسة الخارجية بما فيه لوبيات الاتصال، لوبيات النفط، لوبيات الاقتصاد، أجهزة المخابرات...إلخ.

أعتقد أن الزلزال الحقيقي الذي بزغ مع الاعتداءات ليس في برجي نيويورك، بل في التركيب العقلاني وفي التفكير وفي التطوير الحضاري الذي سيأتي ولهذا يجب أن نكون متفائلين، وغالبا ما أستعير مقولة لغرامشي يشير فيها إلى ضرورة التسلح بعقلانية التشاؤم وتفاؤل الإرادة.

□ **القدس** : هل نحن أمام حرب حضارية بتعبيركم أم صدام حضارات حسب صامويل هنتنغتون، أم صراع هويات، أم ماذا... وهل الإدارة الأمريكية تشن حربا على الإسلام أم على الحركات الإسلامية المتشددة ؟

■ **م. م** : مواقفي في هذا الموضوع معروفة، فأطروحتي في الدكتوراه بلندن تعرضت للمقارنة بين الوحدة العربية والوحدة الإسلامية والقومية الإسلامية

والأمة وغير ذلك. الأمور بدت واضحة، فالإسلام خطا طريقه مع الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وجاء كحركة تحريرية. فهو الذي حرر دول العالم العربي والإسلامي وليس الإيديولوجيات التي قدمت من الغرب.

الغرب جاء بالاستعباد والعبودية لبلداننا بالدرجة الأولى قبل ما يسميه البعض بحسنات الاستعمار... لنتأمل ما قام به الجنرال "ليوطي" قبل مجيئه إلى المغرب والجزائر، وما قام به آخرون في الحركة الاستعمارية عن طريق خبراء وعلماء ومستشرقين ممن كانوا يأتون قبل سنة 1912، حيث استوعبوا أن أي مجتمع إسلامي لا يتعامل مع الإسلام كدين فقط، ولكن الإسلام شمولي ووسيلة تفكير وعلاقات تواصل وفلسفة حياة، وتوصلوا بالتالي إلى أنه من غير الممكن أن تفككه، بمعنى إما أن تمارسه كله أو تتركه كله.

وواضح أن مفردات مثل العلمنة أو العلمانية لا أساس لها في هذا التفكير الشمولي لقوة الإسلام.

لا تنس أن "كروميل" دخل إلى البرلمان الانكليزي وكان للانجليز آنذاك مشاكل كبيرة مع مصر. دخل والقرآن بيده وقال "مادام هذا الكتاب يحترم ويقدس في مصر، فلا مستقبل لنا فيها".

بالنسبة للحالة المغربية، سوف نشاهد بروز نماذج متخلفة في الدين مثل "الزوايا"، وبزوغ التحالف بين المخزن وفئات ارتزاقية تستعمل الدين والإسلام، وأصبحنا نشهد ونصطدم بارتزاق أقلام تصنف وتتم تزكيتها في الجامعات الأوربية، مقابل تقديم خدمات مفضوحة للغرب الذي يكتفي بتسويق صورة هؤلاء كـ"أساتذة" و"خبراء" تتم استضافتهم في القنوات الإعلامية الغربية، وهي خاصية عربية فريدة في الارتزاق، بحيث أصبحنا نصطدم بهم في أغلب الندوات التي تتطرق لموضوع "الحركات الإسلامية" مثلا.

مسألة الارتزاق هذه نجد لها جذورا في الماضي من خلال أخطاء الصوفية، التي لم تسلم من هذا الارتزاق ولم تؤخذ من معانيها السامية والحضارية..

☐ القدس : تقصدون صوفية ابن عربي وأبي حامد الغزالي مثلا.

■ م.م. : وابن الرومي وغيرهم.. لم نتعامل مع هذه الصوفية من هذا المنطلق الفكري النوعي القيم، ولكن اتخذت كوسيلة للاستغلال السياسي وبزغ تحالف جديد مع النظام الحاكم سواء أكان استعماريا أو حتى بعد التحرير من الاستعمار.

وهذا يمس حتى العديد من الحركات الإسلامية، بدليل كشف الأوراق الذي أبرزته أحداث الحرب على أفغانستان. فالأرقام تشير إلى تورط أمريكي يصل إلى دعم مالي يفوق مليار دولار لحركات "الجهاد الأفغاني" ضد الوجود السوفييتي. وكان التمويل الذي شاركنا فيه نحن كعرب ومسلمين يندرج ضمن النزاع العالمي الإيديولوجي العالمي ما بين الإسلام والتيار الشيوعي. لقد صرفت أموال باهضة من الخارج جاءت لتشجيع بعض الحركات الإسلامية التي تحارب بأي وسيلة التفكير والتنوير وضد التيار الإسلامي التنويري الذي عرفناه في المغرب مع علال الفاسي، المختار السوسي، أو مع مالك بن نبي في الجزائر، أو محمد الغزالي في مصر...

أصبحنا نرى نوعا من التحالف ما بين الحكم المحلي والاستعمار من قبل، لأن هذه الحركة التي صارت حركة الانبعاث الإسلامي هي التي حاربت الاستعمار ولما طرد هذا الأخير فمثل ما صار في الميدان الاقتصادي والسياسي والثقافي صار تحالف من جديد ما بين المستعمر القديم والحديث، لأن مصالحهم صارت محددة وهذا أعطى انطلاقا وخصوصا قبل انقسام الاتحاد السوفييتي.

مشكل الحركات الإسلامية عموما، أن بعضها مورط من قبل الأنظمة الحاكمة، حيث تم استغلالها في تلك الحرب على الايديولوجيا المعارضة للنظام.

□ القدس : الحالة المصرية مثلا مع تحالف الإخوان المسلمين ضد الشيوعيين ؟

■ م. م. : هناك حركات تخدم مصالح النظام الحاكم الذي يخدم الحكم.

لكن ما هو أخطر في تعبير "الحركات الإسلامية"، وبخاصة مصطلح "الإسلامي" الذي يثير حفيظتي باعتباره محاولة للتفريق بين مسلم وآخر، مع أن التقوى بالذات هي التي يمكن أن تفرق حقا بين المسلم وأخيه.

لقد استعمل هذا المصطلح لأول مرة عند الأشعري وذلك للتفريق ما بين الأسلوب الأدبي والشعري في عصر الجاهلية. أما القرآن ففيه المسلم والمؤمن والإيمان.

"الإسلامي"، الكلمة لم تأت حتى في القرن 17 أو 18، في انكلترا، وكان يقصد بها المستشرق الذي يدرس العالم الإسلامي، وقد استعملت من جديد في آخر القرن 19 في بعض المخطوطات. وكانت إسلامي تعني اليهود الذين أسلموا في اسبانيا وجاءوا للمغرب كمسلمين للتفريق ما بين المسلم الذي ولد كمسلم والإسلامي الذي دخل للإسلام من بعد.

بخصوص الحديث عن الحرب الحضارية أو الحرب الصليبية وغيره.. أشير إلى ما جاء في مبحث لأستاذة يابانية قامت بدراسة حول الحروب الصليبية وعددها ثماني بالمناسبة، توصلت إلى أن عدد ضحايا الحروب الصليبية وصل إلى رقم 100.000 أما اليوم، وفي العالم الإسلامي بالذات ونحن نتحدث فقط عن العشر سنوات الأخيرة، فيصل الرقم إلى مئة مليون ضحية في كشمير، السودان، إيران، نيجيريا، الشيشان... وطبعا في العراق، أي بمعدل عشر مرات أكثر من ضحايا الحروب الصليبية.

□ القدس : على ذكر العراق، كيف تقرأون التهديدات الأمريكية ضد العراق ؟

■ م. م. : كيف يمكن لبلد مثل أمريكا لا يتعدى تاريخ حضارته الثلاثة قرون،

سبق له أن أجهز على الحضارة الهندية.. كيف لهذا البلد أن يجهز على أقدم حضارة هي الحضارة العراقية ؟

للأسف اليوم، وضعنا أصبح شبيهها ببداية الاستعمار، كما لو أن الأمريكيين قدموا لاسترجاع ذلك. وما أتمناه اليوم، في ظل الظروف الخطيرة التي نمر بها ويمر بها العالم، أن يكون هناك وعي بأهمية التواصل الحضاري وبوجود مصلحة مشتركة على مستوى عالمي، ولكن بشرط أن تحليل هذه المصلحة المشتركة يأتي بالمشاركة وبإجماع وبتناسق خصوصا وأن المؤسسات التي تأسست بعد الحرب العالمية الثانية فقدت مصداقيتها، وفي مقدمتها منظمة الأمم المتحدة.

22

اليابان واحتلال العراق(*)

تحتاج الأزمة العراقية إلى تمحيص كجزء من طفرة كبرى للنظام العالمي الذي انطلق مع انهيار الاتحاد السوفياتي وحرب 1991 على العراق.

إنها دلالات على اختلال النظام العالمي الذي يُلمس اليوم على مستوى دولي كما أبانت عن ذلك مسيرات الاحتجاج الحاشدة ضد الحرب في كل أنحاء الأرض منتصف فبراير الماضي. فسكان الكوكب يدركون أن ما هو معرض للخطر ليس فقط مصير شعب العراق ولكن الرعب الكبير من نتائج هيمنة لا سابق لها في تاريخ العلاقات الدولية. فنحن تواجهنا ميغا امبريالية وعندما اندلعت حرب 1991 كنت قد وصفتها بالحرب الحضارية الأولى وكتبت أنه لا يمكن إيقافها لا بقرار مجلس الأمن ولا عبر حل دولي أو مؤتمر سلام لأنها نوع من المواجهة التي من المحتمل أن تدوم عشر أو خمس عشرة سنة آخذة مظاهر متعددة، ليست عسكرية بالضرورة لا سيما غداة القرن الحادي والعشرين الذي يؤشر على تحديات كبرى هي بالأساس حضارية، وليست سياسية واقتصادية فحسب.

فحرب 1991 ضد العراق لم تتوقف قط وقد خلفت قبلا أزيد من مليون ضحية في صفوف المدنيين الأبرياء بما في ذلك نسبة كبيرة من الأطفال، ودمرت أهم البنيات التحتية في البلاد.

أما التحضيرات للهجمة المكثفة الجديدة فقد استغرقت شهورا من التشاور الدبلوماسي والاستراتيجي والعسكري، بما في ذلك إجراءات أولية لإعطائها

(*) كيودو نيوز، طوكيو، 16 دجنبر 2003 ؛ جريدة العلم، 23 دجنبر 2003.

شرعية من طرف الأمم المتحدة. ومن ثم، فما نشاهده اليوم هو امتداد لعملية سيطرة دولية تتجلى أكثر عند مساءلة استقامة نتائج الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة، والركود الاقتصادي، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 التي هزت عميقا شعور الأمريكيين بالمناعة، وتخوّف من إرهاب أدى إلى انطلاق سلسلة من الإجراءات العسكرية والسياسية والاقتصادية والقانونية ذات بعد عالمي، تكرس الإرادة الامبريالية للولايات المتحدة الأمريكية، ثم هناك طبعا النفوذ المتزايد للوبي العسكري الصناعي ولوبي شركات النفط المقربين من العاملين في إدارة بوش المتلهفين لإعادة رسم خريطة العالم.

على مسرح الأحداث ستسيطر مسألة القيم أكثر مما حدث خلال الحرب الحضارية الأولى لأن المشاكل هذه المرة ستمتد إلى باقي العالم لا سيما أوربا، وإذا ما عدنا إلى سنة 1943، سنجد أن الفيلسوفة سيمون فيل تموضع أوربا كواسطة مناسبة بين أمريكا والشرق ونعلم جيدا، أنه بعد الحرب، ستشكل أمركة أوربا تهديدا خطيرا، ونعلم كذلك ما قد نخسره، إذا حدث هذا... ما قد نخسره هو ذلك الجزء من ذواتنا القريب جدا من الشرق.

أخطر ما تصطدم به البشرية من جراء مذهب بوش هو سيطرة قيم تعتمد فقط على القوة العسكرية ولا تدع مجالا للتنوع.

ستكون النتيجة الفورية هي التدمير غير القابل للوصف والتقدير لما بقي من العراق، ومئات الآلاف من الأبرياء سيكونون ضحايا هجوم همجي سيستخدم ويجرب أحدث الأسلحة المتطورة. وربما قد يسير الوجود العسكري الأمريكي على خطى نموذج احتلال اليابان عام 1945 وستدرج التحضيرات للهجوم على إيران في تصميم إعادة رسم خريطة العالم، وستتم إعادة الرسم هذه بشكل أحادي على يد قوة وحيدة بخلاف ما سبق أن أقره مؤتمر برلين لعام 1885، عندما ذهبت إفريقيا ضحية بلقنة وتوزيع بين الأوربيين ولن تكون العملية شبيهة باتفاق سايكس ـ بيكو لعام 1916 والذي قسم الشرق الأوسط إلى دوائر نفوذ.

وستصبح إسرائيل الدولة المحورية في هذا المشروع الأمريكي الجديد، الذي سيعزز احتلالها للأراضي ودورها كشرطي في المنطقة العربية، وستكون إسرائيل كذلك معنية جدا بأنشطة بترولية متعددة مثل بناء وتدبير خط الأنابيب الجديد، وهنا يمكن للمرء أن يقف على ازدواجية معايير الأمم المتحدة والمجتمع الدولي. فليس هناك بلد خرق القرارات الأممية والمبادئ الدولية وحقوق الإنسان مثل إسرائيل. إنها تملك قدرات نووية لا يتوفر عليها أحد، ومع ذلك ستكون في مقدمة اهتمام صناع القرار المستحكمين في مستقبل الشرق الأوسط.

وقد تكون العربية السعودية أكبر خاسر في أي عملية تغيير بالمنطقة وحتى بعض الأنظمة الموالية لأمريكا سيتم استبدالها، والادعاء السخيف بأن التدخل في العراق سيرسي مسلسل دمقرطة في المنطقة هراء ليس إلا.

يعلم كل واحد أن الولايات المتحدة مثل العديد من القوى الغربية تخاف من عمليات الدمقرطة في العالم العربي لأنها ستحدث حتما تغييراً جذريا في السياسات الخارجية للأنظمة الحالية. كذلك، لن يبقى أغلب الذين يحكمون العالم العربي حاليا في السلطة أكثر من بضعة أشهر بدون دعم الولايات المتحدة ومن بعض القوى الكولونيالية السابقة. فأزيد من نصف البلدان العربية ترابها - وقواعدها الجوية كذلك - مفتوح للجنود الأمريكيين وللتسهيلات الاستراتيجية والعسكرية، وبذلك فإن السلاح الحقيقي الوحيد في يد العرب هو البترول فقد استخدموه سنة 1973 وليسوا مستعدين لتكرار ذلك بعد 30 سنة مضت. والشعوب العربية لا يمكن أن يبقى مغررا بها للأبد، والإهانة لا يمكن أن يقبلها شعب لفترة طويلة والدفاع عن الكرامة لا يمكن إلا أن يثير ردود فعل قد تكون عنيفة في طبيعتها وستندلع انتفاضات جديدة في كل الوطن العربي الإسلامي مخلفة ثمنا اجتماعيا وإنسانيا كبيراً.

أما المنظمات بما في ذلك الأمم المتحدة وجل فروعها، والمنظمات الاقليمية مثل جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الاتحاد الافريقي وحركة دول عدم الانحياز ومنظمات أخرى ستفقد ما بقي لها من مصداقية إذا

كانت لها أصلا. ففيما يخص مثال جامعة الدول العربية فإن القمة الأخيرة التي انعقدت بمصر في 28 فبراير الماضي كانت خيانة لا تصدق للقضية التي من المفروض أن تدافع عنها المؤسسات ولم يعد مجلس الأمن الأممي مجمع سلام وإنما أضحي سوق بورصة إذا لم يكن سوق مواش حيث تباع الأصوات وتُشترى.

كان رأيي منذ حرب 1991 على العراق أن النزاعين متشابكان : تعرض العراق للهجوم لأنه كان البلد العربي الوحيد الذي استثمر كثيرا في البحث العلمي فأضحى يشكل تهديداً على إسرائيل، واعتقد بعض الزعماء الفلسطينيين خطأً في الوعود الأمريكية بأنه بعد حرب 1991 على العراق ستنطلق مفاوضات سلام جديدة لإنشاء دولة فلسطينية.

وهكذا بدأت مؤتمرات مدريد وأوسلو التراجيكوميدية ما اصطلح عليها بعملية سلام لم تثق بها معظم الشعوب العربية، عملية ساندها زعماء عرب انتهازيون ظلوا يبيعون فلسطين إربا إربا على مدى نصف قرن. ومرة أخرى، يمكن تكرار السيناريو ذاته، التحرر لا يأتي أبداً من الخارج هذا هو الدرس الذي ستستخلصه الشعوب العربية الإسلامية من احتلال جديد، ينضاف إلى الاحتلال الذي يعاني منه آخرون وأعتقد أن هذا سيكون إيذانا بانتهاء منظمة التحرير الفلسطينية، لأنها كما نعلم تنازلت كثيرا دون الحصول على نتائج ملموسة للفلسطينيين الذين يعانون من إحدى أكبر المظالم في التاريخ المعاصر.

اليابان بلد عرف الاحتلال بعد تدمير نووي شامل لمدينتين من مدنه، احتلال لم ينته بعد في الواقع كما يدل على ذلك غياب كلي لسياسة خارجية يابانية مستقلة وهو واقع أكثر من مثير للحيرة بالنسبة للدول العربية الإسلامية إذا لم نقل بالنسبة لجل دول العالم الثالث. فأين تختفي قوى اليابان الاقتصادية والمالية والعلمية والتكنولوجية والثقافية عندما ينبغي ترجمتها إلى سياسة خارجية قوية متناسبة مع هذه الإمكانيات ؟ كيف ستتمكن اليابان من الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن إذا كانت مواقفها من القضايا المحورية كالحرب والسلم مجرد صورة باهتة لمواقف الولايات المتحدة ؟

لقد تعرضت بغداد للتدمير عام 1520 من طرف المغول، ومن المحتمل جدا أن تتعرض مجددا للتدمير عام 2003 فالمغول الجدد لا يحترمون حياة البشر فحسب، بل ويجهلون قيمة كنوز ثقافية لحضارة عمرت عدة ألفيات، حتى منظمة اليونسكو التي يوجد حاليا ياباني على رأسها تلزم الصمت كما كان الشأن خلال حرب 1991. شيء واحد مؤكد لن يبقى العالم كما هو عليه الآن، ومهما تكن الطريقة التي سيعاد بها رسم خريطته، فإن الولايات المتحدة ستدخل في فترة اندحار قد تدوم بين 15 و20 سنة على الأكثر والخاسر الأكبر لن يكون سوى الحضارة الإنسانية التي عجزت، رغم تقدمها في كل مجالات المعرفة، عن تسخير هذه التطورات للدفاع عن الكرامة وخدمة السلم. لا يجب أن ننسى أننا نتحدث عن عالم عربي إسلامي عانى من نزاعات خلفت ملايين الضحايا. عندما ستأتي لحظة الحقيقة ستكتشف شعوب العالم الإسلامي كيف تكون التحالفات الحقيقية وكيف تصبح المصالح عرضة للخطر في زمن الحرب، وفي نهاية المطاف هذه التحالفات ذات طبيعة حضارية صرفة، لا يجب أن يكون هناك اندهاش من الكيفية التي سيرد بها 1,5 مليار شخص على الشرخ الثقافي دفاعا عن كرامتهم، والسؤال الذي يطرحه كل شخص في هذا الجزء من العالم هو أين هي اليابان من هذا النزاع ؟

وكما كان يردد دائما البروفسور يوزو إيتاغاكي أحد أبرز المتخصصين في قضايا العالم العربي الإسلامي "اليابان بصدد فقدان مكسب ثمين جدا، ثقة العالم الإسلامي"، اليابان بلاد تولي أهمية ثقافية كبرى لمفهوم الاحترام ولأدواره ومكوناته والسؤال اليوم هو ما إذا كانت تقبل أن تطبق هذه المقاربة احتراما لحياة أناس يواجهون خطر إبادة شبيهة بتلك التي ذهب ضحيتها مواطنون يابانيون قبل 58 سنة في هيروشيما وناغازاكي. وحتى اليوم، الحضور العسكري الأمريكي في اليابان لا يزال واقعا، وسابقة لا يجب أن تغيب عن الأذهان، لا سيما في عالم أحادي القطب، السلام هو أنجع سلاح للعمار الشامل.

23

إيفاد اليابان فرقة عسكرية إذعانا للميغا إمبريالية(*)

إن عواطفي تجاه اليابان وعلاقاتي معها لأكثر من ثلاثة عقود ذائعة الصيت. والوقت الذي كان يخشاه محبو اليابان قد حل، إثر اتخاذ حكومتها قرارا بإيفاد فرق عسكرية إلى العراق، ومهما تكن الألفاظ والعبارات التي يمكن أن تستعمل كغطاء، فهذا يعني فقط تدخلا عسكريا دون سند قانوني دولي.

دلالة هذه المبادرة واضحة، لا تخرج عن نطاق دعم سياسي كامل لعدوان عسكري ضد شعب بريء دام 14 سنة بلا هوادة. إنها حرب خلّفت مليونين من الضحايا الأبرياء، ضمنهم نصف مليون من الأطفال، 168 شهرا من القصف يفوق بالأضعاف المتفجرات التي أسقطت على هيروشيما وناغازكي، دون الحديث عن التجريب الجاري لأسلحة اليورانيوم المنضب.

إنها فترة تحول فيها العراق إلى حقل تجارب لعتاد جديد دون اعتبار لأبسط المعايير والقوانين الإنسانية. فأي "إعمار" تريد حكومة اليابان أن تساهم فيه سوى المشاركة في استمرار التدمير الرهيب لشعب وحضارة.

لا ! لا يمكن أن تكون هذه هي اليابان. أنا أفهم جيدا إكراهات اليابان التي تؤوي ضدا على إرادة شعبها قواعد عسكرية أمريكية لمدة نصف قرن تقريبا، لأنها تخشى من الامكانات العسكرية لكوريا الشمالية، والمنافسة الاقتصادية المتنامية من الصين. والضغوط المالية من الولايات المتحدة، وحساسيتها من ثروة النفط الذي تستورده من الشرق الأوسط بنسبة 80%.

(*) كيودو نيوز، طوكيو، 16 دجنبر 2003، القدس العربي، 30 دجنبر 2003.

رغم هذه الاكراهات، يجب أن تؤخذ في الحسبان عوامل أخرى قد تصبح أكثر أهمية على المدى البعيد، هذه العوامل تتضمن احترام الديمقراطية في بلد 90% من سكانه يعارضون أي شكل من التواطؤ مع الحرب الأمريكية ضد العراق.

هناك عامل آخر خارجي مهم، هو صورة اليابان في المنطقة والتي يجب أن تعتمد عليها لاستيراد جزء كبير من حاجاتها من الطاقة منها، هذا لا ينسحب أيضا على باقي مكونات العالم العربي والإسلامي، وكذلك على كل بلدان العالم الثالث.

إن إيفاد 600 إلى 1000 جندي سيعمل فعليا على طي عقود من الإرادة اليابانية السليمة، والتعاطف السياسي والدعم الاقتصادي والتواصل الثقافي في جزء كبير من العالم.

إنه لمدعاة للخجل أن يضيع هذا الاستثمار ويتم السير في اتجاه مضاد لإرادة اليابانيين وعدد كبير من القوى السياسية في البلاد. أرى أن هذا شبه إذعان للميغا إمبريالية الجديدة التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية ولا أعتبر ما ورد في السطور السالفة تدخلاً في الشؤون اليابانية، من شخص زار بلاد مطلع الشمس 16 مرة خلال الخمس والثلاثين سنة الأخيرة، بما فيها إقامات طويلة كأستاذ زائر في جامعتين يابانيتين، وكمحاضر في عدد من المؤسسات الأكاديمية، وأيضا ككاتب أو كاتب مشارك لعدد من المؤلفات الصادرة باليابانية.

إن هذا نداء لإعادة النظر في هذا القرار غير الحكيم، يوجهه شخص غير سياسي حاول عبر إسهامات ثقافية وعلمية مع الأكاديميين اليابانيين بلورة فهم أفضل بين اليابان والعالم العربي الإسلامي. وأتمنى ألا تذهب جهود سنوات عديدة سدى، على الأقل في نظر الآخرين. والذين كانوا يقولون لي باستمرار إنني أبالغ في تقدير الاستقلالية اليابانية على المستوى الدولي كانوا على صواب. ومع ذلك لازلت آمل أن تتغير الأشياء في المستقبل، وحتى ذلك الحين، ستكون اليابان قد أدت ثمنا باهظا يمكن تفاديه إذا تمت مراجعة هذه البادرة الطائشة والكلفة، إنها ردة فعل عفوية وصادقة من محب لليابان أصيب في العمق.

24

أمريكا ستفشل في العراق(*)

الحوار مع الدكتور المهدي المنجرة ممتع وشيق. وللدكتور المنجرة، قناعة راسخة بأن البشرية اليوم تواجه "ميغا" امبريالية أمريكية، يكون فيها العالم متحكما فيه من مركز واحد.. وهو واشنطن، عاصمة المعسكر الأمريكي الضخم، حيث الحضارة تعسكرت، والعلم تعسكر، والاقتصاد صار آلة ضخمة لصنع السلاح، واستخدامه، وحيث صار 70 إلى 80 في المائة من البحث العلمي الأمريكي موجها لصناعة السلاح، وتطوير طرق وآليات السيطرة، لا لتحسين ظروف الحياة الإنسانية، كما يكشف الدكتور المنجرة في هذا الحوار.

ورغم "الميغا" امبريالية، والسيطرة الخارجية شبه المطلقة على منطقتنا، حيث الحكام أسلموا مستقبل الشعوب إلى البنك الدولي وصندوق النقد.. وحيث كل شيء يسطر في ما وراء البحار، فإن عالم المستقبليات المغربي الشهير الدكتور المهدي المنجرة، مشبع بقناعة راسخة بأن مرحلة "الذلقراطية" العربية قد قربت نهايتها، وأن الشعوب ستنتفض انتفاضتها العظيمة، لتطوي صفحة الضعف والهوان هذه، مهما اشتدت سطوة الحكومات، ونصيرها الخارجي.

وحين سئل الدكتور المنجرة هل يتوقع أن تنجح المقاومة العراقية في طرد الأمريكان من العراق صاغرين، قال أنا لا أتوقع شيئا أعلمه يقينا. وأضاف قائلا "الشعب العراقي مثل أي شعب له تاريخ نضالي.. هذا التاريخ النضالي سيستعاد تدريجيا.. البعض يتصور أن العراق انتهى.. هذا خطأ شنيع.. انهزم العراق عسكريا، ولكنه أخذ درسا لم يأخذه أي شعب عربي آخر. إذن لما ينطلق هذا الشعب في المقاومة، ستكون مقاومته أقوى من أي مقاومة أخرى.."

(*) أقلام أون لاين، العدد الثامن، السنة الثانية، 6 يونيه 2003.

وقال "الناس الذين يعيشون الصدمة، ثم يستخلصون منها فوائدها ودروسها، ويستخلصون ما هو ممكن عمله للمستقبل، يأتون بأشياء عظيمة، لا يمكن لأي قوة عسكرية أن تقهرها.. هذا يحتاج شيئا من الوقت، وتدريجيا المعنويات الأمريكية تتحطم، مهما جلبوا من جنود، ومهما وظفوا من أقمار صناعية".

وشدد الدكتور المنجرة على أن أمريكا فشلت وستفشل في العراق، لأن هدفها ليس احتلال العراق، وإنما تغيير ثقافة شعبه، محو خصوصيته، مؤكدا أن ذلك لن يتحقق، وأن العراق سينهض، وسيكون أقوى مما كان عليه، لأن لديه علماء لا يستهان بهم، ولأن وراء شعبه حضارة عمرها آلاف السنين.

واتهم الدكتور المنجرة واشنطن بشن حرب صليبية على كل ما هو غير يهودي - مسيحي في العالم، وخاصة من العرب والمسلمين. واتهم مفكرين غربيين (هنتنغتون) بالسعي لتبرير حروب الهيمنة على العالم عامة وعلى العرب والمسلمين خاصة، مؤكدا أن العالم يحتاج إلى الحوار لا إلى الحرب، ومذكرا بأنه أقام جائزة دولية للتشجيع على الحوار شمال/جنوب.

كما اتهم الدكتور المنجرة، وهو نائب سابق لمدير منظمة "اليونسكو"، هذه المنظمة بالتواطؤ مع الإدارة الأمريكية في عملية تخريب ونهب حضارة العراق وتاريخه، الذي أكد أنه تاريخ لكل الإنسانية، وليس خاصا بحضارة معينة أو دين محدد. وقال إنه يعرف جيدا اليونسكو، باعتباره كان نائبا لمديرها العام، محملا إياها مسؤولية عدم إنقاذ حضارة في خطر، ومتهما دولة الكويت بتمويل لصوص ومرتزقة لنهب الآثار العراقية وتخريبها، ومشددا على أن الجيش الأمريكي مسؤول مسؤولية مباشرة عن كل ما لحق حضارة العراق من خراب وتدمير.. وفي ما يلي نص الحوار مع عالم المستقبليات المغربي البارز الدكتور المهدي المنجرة :

□ أقلام : كيف تنظرون لما جرى ويجري في العراق ؟

■ م. م. : المسؤولون والحكام العرب، والصحافة العربية، قتلت العراق، قبل بدء الهجوم الأمريكي عليه، ودفنوا العراق قبل أن يموت، وقبل أن تدفنه

القوات الأمريكية.. هذا موقفي من البداية.. التغييرات كانت متوقعة، ولكنها برهنت على عدم الاهتمام العربي الرسمي بالشؤون العربية، وبشؤون المنطقة، وبرهنت على أن الكلام الذي قلته من زمان.. منذ أكثر من 20 سنة، عندما قلت إننا دخلنا في مرحلة استعمار حقيقي، لأن الاستعمار الحقيقي ليس هو ما كان في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين.. كان صحيحا.

الاستعمار الذي نعيشه في بداية القرن الحادي والعشرين، هو استعمار قوة عملاقة، هي الولايات المتحدة، واستعمارها نوع جديد من الاستعمار، غير مسبوق.. في استجواب قبل شهور تحدثت عن الميغا امبريالية.. الفرق بين الامبريالية العادية والميغا امبريالية.. ميغا يعني امبريالية مضاعفة ألف مرة.

ما كان حاصلا من قبل هو منافسة في الميدان الامبريالي.. كانت هناك فرنسا وبريطانيا، وكانت إيطاليا وكانت ألمانيا، وكانت البرتغال وكانت إسبانيا.. كان هناك لعب متقارب بينهم، وكان هناك تفاوض، وكانوا يقتسمون العالم بينهم، لكن الآن لا يوجد هناك نقاش.. هناك طريق واحد، وموقف واحد، واستعمار مسير من مكان واحد، والبقية تسمع وتطيع.

طبعا الدول العربية تابعة للإدارة الأمريكية، لدرجة لا يمكنني أن أعرف على وجه الدقة، هل كانت الحرب حرب أمريكية ضد العراق ؟ أم حربا من الدول العربية ضد دولة أخرى شقيقة لهم هي العراق... وطبعا أنا هنا أتكلم عن الشعب العراقي، ولا أتكلم عن حكامه السابقين.

□ أقلام : هذا بالنسبة لموقف الحكومات العربية.. لكن كيف تقوم موقف الشعوب العربية ؟ وهل كان في مستوى الحدث ؟

■ م. م : كنا نظن أن الشعوب العربية ستتحرك.. وأنا نفسي كتبت كتابا قبل ثلاث سنوات، اسمه "انتفاضات"، وقلت إن الفجوة بين الحكام العرب وشعوبهم بلغت درجة لا يمكن أن تدوم وتستمر.. ولازلت أعتقد ذلك، ولكن الشعوب نفسها مضغوط عليها، بشكل غير معتاد.. الشعوب العربية تعيش في

فقر مدقع، وتعيش في الجهل والأمية، وتعاني من غياب العدالة الاجتماعية.. الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد بسرعة كبيرة، وحتى إذا تحرك أي شعب عربي، نجد أن السلطة المحلية، والجيش المحلي، والأمن المحلي، جاهزين للقمع والقتل.

هذا كان موجودا من قبل.. أما ما أضيف الآن، مع الميغا امبريالية، فهذه الحكومات لها مساعدات كبيرة فنية وتقنية، تأتيها من الولايات المتحدة الأمريكية ومن آخرين، ولها مساعدات من المخابرات، وكلها موجهة لقمع الشعوب..

□ **أقلام : في ظل هذا الوضع كيف سيكون المستقبل إذن ؟ هل سيستمر خضوع شعوبنا لهذه الميغا امبريالية ؟ وإلى متى ؟**

■ **م. م.** : يا سيدي مفهوم أن الواقع لن يبقى كما هو.. نحن في الدراسات المستقبلية نعرف جيدا أن الواقع لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه اليوم.. نحن في هذه الدراسات لا نأتي بأشياء من السماء أو من عندنا.. نحن نرى أن كل شيء مرتبط بالثمن الاجتماعي.. التغيير آت لا شك فيه، والانتفاضات آتية لا شك فيها أيضا.. ولكن هل ستكون بعنف كبير، وبخسائر كبيرة، بآلاف الأرواح ؟ أم إنها ستأتي بلطف ؟

إذا الحكام تفهموا فهذا هو المطلوب.. أما التغيير فإن الشعوب لا يمكن أن تعيش من دونه، ولا يتخيل أحد أبدا أنه لن يأتي.. هذا هو السؤال.. السؤال أن السياسيين عامة، والسياسيين العرب خاصة، تفكيرهم مبني على شيء واحد، هو الغد القريب.. في الساعات الأربعة والعشرين المقبلة فقط، هل سنبقى في الحكم أم لا ؟

إذن تفكيرهم على الآماد البعيدة، وحتى المتوسطة، هو تقريبا غير موجود.. التفكير في القضايا البعيدة يصنع في خارج بلداننا، وحكامنا لا يفكرون في المستقبل، فمستقبلنا مرهون.. إنه ليس بين أيدينا.. حكامنا أسلموا أمرهم إلى

البنك العالمي، يقرر ما هو مستقبلنا.. صندوق النقد الدولي يقرر ما هو مستقبلنا.. سفارات الدول الكبرى.. المساعدة الفنية.. الخ، كلها تفكر بدلا منا لنا.. لكنها ترسم مستقبلنا بالطريقة التي تريد.. ولكن لا يمكن أن تبقى الأشياء كما هي.. ستتغير الأمور حتما، وكلما تأخر التغيير، كلما ارتفع ثمنه..

□ أقلام : هل تتوقعون أمدا زمنيا تقريبيا لهذا التغيير ؟

■ م. م. : إذا بدأ التغيير الجذري، فلا أرى أن أي نظام من الأنظمة العربية الموجودة سيعيش لأكثر من خمس سنوات.. أنا كتبت كتابا عن "الذلقراطية".. الذل.. أنا بصدد تجهيز كتاب بالفرنسية عن (L'humiliation)، لأن الذل وصل إلى حده الأقصى، ووصل احتكار القوة، وغياب العدالة الاجتماعية، وتعامل الحكومات مع المواطنين، إلى نوع غريب وممجوج من العجرفة، حتى صار الناس يقولون إننا لم نعرف هذا حتى في عهد الاستعمار. هذا ينطبق على العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، وهذا يعني أن عمر هذه الحكومات الفاسدة قد بات قصيرا جدا.

□ أقلام : لنعد إلى العراق والحرب العدوانية الأمريكية البريطانية عليه.. هل ترون أن الإدارة الأمريكية قد حققت أهدافها في العراق ؟

■ م. م. : أظن أن الولايات المتحدة قد حققت الأهداف الخارجة عن العراق.. فقد برهنت وأعطت درسا، في ما يسمى بالجيوستراتيجية. أنه لا يمكن لأي قوة أن تتحرك أو تقف موقفا فيه عرقلة للسياسة الأمريكية.. رأينا ذلك مع ألمانيا ومع فرنسا.. وأنا قلت في بعض الاستجوابات قبل الحرب إن مواقف فرنسا وألمانيا هي نوع من الكوميديا.. لا يمكن نظرا للوسائل الجديدة للحروب، وللوسائل الاستخبارية، أن تقوم أي دولة، حتى ولو كانت ألمانيا أو فرنسا بمواجهة الولايات المتحدة أو حتى معارضتها.

الأهداف التي هي خارج العراق، برهنت الحرب على قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على تحقيقها، فما جرى برهن على اختلال موازين القوى

لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، وما جرى قام بدوره، وخاصة في ما تعلق بتوجيه رسائل إلى دول الجوار..

إذا أرادت الولايات المتحدة من الحرب البرهنة على أن كل الدول العربية بين أيديها، تلعب بها كما تريد، فهذا تمت البرهنة عليه.. إذا أراد الأمريكان البرهنة على أنهم أكبر قوة عسكرية في العالم، وأن لديهم أسلحة جديدة أشد فتكا.. فهذا أيضا تمت البرهنة عليه. إذا أرادوا البرهنة على مدى قوتهم الاستخباراتية، فقد أثبتوا أنهم قادرون على التقاط أكثر من 3 ملايين كلمة في الدقيقة في العراق.. إذا أرادوا البرهنة على أن لديهم إمكانيات للاستيلاء على النفط فهذا برهنوا عليه أيضا..

لكن أهداف أمريكا في العراق هي أن تغيّر الشعب العراقي.. أن تغيّر حضارة 7 آلاف عام.. أن تغيّر ثقافة العراقيين.. ولكن هذا لم ولن تحقق فيه أي نجاح. وبالعكس أنا قلت إنني لا أخشى على العراق.. لماذا ؟.. فإذا أخذنا تجربتين في التاريخ المعاصر، لبلدين لهما تاريخ عريق، وقد تحطما في الحرب العالمية الثانية تماما، تقريبا، من قبل ما يسمى بالحلفاء، وخصوصا أمريكا..

أمريكا احتلت اليابان وحدها، كما فعلت في العراق الآن، ودول "الحلفاء" احتلوا ألمانيا.. لكن ما حدث أنه من الناحية الصناعية، ومن الناحية الاقتصادية تطورت كل من اليابان وألمانيا أكثر من الدول التي كانت تحاربها. وما كانت تخشاه أميركا ولا زالت،ذهبت من أجله على الذهاب للحرب، فهم العلماء العراقيين.

العلماء موجودون في العراق من زمان.. أنا درست في الولايات المتحدة في الخمسينيات، ثم في بريطانيا، وعدد الطلبة العراقيين الذين درسوا هناك كان كبيرا، وكان هناك اهتمام كبير بهم من لدن بلادهم.. وهذا الأمر ليس له علاقة بهذا النظام أو ذاك.. هذه القوة.. هذه الطاقة الهائلة، ولو كانت الآن في الخارج، ستفعل فعلها في الارتقاء بالبلاد مجددا.

ثم إن الحضارة العريقة، التي لدى العراق، هي أيضا مصدر قوة كبيرة للعراق، ولعل هذا ما يفسر الهجوم الكبير على التراث الحضاري الإنساني، الذي يمتد لسبعة آلاف عام من التاريخ والحضور.. كما يفسر الطريقة التي هجموا بها على المتاحف، وعلى المكتبات وحرقوها.. فهذا شيء منظم.. هذا كله كان أمرا مقصودا، وحتى "اليونسكو"، التي اشتغلت بها، وكنت مسؤولا فيها عن القطاع الثقافي لم تتحرك.

□ أقلام : (مقاطعا) سنأتي إلى هذا الموضوع، وسنبحثه بشكل خاص لاحقا..

■ م. م. : فيما يخص الأهداف الأمريكية، هناك هدف آخر، وهو مدى شعبية جورج بوش داخل بلاده.. الولايات المتحدة مقبلة على انتخابات جديدة، وهذا مهم للمجموعة الحاكمة الآن في الولايات المتحدة.

□ أقلام : كنتم قبل قليل تجرون مقارنة بين العراق وبين اليابان وألمانيا.. ولكن هناك من يقول إن أمريكا سمحت لليابان ولألمانيا بالوصول إلى ما وصلا إليه من تطور تقني وعلمي، في ظل المنافسة مع الكتلة الاشتراكية سابقا.. أما الحالة العراقية فهي حالة خاصة، وأن واشنطن لن تسمح للعراقيين بما سمحت به للألمان واليابانيين.. فما تقولون في ذلك ؟

■ م. م. : هذا ليس تحليلا.. حقيقة أنه كان هناك تنافس داخل ألمانيا، لأن هناك جزء أخذته روسيا، وهو ألمانيا الشرقية، وكانت هناك ألمانيا الغربية.. وروسيا كانت تساعد الشرقية، وأمريكا تساعد الغربية، لكن هذا لا يكفي لوحده..

ألمانيا توحدت في مدة قصيرة، وحصل تعاون بين الألمان بعضهم البعض.. في اليابان الولايات المتحدة فرضت شروطا على اليابانيين.. هي التي أعدت الدستور الياباني، والدستور الألماني، والآن يشتغلون على الدستور العراقي.. يتكلمون عن الديمقراطية، وليست هناك ديمقراطية، إذا لم يكن الشعب، هو

الذي يقرر من يحرر دستوره. في ألمانيا واليابان لا تزال هناك حتى الآن أشياء ممنوعة على الشعبين.

هناك جزء صحيح مما قلت، وهي أن الظروف ليست مثلما كانت.. كان هناك معسكر شيوعي ومعسكر رأسمالي، ولكن مع ذلك هناك نوع من التقارب بين الحالات الثلاث.. أنا أتكلم عن البنية التحتية، ولا أقصد العمارات، ولا المباني، ولا غيرها.. البنية التحتية للتطور والحضارة هي الطاقة البشرية، التي تغير الأشياء.. وأيضا هي الحضارة، التي خلف الشعب العراقي.. هذه قوة.. القيم والحضارة قوة !

الولايات المتحدة فرضت الحرب على العراق، لأنه من الناحية العلمية، ومن الناحية التكنولوجية، هو الدولة الوحيدة، التي كان ممكنا لها الآن أن تواجه الى حد ما إسرائيل، وهذا لا يسمح لأي بلد في المنطقة، وبالخصوص إذا كان عربياً ومسلماً.

□ **أقلام** : لقد لاحظنا خلال هذه الحرب وبعدها، علماء يقتلهم لصوص، ويستباح دمهم، فهل تتوقعون، على ضوء ذلك، أن تسمح الإدارة الأمريكية للعراق بجمع علمائه، ولملمة شعبه من جديد ؟

■ م. م. : أمريكا تسمح أو لا تسمح.. إذا أرادت أن تمحو الكرة الأرضية فهذا ممكن، ولكن مهما مارست من ضغوط، هناك طاقات بشرية موجودة، ولا يمكن لأمريكا أن تواجه، في نفس الوقت، ما يحصل في كوريا الشمالية، وما يحصل في أمريكا اللاتينية، وما يحصل في باقي أنحاء العالم. وأظن أنه حصل لها نوع من التفتيت والتشتيت لقواها، وهي تبني كل وجودها الآن على الأسلحة الجديدة المتطورة، وعلى الاستخبارات.

هذا العام ميزانية الدفاع في أمريكا وصلت إلى 400 مليار دولار.. هذا المعلن عنه رسميا في الميزانية، التي يوافق عليها الكونغرس.. هذا يجعلها معسكرا.. الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد دولة، ولم تبق حضارة، ولم يبق

اقتصادا.. صارت معسكرا.. تعيش لصنع الأسلحة.. وحتى البحث العلمي في أمريكا صار 70 إلى 80 في المائة منه خاص بالقطاع العسكري، أي خاص بالقتل والتدمير، وليس موجها لتحسين مستوى الحياة الإنسانية.

□ أقلام: يبدو أن القوات الأمريكية تواجه مقاومة في العراق، لم تكن في الحسبان.. هل تتوقعون أن تنجح المقاومة في العراق، في إخراج الولايات المتحدة الأمريكية سريعا ؟

■ م. م. : أنا لا أتوقع شيئا أعرفه من البداية.. الحرب انتهت بالطريقة التي انتهت بها، عبر خيانة بعض الشخصيات، وعبر استعمال المال، بدرجة لم تعرف من قبل.. الشعب العراقي لم يكن محاربا من الدول الاستعمارية فحسب، بل كان محاربا من الدول القريبة منه، مثل الدول الخليجية وغيرها.. المخابرات العربية كم منها كان ولا يزال يتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، لاختراق الجبهة العراقية ؟..

الشعب العراقي مثل أي شعب له تاريخ نضالي.. هذا التاريخ النضالي سيستعاد تدريجيا.. البعض يتصور أن العراق انتهى.. هذا خطأ شنيع.. انهزم العراق عسكريا، ولكنه أخذ درسا لم يأخذه أي شعب عربي آخر. إذن عندما ينطلق هذا الشعب في المقاومة، ستكون مقاومته أقوى من أي مقاومة أخرى.

الناس الذين يعيشون الصدمة، ثم يستخلصون منها فوائدها ودروسها، ويستخلصون ما هو ممكن عمله للمستقبل، يأتون بأشياء عظيمة، لا يمكن لأي قوة عسكرية أن تقهرها.. هذا يحتاج شيئا من الوقت، وتدريجيا المعنويات الأمريكية تتحطم، مهما جلبوا من جنود، ومهما وظفوا من أقمار صناعية..

وأنا عندما قلت إنني لا أخشى على العراق، فأنا أعني هذه الحركة الشعبية، التي ستذهل الأمريكيين. الشعب العراقي يشعر أنه لن يصل إلى مرحلة أسوأ من المرحلة التي هو فيها الآن، أو أن يدفع ثمنا أكثر من هذا الثمن الذي دفعه..

الآن مر 13 عاما من الحرب والحصار، قتل فيها مليونان من العراقيين على الأقل.. لا أحد حتى الآن أعطى أرقام الضحايا.. نحن نعرف كم قنبلة قصف بها العراق، وكم طائرة حلقت في الأجواء، لكننا لا نعرف عدد الأرواح التي أزهقت..

لماذا ؟ لأن الأرواح في منطقتنا لا قيمة لها.. عندما يسقط غربي من جبل في الهمالايا، فإننا سوف نشاهد صوره في الصحف، ومختلف وسائل الاعلام كلها، ونقرأ عنه تقارير تروي تفاصيل ما حدث له.. أما نحن فيموت 10 أو 30 أو 50 ألفا، فهذا ليس مهما.. ولكن لا خوف، فكل ذلك سيولد طاقة للمقاومة لا تقهر.

□ **أقلام : تتحدثون باستمرار عن مخططات لتقسيم المنطقة بعد سايكس بيكو.. هل يمكن أن تكون هذه الحرب العدوانية مقدمة لتقسيم العراق، ثم بعد ذلك تقسيم المنطقة ؟**

■ م. م. : ليس بعيدا تنفيذ الفكرة، التي تتحدث عن تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق.. هذا سيناريو قديم، حتى في وقت نوري السعيد.. في وقت نوري السعيد كان هناك مخطط لتقسيم العراق، وجمعها من جديد، تحت إطار تدخل فيه الأردن وجزء من سورية.

التفتيت والتشتيت هو جزء من مخططات أي قوة استعمارية.. وهناك مشاهد لتقسيم العراق إلى مناطق للأكراد، ومناطق للعرب، ومناطق للشيعة، ومناطق للسنة.. وهناك تقسيم جغرافي لتوزيع النفط، حتى لا تمسكه قوة واحدة.

□ **أقلام : هل تتوقعون أن تنتقل الحرب من العراق إلى سورية أو إيران، أو ربما حتى مصر أو السعودية ؟**

■ م. م. : أظن أن الهجوم على إيران بطريقة عسكرية أو غيرها آت.. هذا مخطط، وهذا سيأتي ربما في غضون السنتين المقبلتين، وبالخصوص مع

اقتراب الانتخابات الأمريكية، سوف تتحرك السياسة الأمريكية في هذا الميدان.

وما يلاحظ في إيران أن التهديدات الأمريكية قد صنعت وحدة قوية بين مكونات المشهد السياسي الإيراني المختلفة، كما قربت تلك التهديدات بين الشعبين الإيراني والعراقي، وهذا ما تخشاه الولايات المتحدة الأمريكية، لأن هذين الشعبين المسلمين الوحيدين، هما اللذان يملكان الطاقة العلمية الواعدة.. حتى العراق سيستأنف حضورها العلمي بعد مدة قليلة. ولا شك أن المواقف الإيرانية من الكيان الصهيوني ستدفع الأمريكان والصهاينة إلى تسريع شن الحرب على إيران.

بالنسبة لسورية الأمر ممكن، لكن الطريقة، التي تعاملت بها دمشق مع الوضع الناتج عن احتلال العراق، تندرج ضمن ما يسمى براغماتية وواقعية.. لقد ثبت أن سورية ما بعد الحرب على العراق، ليست سورية ما قبل الحرب، حتى رأينا موقفها من القضية الفلسطينية يتغير كثيرا عما كان من قبل.

بالنسبة للسعودية هناك ضغوط.. وأنا أتوقع أن الدول التي كانت أقرب من غيرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وخدمت أمريكا أكثر من غيرها، ستعرف ضغوطا أكبر، وستحدث فيها تغييرات أكبر، وبالتالي فالسعودية، ويمكن مصر، ستحدث فيها تغييرات، وهذا ليس حبا في التغيير في هذين البلدين، ولكن نعرف كيف يستخدم الاستعمار دول العالم الثالث.. يستغله ويستغل حكامه إلى درجة فاحشة، وعندما يجد أنهم لم يعودوا قادرين على الدفاع عنهم لمدة أطول، فإنه يرمي بهم، ويأتي بجيل آخر، يوصله إلى الحكم. وبالنسبة للترتيب فإن الأمر سيطال إيران ثم سورية ثم أخيرا السعودية.

25

حرية التعبير(*)

منع الدكتور المهدي المنجرة من إلقاء محاضرة في البيضاء حول موضوع "آفاق الاستعمار الجديد" بمبررات أخطر من قرار المنع ذاته. وقبل ذلك منع أحمد السنوسي وما يزال من الإعلام العمومي في التلفزتين الأولى والثانية، ونهاية الشهر الماضي، منع الإئتلاف المغربي من أجل الحق في الوصول إلى الدواء والاستثناء الثقافي من حق الوقوف السلمي أمام البرلمان للاحتجاج على الاتفاق السري مع أمريكا حول منطقة التبادل الحر، حيث أبت السلطات إلا أن تجعل الوقفة مصحوبة بالعصي على رؤوس الفنانين والأطباء والحقوقيين.

المنع بدأ أيضا يتحرك في اتجاه الأحزاب والحركات السياسية، التي منعت مؤخرا (جمعية الوفاء للديمقراطية، حركة المبادرات الديمقراطية، حزب العدالة والتنمية، الفيدرالية الديمقراطية للشغل...) من حق استعمال القاعات العمومية بمذكرة ادريس البصري الشهيرة التي أثارت زوبعة وسط الفريق الحكومي لعبد الرحمان اليوسفي.

واليوم فإن نفس الوثيقة رجع لها أقطاب العهد الجديد بكل سهولة ويسر.

في هذا الاستجواب يحكي الدكتور المهدي المنجرة عن واقعة المنع الجديد وظروفه وفي نفس الوقت دروسه وعبره. إنه نموذج مصغر لنوع المغرب الذي تبنيه نخب العهد الجديد.

□ الأيام : مرة أخرى بعد 5 سنوات من المنع الأول تتعرض إحدى محاضراتك للمنع من قبل السلطة، ما هي قصة هذا المنع الجديد ؟

(*) الأيام، العدد 128، 26 فبراير - 3 مارس 2004 (أجرى الحوار توفيق بوعشرين).

■ م. م. : لقد تعرضت إلى المنع حتى الآن خمس مرات، المرة الأولى كانت في فاس، والثانية في مكناس والثالثة في عين لوح، والرابعة في ابن سليمان، أما الخامسة ففي البيضاء.

في كل هذه الأنشطة المحظورة كنت ألبي دعوة جمعيات ثقافية أو دعوات طلابية أو منتديات علمية لباحثين في الكليات، وفي دور للشباب، لا أقبل أية دعوة لنشاط حكومي أو رسمي.

هذه المرة، تلقيت دعوة من جريدة منبر الشباب لإلقاء محاضرة حول اتفاقية التبادل الحر ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والمغرب، قلت لمدير الجريدة السيد الوالي، إنني لست على اطلاع حول هذا الملف. والاتفاق لم ينشر بعد ولم أر أي نقاش حكومي حول الموضوع، فمن الناحية العلمية لا أستطيع الحديث عن موضوع من فراغ. بعد ذلك اتفقنا على تخصيص المحاضرة لموضوع ما بعد الاستعمار الجديد. وأنا من الأوائل الذين وضعوا هذا المفهوم ويمكن مراجعة محرك البحث "google" الذي يضم ثلاثة ملايير وثيقة، للتأكد من تاريخ نحت هذا المفهوم ومفهوم آخر حول "ميغا امبريالية..."

أنا أتحدث حول موضوع علمي. ولست بصدد الدعاية لبرنامج انتخابي أو سياسي ولا أتوفر على شركة أو ضيعة أو بنك ربما قد تتضرر من اتفاق التبادل الحر. موضوعي كان حول آفاق الاستعمار الجديد، واهتمامي بالموضوع يرجع إلى أربعة عقود، ودخلت بسببه إلى السجن بسبب نضالي ضد الاستعمار القديم وعمري 15 سنة، وأنا اليوم أمنع لأنني أتحدث علناً عن الاستعمار الجديد، وأنا مستعد غدا للموت من أجل محاربة هذا الاستعمار في الداخل والخارج.

□ **الأيام** : إذن المنع كان بسبب موضوع المحاضرة ؟

■ م. م. : كان عنوان المحاضرة هو "الاستعمار الجديد وآفاقه" وبدأ المنظمون يسعون من أجل الحصول على الترخيص لقاعة عمومية والسلطات المعنية تماطل. فأخبرت السيد الوالي مدير الجريدة أنني لن أنتظر المنع إلى يوم المحاضرة، وقلت له إذا لم تحصل على الترخيص قبل موعد المحاضرة، فإنني سأعلن عن المنع، وبالفعل إلى آخر لحظة لم تحصل الجريدة على الترخيص لإلقاء محاضرة في قاعة دار الشباب بدرب السلطان ـ الفداء، ولما استفسر صاحب الجريدة عن أسباب المنع، قالوا له : السبب الأول : الموضوع قد يمس بمصالح الولايات المتحدة. لقد فهم المسؤولون وهذا إيجابي أن المقصود بالاستعمار الجديد هو أمريكا حتى قبل إلقاء المحاضرة. والسبب الثاني أن اسم المنجرة اسم ثقيل (ولا أعرف مكانا تقدم فيه وصفات تخفيف وزن الأسماء).

أنا كأستاذ للعلوم السياسية والعلاقات الدولية، لم أفهم دواعي هذا القرار ولا أسبابه، منع المنجرة ليس مهما بحد ذاته، إن المنع يمس المبدأ من جهة حرية التعبير، ومن جهة حق الباحث في المعرفة وفي الوصول إليها.

إذن المنع هو في الأصل تحجير على عقول الناس وفرض الوصاية على مداركهم وعلى حقهم في التساؤل.

إن الديمقراطية الحقيقية هي التي تسمح بفهم أسلوب اتخاذ القرار، وعندما ينعدم هذا الفهم وهذا الترابط بين مراحل صنع أي قرار، فاقرأ على الديمقراطية السلام.

□ **الأيام : من يقف وراء منع المهدي المنجرة، أنت لا تتحمل أية مسؤولية وآخر موقع علمي كان لك هو أستاذ جامعي قبل أن تحتج على ضرب الحرية الأكاديمية في الجامعات المغربية ؟**

■ م. م. : أنا لم أتخل عن الجامعة، وفي سني هذا ما زلت أستاذا في سلك التدريس، وقد اتخذت السلطة بمناسبة مرور 40 سنة على تأسيس جامعة محمد الخامس قرارا بمنحي أستاذا جامعيا مدى الحياة صحبة أستاذين آخرين.

أنا أول مغربي درست في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس، لقد اختاروا بقرار جعلي أستاذا جامعيا مدى الحياة إنها مبادرة رمزية، ولكنها من ناحية أخرى أزعجتني لأنهم لم يستشيروني. إنه تشريف رمزي أكثر منه أي شيء آخر، فأنت تعرف، أن قانون الوظيفة العمومية يعطيك حق الاحتفاظ بنفس الأجر بعد مرور 40 سنة على مزاولة المهنة.

☐ **الأيام** : ما هو سر هذا التناقض، بين أخذ قرار جعلك أستاذا جامعيا مدى الحياة وفي نفس الوقت منعك من إلقاء محاضرة في مكان عمومي ؟

■ م.م. : أنا لا أعرف جوابا لهذا السؤال، خذ مثلا قرار منعي في عين لوح، قالوا لي إنه قرار محلي ثم لما تتبعت الموضوع وجدت أن قرار المنع وقعه باشا إفران. وهذا الأخير جاءته تعليمات من الرباط ووضع طابعه على المنع وبالضبط من وزارة الداخلية. إلى أين تريد مني أن أصل ؟

أظن أن المنع المتكرر يحمل الجواب الواضح على مستوى اتخاذ القرار. إن السلطة في هذا البلد تزعجها استقلالية المواقف. عندما عجزوا عن تصنيفي، مرة يقولون هذا شيوعي وأخرى يساري وثالثة إسلامي ورابعة ليبرالي... إن هاجس مراقبة المثقفين والتحكم في أرائهم ومواقفهم هو السبب الكامن وراء هذا المنع.

☐ **الأيام** : هل تعتبر أن استقلاليتك هي سبب منعك ؟

■ م. م. : أنا من ناحية معينة قد أعتبر "رجعيا" لأنني أومن برضا الوالدين، لدي وصية من الوالد رحمه الله تقول : "لا تدخل يا بني إلى أي إطار أو حلقة أو زاوية أو حزب أو نادي غير مفتوح لكل خلق الله". وأنا في هذا السن ما زلت متشبثا بهذه الوصية الغالية، ولهذا لن تجد إسمي في أي حزب أو نادي للغولف أو الروتاري، نعم ناضلت في صفوف الحركة الوطنية وفي صفوف حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاتحاد الاشتراكي... ولكن على قاعدة المبادئ والقيم الإنسانية.

عندما نكون في مجتمع ديمقراطي حقيقي، وليس مجازيا تتنكر فيه الكلمات لمعانيها، فالواجب أن نكون ديمقراطيين أولا فيما بيننا، أما عندما تحافظ على استقلاليتك وعلى نظافة يدك وعقلك وعندما يعجزون على توريطك في سرقة يتضايقون، أكثر من هذا عندما يجدون أن لا مقدس لديك إلا الله، وأنك لا تبايع إلا الله وأنك لا تسجد إلا لله، فإنهم يشعرون بالارتباك.

أنا أعيش للوفاء لمبادئي، ولخدمة الآخر، أنظر إلى أرقام مبيعات كتبي، طبع مثلا من كتاب حوار التواصل إلى حد الآن 60 ألف وهو رقم قياسي في المغرب والعالم العربي. أدخل إلى محركات البحث في الأنترنيت لترى سعة انتشار ما أكتب.

□ **الأيام** : في استطلاع للرأي الذي نظمه موقع منارة على الأنترنيت حول شخصية السنة حصلت على أكبر عدد من الأصوات متقدما على الوزير الأول إدريس جطو وعلى وزراء ومستشارين ملكيين، هل تعتقد أن هذه الشعبية التي تتمتع بها خصوصا في وسط الشباب وراء قرارات المنع التي تتعرض لها بعض محاضراتك ؟

■ م. م. : أنا لم أتدخل في هذا الاستطلاع، وتابعته كما تابعه عموم زوار هذا الموقع، أنا أقترح على هؤلاء الذين يضايقهم نشاطي في الحقل الثقافي، أن يحضروا لمتابعة جمهور محاضراتي ولقاءاتي المباشرة مع الطلاب والشباب وعموم المواطنين، من دون إعلان في الصحف ولا دعاية. أتعرف لماذا ؟ لأن مصداقيتي هي كل رصيدي، وبهذا الرصيد أعيش اليوم، وأنا أقول دائما يوم أدخل إلى قاعة وألاحظ أن واحدا من الحضور متضايق من وجودي، إذ ذاك سأعتبر حياتي قد انتهت.

□ **الأيام** : منعت الآن 5 مرات وكلها في زمن يقال عنه عهد جديد، وزمن يؤسس فيه المغرب للحداثة والانتقال الديمقراطي، في حين لم تمنع في العهد القديم رغم أرائك المزعجة في بعض الأحيان إلى ماذا ترجع هذا ؟

■ م. م. : العهد القديم كان هاجسه الأول هو المعارضة المؤسساتية المتشكلة في الأحزاب والمنظمات السياسية التي تتوفر على هياكل تنظيمية وإمكانات إعلامية... أما عندما استطاع نظام العهد القديم/الجديد شراء وأكل وهضم المعارضة السابقة، أصبح كل هاجسه أن يدخل الجميع إلى صف الانضباط، وأصبحت بعض الأصوات التي رفضت الصفقة تزعجه وتشكل تحديا لسلطته ونفوذه ومخزنه، فأصبح كل اهتمام السلطة هو قمع الصحافة المستقلة وقمع بعض الأصوات المستقلة.

احتجاجي سنة 1999 عن منع محاضرتي في فاس وسفري إلى اليابان كان بسبب اقتناعي بأن وظيفة الأستاذ مزدوجة، وظيفة معرفية وعلمية ووظيفة أخلاقية، من خلال المواقف والدفاع عن القضايا العادلة، عشت في الولايات المتحدة الأمريكية على عهد ماكرثي وقوانينه المتعصبة، وشهدت كيف كان أساتذة الجامعة يدفعون طلبتهم للاحتجاج في الشارع ومناهضة قوانين ماكرثي، فكان تقييم أداء الأستاذ نابعا من درجة إنسجامه بين ما يدعو له من أفكار وما يتبناه من مواقف عملية وشخصية.

لقد لامست تعاطفا وتضامنا واسعا لم أكن أتوقعه من أشخاص من كل الفئات والأعمار والاتجاهات والمناطق في الداخل والخارج. وفي نفس الوقت لاحظت سكوت وتقاعس أناس وشخصيات كنت قد أسست معهم المنظمة المغربية للدفاع عن حقوق الإنسان وبعد مدة رفضت أن أجدد ترشيحي للرئاسة وانسحبت.

□ **الأيام** : علمت أن موضوع تأسيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان كان محل اعتراض الراحل الحسن الثاني وأن الترخيص بالتأسيس لم يأت إلا بعد لقاء لك معه، ما هي حقيقة هذه الرواية ؟

■ م. م. : أرجوك أنا لا أريد أن أدخل في هذه الموضوعات أو أن أشخص القضايا (يحتج).

□ **الأيام** : هذا جزء من التاريخ من حق من لم يعايشه أن يطلع عليه.

■ **م. م.** : في ثقافتنا نحن المسلمين، لا نتحدث عن الموتى.

الأيام : لكن هذا تاريخ وأحداثه لم تمت ولها صلة بالحاضر والمستقبل ؟

■ **م. م.** : الموقف من سياسة الراحل الحسن الثاني أعلنته وقلته ونشرته في حياته، عندما كان عدد كبير يغط في نوم عميق، هذا موضوع آخر، ولكن لما توفي رأيت كيف أن بعض الأشخاص الذين كانوا يلزمون الصمت كيف استيقظوا بعد وفاته لينتقدوه... هذا موقف غير أخلاقي ولن أفعله وليس في ثقافتي أن أتحدث عن شخص بعد أن يدخل إلى القبر، في حياته انتقدته، وتقارير المخابرات موجودة شاهدة على ما أقوله.

في سنة 1960 رفضت العضوية في ديوانه وهو ولي العهد آنذاك، ورفضت العضوية في اللجنة التي كانت مكلفة بتحرير أول دستور للمغرب. ورفضت الاستمرار في مديرية الإذاعة نفس السنة عندما كان البعض يريد أن يخلط بين الإعلام والدعاية، ورفضت مناصب وزارية عرضت علي وعدد من الوزراء ما زالوا على قيد الحياة يمكنكم أن تسألوهم. لهذا قال الراحل الحسن الثاني لبعض المقربين منه إن المهدي تعب، وعليه أن ينصرف ليرتاح، ولهذا ذهبت لمدة 17 سنة وأنا خارج البلاد.

عندما كنت مديرا للإذاعة سنة 1959 قدمت استقالتي لأنني لم أكن مستعدا أن أنفذ التعليمات وأجعل من الصحافيين موظفين ينفذون التعليمات.

□ **الأيام** : لنرجع إلى قصة رفض الملك الحسن الثاني تأسيس المنظمة المغربية لحقوق الإنسان ؟

■ **م. م.** : سنة 1989 جاء ممثلون عن ثلاثة أحزاب : الاتحاد الاشتراكي، التقدم والاشتراكية، منظمة العمل الديمقراطي الشعبي إلى مكتبي، وطلبوا مساعدتي لتجميع عدد من الأشخاص من مختلف الاتجاهات لتأسيس المنظمة

المغربية لحقوق الإنسان، باعتباري شخصا مستقلا ولدي علاقات طيبة مع الجميع، تقدمنا بطلب الترخيص ورفض. وبقي الأمر معلقا إلى أن أخبرني أحمد عصمان بأنني سألتقي مع الملك الحسن الثاني في إفران وهي مناسبة لتسوية أمر الترخيص للمنظمة.

كان معنا ادريس البصري وأحمد عصمان وعبده ربه، والتقينا بالملك في قصر إفران وامتد الحديث بيننا في عدة موضوعات إلى أن توجه إلي الملك بالسؤال عن مبررات تأسيس منظمة لحقوق الإنسان، فأجبته بالقول : إن أي تفحص سريع للائحة أعضاء المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا "C.N.R.S" يكشف عن عدد كبير من المغاربة العاملين بهذا المركز وهو ما يسمى ظاهرة هجرة الأدمغة.

لقد قمنا يا جلالة الملك بدراسات وأنا شخصيا تابعت تجربة خوان كارلوس في اسبانيا حيث استدعى جميع العقول المهاجرة للدخول إلى اسبانيا.

أن جميع الدراسات حول هجرة الأدمغة ترجع الأمر لسببين رئيسيين : الأمر الأول هو غياب إمكانيات ووسائل البحث العلمي في الدول التي يهاجر أهلها إلى الخارج، والسبب الثاني هو الحرية. فالباحثون أول شيء يطلبونه هو الحرية. وأضفت أنت تعرف يا جلالة الملك أن أهل فاس كلهم خرجوا إلى الشارع زمن الاستعمار يوم دخل عسكري فرنسي إلى جامع القرويين خرجوا دفاعا عن حرمة الجامعة... لهذا أنا أدافع اليوم عن حقوق الإنسان.

فأجاب الملك ونحن في القصر وبحضور كل الحكومة، وقال بالفرنسية : "Manjra m'a donné une mauvaise conscience" المنجرة أعطاني الإحساس بتأنيب الضمير، وسأضع كل إمكانياتي في البحث العلمي في الميزانية المقبلة...

أما عن الحديث حول النظام القديم أو الجديد فلا أرى فرقا بينهما، إن كل ما تغير بين الأمس واليوم هو معنى التغيير.

□ **الأيام** : مع كل ما وقع بعد ذلك وانسحابك من المنظمة المغربية لحقوق الإنسان كان الراحل الحسن الثاني دائما يبقي شعرة معاوية، وسمعت من بعض المصادر أنه طلب منك بعد هذه الحادثة التي رويت أن تشرف على التأطير العلمي لولي العهد آنذاك، الملك محمد السادس اليوم، هل هذا صحيح ؟

■ م. م. : أرجوك، لا أريد الحديث في هذا الموضوع ولن يعرف أحد هذا الأمر حتى أدخل إلى القبر، هذه مسألة خاصة وطلب لم يأت من الملك كرئيس دولة بل جاء منه بشكل شخصي، وأنا أحترم خصوصيات الأحياء فما بالك بالأموات.

علاقتي بالراحل الحسن الثاني ترجع إلى فترة الطفولة، تعرفت عليه وعمري ست سنوات، وكانت علاقتنا مبنية على الاحترام في إطار قول الحقيقة. حتى أن أعضاء أكاديمية المملكة كانوا يعتبرون جرأتي في الحديث عن أوضاع المغرب وعن الحياة السياسية، راجعة إلى نوع خاص من الحماية استمدها من معرفة قديمة بالملك. وهذا ليس صحيحا أبدا، وليس في الموضوع سر، كان الملك يعرف آرائي وطبعي ومواقفي وعدم استعدادي للتفاوض أو التنازل عن حريتي وكان يحترم ذلك.

ومن جهتي كنت أفرق بين الاحترام وبين قول الحقيقة والتشبث بالمبادئ. إن مهمة الأستاذ أو المثقف في المجتمع هي "التبليغ"، أعرف أنها كلمة قوية، لكنها التزام وجب احترامه. أما التخلي عن القيم الأخلاقية والاستعداد للتفاوض على كل شيء فهذا يسيء إلى التدريس والمدرسين...

لقد اخترقت وزارة الداخلية حرمة الجامعة وتلاعبت بوظيفتها وسط المجتمع، وربما نحتاج إلى جيل أو جيل ونصف لنصلح ما أفسدته. لقد أصبحت الفجوة كبيرة بين الأساتذة والإدارة والطلبة. والجامعة اليوم في أحلك ظروفها.

لقد نجح النظام القديم الذي مهد للنظام الجديد في اختراق المجتمع وتطويع إرادة المقاومة لديه.

من قبل كان هناك وضوح نسبي في أطراف المعادلة السياسية، هناك السلطة غير الديمقراطية. وهناك أحزاب معارضة تلح على المطالب الديمقراطية، أما الآن فقد اختلطت الأوراق ولم نعد نميز أين يبدأ المخزن وأين ينتهي. هناك تعريف لجاك أتالي مستشار الرئيس الفرنسي الراحل متران، للحداثة يقول :

"الحداثة تعني أن لا تكون متقادما".

لماذا أذكر هذا التعريف ؟ أذكره لأقول للذين يرددون مثل الببغاوات كل ما يسمعون من شعارات وكلمات، بأن الحداثة ليست مفهوما جامدا ولا شعارا سياسيا للاستهلاك، بل هي مفهوم يصنع من خلال السلوك الفعلي وليس من خلال استظهار الكلمات. فمعنى أن تكون حداثيا هو أن تصنع شروط الحداثة ومقوماتها في السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم، وإلا ستصبح متقادما من العصور الحجرية. وهذا المعنى هو ما يشير إليه جاك آتالي في كتابه الذي يحمل عنوان "قاموس القرن 21".

إن خلق الكلمات لا يحل المشاكل، والهروب من الواقع إلى الشعارات لا يخلق حقائق جديدة على الأرض.

□ الأيام : من المبررات التي أعطيت لمنع محاضرتك في البيضاء هو الخوف على العلاقات الأمريكية المغربية ونحن على أبواب توقيع اتفاقية للتبادل الحر، وفي نفس اليوم الذي منع فيه النشاط بثت إذاعة سوا الخبر، ما هو تفسيرك لهذه المفارقة ؟

■ م. م. : تقول الحكمة الشعبية "أصحاب الجنازة صبروا والمعزين كفروا"، لقد استغربت من سرعة انتشار خبر المنع، أول من بث الخبر وكالة رويترز، ثم موقع الجزيرة على الأنترنيت، ثم أول تلفزيون اتصل بي هو "م.ب.سي" وأول جريدة نشرت الخبر هي "الشرق الأوسط".

دعنا من قصة المهدي مع المنع، ودعني أقول لك إن الهروب إلى الكلمات هو دليل غياب المعنى كما كان يقول أحد أساتذتي الكبار في بريطانيا.

الولايات المتحدة اليوم تعمل جاهدة لاستغلال وسائل الإعلام والاتصال، فهي تملك القوة التكنولوجية في مجال الاتصال التي تمكنها مثلا من مراقبة ملياري مكالمة هاتفية، وتسعى إلى أن تكتسب عن طريق هذه التكنولوجيا ما يسمى "بالذكاء الإنساني" أي المخابرات. فمجتمع الإعلام الذي نعيشه والمبني على تدفق المعلومات والأخبار والصور عبر الأنترنيت والتلفزيون والأقمار الصناعية والصحف والمجلات أصبح مجتمعا مخترقا من قبل الولايات المتحدة التي حولت المعلومات إلى مخابرات.

أذكر أنه بعد الإنزال الأمريكي في الدار البيضاء، بدأ الجنود الأمريكيون يوزعون الحلوى على الأطفال. إنه أسلوب ذكي في استمالة الرأي العام قبل إطلاق النار، هذا بالضبط ما تحاول أمريكا فعله لتربح المعركة قبل انطلاق الحرب. معركة الفكر والثقافة والمعلومة والاختيارات.

لهذا لو كان الفنان الحسين السلاوي رحمه الله على قيد الحياة، لمنعوه من غناء المقطع الذي كان يقول فيه "احضي راسك ليفوزوبيك القومان يا فالان، احضي راسك من الميريكان..."، غنى هذا المقطع بمناسبة الإنزال الأمريكي في الدار البيضاء في الحرب العالمية الثانية.

أمريكا تمتلك اليوم تقنية "الذكاء البشري" وهي تقنية تمت الإشارة إليها في مجلة "فورين أفيرز" سنة 1999، في مقال ثنائي كتبه كل من مدير سابق للمخابرات الأميرال "نايت" الذي شارك في حرب العراق سنة 1991. عنوانه : أمريكا والحد الأقصى للمعرفة، ويبين فيه إلى أي حد وصلت الولايات المتحدة في مجال المعرفة. ويدعو هذا المقال إلى الجمع ما بين تكنولوجيا المعلومات والبرامج، أي ربط الدبابات والطائرات والصواريخ والقنابل، بالتأثير في القناعات والأفكار والأذواق ودفع الشعوب الأخرى للقبول بالنموذج الأمريكي الوحيد والمعيار الأمريكي الوحيد.

وهنا بدأت تصرف ميزانيات ضخمة لهذه المهمة بدءا بنشر الكتب والمجلات والإذاعات والتلفزيونات وانتهاء بدعوة المثقفين والسياسيين إلى زيارة أمريكا وصرف المعونات والمساعدات الاقتصادية والمنح الدراسية.

إنها خطة علمية مدروسة، لقد أصبح نشاط السفارات الأمريكية في الخارج بالأساس هو ربط أكثر ما يمكن من العلاقات مع النخب والمجتمعات وليس فقط مع الأنظمة وأجهزة المخابرات.

عندما ذكرت إذاعة "سوا" خبر منع المنجرة، معناه أن الإذاعة تريد أن تقول لباقي المثقفين : انتبهوا إننا ذوو مصداقية من جهة. ومن جهة أخرى نحن مستعدون للدفاع عن المثقفين. وليس هناك تناقض. وهذه مؤسسات موجودة لخدمة أهداف بلادها وراءها سياسات إعلامية ذكية.

□ **الأيام** : إذن اليوم سنضيف إلى لائحة الممنوعات أو المقدسات مقدسا آخر هو الولايات المتحدة الأمريكية ؟

■ م. م. : أنت كصحافي يمكن أن تعد أكثر من لائحة، أما أنا فالمهدي ابن عبود رحمه الله علمني شيئا مهما وأنا ابن 17 سنة في أمريكا، عندما كان يخاطبني أقول له نعم سيدي، فالتفت إلي وقال : "تعلم أن تقول لا المهدي، قل لا أو لا وإذا اتضح أن هناك مبررات لقول نعم فلا بأس، أما إذا تعودت على قول نعم فيصعب عليك قول لا بعد ذلك".

هذه حكمة مازلت أحفظها وما أزال أحتفظ بكتاب اشتراه لي من المكتبة الفرنسية في نيويورك للفيلسوف الفرنسي بشلار بعنوان "فلسفة الرفض".

□ **الأيام** : سنة 1999، كان احتجاجك على المنع في صورة السفر إلى اليابان، ما هو احتجاجك على هذا المنع الجديد وما هو شكله ؟

■ م. م. : الاحتجاج لدي هو نفسه راحة، لا أقول إني أحتج، ولكن جوابي على هذا المنع الجديد هو أنني سأستعير مفهوم الراحة البيولوجية التي تعطى للسمك في البحر. وأعلن أنني سأدخل في "راحة أخلاقية"، أعلق بموجبها كل الأنشطة العمومية واللقاءات المفتوحة داخل المغرب وهو ما سيوفر لي وقتا أكبر للبحث العلمي، وأطلب الاعتذار مقدما لدى كل الذين التزمت معهم بإلقاء محاضرة أو لقاء إلى غاية نهاية هذه السنة.

26

تحالف دولي من أجل الدمار الشامل للحياة والذاكرة والبيئة والقيم(*)

ننشر هذا المقال للدكتور المهدي المنجرة الذي خص به الأيام بالاشتراك مع الوكالة اليابانية "كيودو نيوز" التي توزع هذا المقال على أكثر من 50 صحيفة في اليابان وآسيا ويطلع عليها ملايين القراء، وهو مترجم عن الأصل الانجليزي، حيث تلقى أفكاره صدى واسعا هناك في القارة الصفراء. وطُلب إليه من قبل ذات الوكالة بتخصيص مقالات دورية باعتبار تخصصه في المستقبليات من جهته وبسبب شهرته لدى الرأي العام الياباني من جهة أخرى.

يمثل العام 2004 السنة الثالثة عشر على التوالي من عملية الإبادة المتسارعة التي عاشها المدنيون الأبرياء من الشعب العراقي بواسطة الأسلحة الأمريكية المتطورة والحصار البربري الأمريكي.. فهذه المسيرة الطويلة من الرعب والمهانة لا يمكن اختزالها في سنة واحدة. وإلا سنكون حينها قد ساهمنا في تزوير التاريخ عبر عملية نسيان مقصودة واعتقاد سيء.

إن ما نحن بصدده اليوم هو قتل قرابة 2 مليون من المواطنين الأبرياء. وجميعنا شاهد أو كان شاهدا على لحظة بناء وتكوين التحالف من أجل الدمار الشامل للحياة والذاكرة عبر انتهاج سياسة التدمير وتخريب الإرث الثقافي العراقي مع إتلاف مهول للبيئة وانتهاج حرب ضروس ضد القيم الإسلامية لهذا البلد.

فالجميع يعلم اليوم التأثير القوي الذي تمثله الكنيسة الانجلكانية "عدد أعضائها 500 مليون منخرط في العالم" وأفكارها المتطرفة المبثوثة في قلب السياسة الأمريكية وكره مناصريها العميق للإسلام.

(*) كيودو نيوز، طوكيو، 15 مارس 2004، القدس العربي 22 مارس 2004 .

ومع ذلك لم يقدم أي مسؤول رسمي على مدنا بعدد الضحايا خلال هذه السنة الأخيرة. لكن يبدو أن بعض المصادر أقدمت على تقدير عدد الضحايا العراقيين بـ 200 ألف عراقي ما بين قتيل وجريح. وهذا الرقم مرشح للارتفاع بسبب دعم الولايات المتحدة الأمريكية للصراع العرقي والتفكيك الجغرافي الذي تعرفه البلاد منذ سنوات وازدادت حدته بعد الحرب ضد الكويت في العام 1991.. والآن يبدو أننا بصدد بروز عملية قتل شعب دفع بصورة قاسية ثمن ذلك الاجتياح الخارجي للكويت.

وخلال الاثني عشر شهرا الماضية، أو السنة الثالثة عشر من الحرب ضد العراق، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال إلا أن نعتبرها حربا لا تغتفر، كتب رمزي كلارك في رسالة موجهة إلى الأمين العام للأمم المتحدة بتاريخ 29 يناير 2004 إن حوالي 400 ألف من المواطنين العراقيين الأبرياء والعزل من السلاح والذين لا يتوفرون على أية وسيلة للدفاع قتلوا بواسطة العنف الأمريكي. وذلك منذ الاجتياح الأخير الذي انطلق بقوة في مارس 2003 محتفيا بقوته التكنولوجية والإرهاب والصدمة والخوف، ولا زال الأمر مستمرا حتى الآن عبر طلعات وغارات جوية يومية تصل إلى 25 طلعة مسببة في ذلك أعدادا من القتلى والجرحى.

فالخطر إذن يتجاوز الأبعاد البشرية والمادية والثقافية، بل أثر أيضا في العمق على بنية وآلية اشتغال النظام الدولي ومؤسساته خاصة منظمة الأمم المتحدة.. التي تضررت مصداقيتها بصورة واضحة.

كما أن القانون الدولي لم يسلم هو الآخر من التأثر بهذا الوضع الجديد حيث تم تجريده مما تبقى لديه من العدالة والقوة الأخلاقية والمعنوية التي كان يحظى بها في السابق..

والملفت للنظر أن وسائل الإعلام تحركت هي الأخرى كما لم تتحرك من قبل وأصبح الخبر يستعمل كسلاح للدعاية الجماهيرية والأخبار الكاذبة في علاقتها بمفهوم "القوة الناعمة".

وهذا المفهوم سبق وأن وظف منذ سبع سنوات خلت في مارس من عام 1996 في مقال ظهر في مجلة قضايا خارجية الأمريكية "فوريين افريز" تحت عنوان "عصر تفوق الإعلام الأمريكي" وبتوقيع اثنين من الكتاب اللذين سبق وإن انخرطا بصورة مباشرة في حرب الخليج لعام 1991.

وهما ج. ناي وو. اونس. واللذان يعرفان الحرب الناعمة باعتبارها القدرة على تحقيق الرغبات والطموحات في القضايا الدولية بواسطة الاجتذاب بدل القوة.

إن العالم العربي يوجد الآن في لحظة مطبوعة بثقل المواد الإخبارية والبرامج المعدة في الولايات المتحدة الأمريكية، التي أصبحت تتوفر في الآونة الأخيرة على محطات للإذاعة والتلفزيون تبث برامجها من داخل دول المنطقة ذاتها.

فإذاعة سوا وقناة الحرة كلها في حالة استعداد لتصدير "الديمقراطية" الأمريكية الجاهزة الصنع بمعية قوالب لحقوق الإنسان والخضوع السريع.. وبذلك تكون الطريق قد أصبحت سالكة لإقامة الشرق الأوسط الكبير الذي سينطلق من المغرب إلى باكستان، دونما أي اعتبار لوجود سياق سوسيو ثقافي لا يمكن نقله أو فرض سياق آخر بالقوة. والسبب طبعا هو أن الأمريكيين يطالبون بمبادرات مغلقة وبسياسة ستعتمد فيما بعد.

والمثير هو أن لا واحدة من هذه المبادرات تم قبولها من قبل السكان المعنيين لأنها تعتمد لتأكيد أن المغامرة الأمريكية في العراق انتهت بفشل ذريع وكشفت النقاب عن تلك الأكاذيب التي استخدمت لضرب العراق. فأسطورة أسلحة الدمار الشامل كانت ضربا من العدم ومصداقية من دعوا إليها أصبحت في الحضيض.

فلا يمكن للواحد منا اليوم أن يقف على الواجهات المتعددة لهذه الحرب المدمرة التي اعتمدت ضد العراق على سنوات عدة دون أن يجد نفسه مدعوا إلى الوقوف لحظة تأمل.

ولكن دعونا نقف على ما تغير لدى اليابان خلال الشهور الأخيرة مع احترامنا المسبق : فالدستور تم تغييره وتحويره لتعليل عملية ارسال قوات عسكرية إلى العراق بالرغم من أن وصولهم إلى هناك تزامن مع مقتل ديبلوماسيين اثنين في بغداد.. ولكن هذا التوجه الجديد في السياسة اليابانية هل هو انحناء للقرار الأمريكي أم هو نتيجة لتغير صورة اليابان من تلك الدولة المسالمة إلى قوة عسكرية جديدة ؟

فخلال السنة الماضية انتقلت اليابان من المرتبة الرابعة إلى الصف الثالث ضمن القوى العسكرية العالمية وذلك خلف روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. كما أن ميزانية الدفاع اليابانية اليوم تصل إلى حدود 40 مليار دولار بل يمكنها أن تتجاوز ميزانية روسيا على المدى القصير.

فخلال مؤتمر مدريد لتمويل إعادة إعمار العراق قدمت اليابان 5 ملايير دولار منها 200 ألف دولار قدمت نقدا، واليوم تعد اليابان عضوا نشيطا في التحالف. لكن بأي ثمن ؟ وماذا حصل لصورتها في العالم ؟

أعتقد أن الواحد منا اليوم يرى اليابان بمثابة ذلك التابع المطيع للولايات المتحدة الأمريكية كما لم تكن في السابق. وهذه هي الحالة الأكثر وضوحا في بلدان العالم العربي والإسلامي حيث صورة اليابان تأثرت كثيرا في نظر الأجيال الصاعدة، والذين صاروا يرون أن الصين ستكون هي الدولة الوحيدة التي بإمكانها أن تضع حدا للهيمنة الأمريكية ونظام القطب الواحد، إن في الآجال القريبة أو البعيدة.

فالجنود اليابانيون الأوائل الذين ذهبوا من الكويت إلى قرية السماوة الصغيرة التي تبعد بـ 270 كيلو مترا عن بغداد لم يكن لهم وجود في الشارع وذلك حسب قصاصات الأنباء الفرنسية، والسؤال الذي طرح حينها هو : ماذا كان يفعل الجنود اليابانيون ؟

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : ما هو حجم خطورة الوضع الأمني بالنسبة للمواطنين العراقيين مقارنة مع العام الماضي ؟. وما هي درجات الأمن الذي تعرفه المنطقة والعالم واليابان ؟

إننا واجهنا حالة شاملة من السقوط التام في العراق والعديد من الاختلالات الداخلية والخارجية على مستوى التنمية هي بصدد التشكل والتكوين. فعدم الاستقرار أضحى أمرا قائما في العراق وبدون شك فإنه سينمو وسينتقل إلى الجيران. كما أن الانتخابات الأمريكية التي باتت على الأبواب ستفرز كثيرا من الديماغوجية والأفعال والمواقف المرتجلة. والخاسر الوحيد في كل هذا هو السلام والكرامة الإنسانية و التعدد الثقافي.

وأنا الآن مقتنع أكثر من أي وقت مضى بالتحاليل التي قمت بها خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية عندما كنت بصدد كشف معالم الغزو العسكري ضد العراق معتبرا أننا كنا حينها بصدد أول حرب حضارية، أتمنى ألا أكون قد أخطأت..

27

المهدي بنعبود

الطبيب - الإنسان - الفيلسوف - المناضل والمؤسس المتنور(*)

تعرفت على الدكتور المهدي بن عبود في نونبر 1951، في ميناء نيويورك لدى وصوله على متن باخرة "الاستقلال S. S Independence" الأمريكية. وهذا لقب كان يحمل معه دلالة بالنسبة لشخص أحدث مكتبا لـ "حزب الاستقلال" بالولايات المتحدة الأمريكية. لقد كنت واعيا تمام الوعي بالامتياز الذي غمرني آنذاك، بصفتي أول طالب مغربي بذلك البلد، ولم تزدد قوة احترامي وتقديري للرجل وصداقتي معه إلا متانة عبر السنين، وكان أكثر من صديق أو أستاذ. فقد كان ولم يزل بمثابة مدرسة، لم تعرف سجلات الإحصاءات الوطنية عدد منتميها.

يعد الدكتور ابن عبود اليوم مؤسسة بالنسبة لأولئك الذين ما فتئوا يولون أهمية للضمير المحرك للحياة والإيمان بالله، والذي يعتبر نهاية للكون ذاته. ومن هنا تنبع روح هذا العالم الطبيب النضالية، روح لا هوادة فيها. وينبع التزامه الصامد للدفاع عن كرامة الإنسان. إنه سلوك مثالي قبل استقلال بلد أعطى من أجله بكثير من نكران الذات، بل وحتى بعد الاستقلال، والشواهد على ذلك مرسومة في ذاكرة الشعب، ذاكرة لا تقبل التزوير.

والرجل ذو المنهجية الواضحة والتفكير السليم أيضا، ذو فكر نظري ثاقب، فكر لا ينفصل فيه بحث المعرفة عن الشروط الأخلاقية والطموحات الروحية

(*) كتب هذا النص سنة 1997. وهو تأبين لرجل (رحل في 6 دجنبر 1999) حارب الإهانة كظاهرة سياسية وسوسيوثقافية بالفكر والممارسة.. إنه أستاذ في الكرامة علمني كيف أقول "لا".

والطرق الهادفة إلى تحسين وضعية البشرية. وهكذا بدا له من الطبيعي أن يُعرِّف بوظيفة رئيس مكتب "تحرير المغرب" لدى الحكومة الأمريكية وهيأة الأمم المتحدة، دون إهمال الجانب المهني، وذلك عن طريق تعميق خبرته الطبية والتخفيف من آلام المرضى بالشغف المعهود فيه. وقد كان كل من الهدفين حسب رأيه يساهم في تحقيق غاية واحدة، أي تسخير العلم للدفاع عن الكرامة بضمير مطمئن.

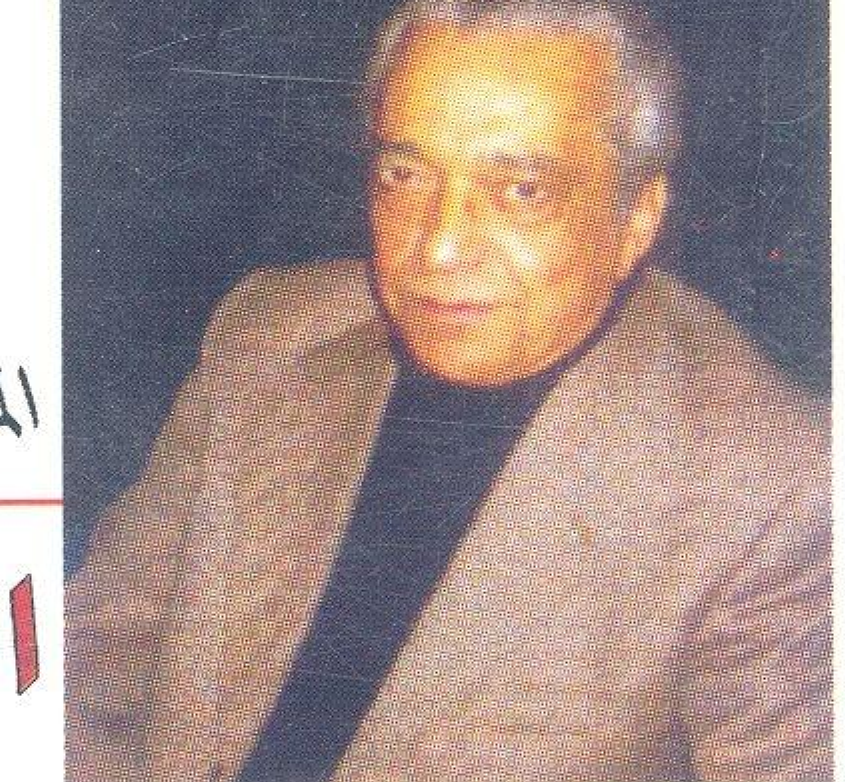
ويكمن انسجام آخر عند الدكتور ابن عبود في اندماج يكاد أن يكون كاملا، بين انشغالات المختص في العلوم البحتة من جهة، وميل شغوف لا متناهي نحو العلوم الإنسانية والاجتماعية من جهة أخرى. ولم يكن هذا التوازن نتيجة مصادفة، بل إنه تجسيد ملموس لمشاركة واسعة في شتى الميادين، إلى جانب ملكة لغوية، بتمكنه من العربية والفرنسية والانجليزية، مما سهل عليه مراكمة معلومات كبيرة دون اللجوء إلى الترجمات. كما يمتاز بظاهرة قلما تتوفر لدى غيره، ألا وهي معرفته الدقيقة بالكتب السماوية، وكذا "الكتب الصفراء"، إضافة إلى إطلاعه الواسع على تفاسير القرآن الكريم. وأوضح دليل على ذلك، يقدمه طلبة كلية الآداب بالرباط، والذين يدينون للسمات العلمية والتعليمية للمربي، المتفتح بمتابعة محاضراته في علم النفس والفكر الإسلامي.

في عهد يقال عنه، إنه عهد "عَولَمة" ليست سوى وسيلة تنميط جميع أنظمة القيم، وإبراز نموذج تفكير موحد عن طريق استعمار ثقافي، وارتزاق جديد لم ينحصر قط في المتاجرة بالمواد، ولكن كذلك بالعقول والضمائر، يسعدنا أن نسمع صوتا لا مراء في صدقه ونزاهته. إنه صوت يُطَمْئن أولئك الذين يقفون في وجه مساوئ استلاب ثقافي، تدبره عقول بسيطة. صوت ناتج بتواضعه عن تعلق متين بالمعرفة، وتعاطف غير محدود مع كل ما خلقه الله. المعرفة بالنسبة للدكتور ابن عبود أداة عملية لمحاربة رواسب الجهل، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، بل إنها وسيلة تَعبُّد، ومقدسة.

ويأتي النص الذي يقدمه لنا السي المهدي في هذا الكتاب في وقت جد مناسب، حيث تجتاز البشرية أزمة أساسية في شتى المجالات، وإنها أزمة خُلقية على الخصوص. إنها أزمة تؤدي إلى فقدان مصداقية معظم الأوساط المفروض فيها أن تساهم في حل مشاكل لم تزدد إلا تعقيدا. فمع عودة "حي بن يقظان"، يعود بنا الدكتور ابن عبود إلى التقاليد العريقة، التي ينتسب إليها ابن سينا وابن طفيل، اللذان كتبا حول شخصية ابن يقظان الخيالية، وكلاهما فيلسوفان طبيبان مثل كاتبنا، وعالمان لم يميزا قط بين العلم والفلسفة، مسلحان ضد أية جرأة لا صلة لها بالعلم.

وهكذا يأتي عمل الدكتور ابن عبود بمثابة تجديد للمعلومات في مجال ينقص فيه هذا الوعي، ألا وهو المجال الذي يُفسح للخيال، ويمنح السلطة الكاملة للمرح والتصورات. نعم، إن للسي المهدي بن عبود نوعا من المرح المتطور الذي تستنير به، وتسَنّ الميزات الفكرية والإنسانية. إن الله يحب المبتسمين، والسلام.

الفهـــرس



المهدي المنجرة

الإهانة

لم تعد لدينا أية شرعية حقيقية دوليا، فأمريكا تقول إنها تعتبر قرارها ودفاعها عن شعبها هو الشرعية، وتمنح لنفسها الحق في التدخل في أي مكان تريد، وفي أي وقت تريد، ولا أحد يعارضها.

نحن نعيش فترة تطرح علينا فيها تساؤلات كبرى، تمثل امتحانا لهذا العالم الجديد الذي نريده. وأرى أن هناك رؤية فيها تشاؤم، والتشاؤم هو أنه لا يمكن أن نصل إلى حالة ذل أكثر مما وصلنا إليه، وبالخصوص في العالم العربي والإسلامي، وهو ما أسميه "الذلقراطية".

إن حكامنا يقبلون الذل ممن هم أقوى منهم، وبالخصوص من أمريكا وإسرائيل، وحين يقبلونه يسقطونه علينا كشعوب، وشعوبا تقبل الذل من حكامها، فنحن إذن أمام ذل وإهانة عظيمة.

www. elmandjra.org



المركز الثقافي العربي ص.ب 4006 – الدار البيضاء – المغرب